



تحية لله - تحية لله - تحية لله

مولاتى صاحبة الجلالة الملكة « فريدة »

لما سطع نور صاحبة السمو الملكى الأميرة « فريال »

المحبوبة فى أفق الحياة .. تنزل على وحى هذه القصة من نورها

العالى وهى قصة الحياة المتواضعة أقدمها خاشعة رمز حبي

وولائى للمليكة برسم الأميرة

راجية الله عز وجل أن يجعل فآل الأميرة المحبوبة فآل

اليمين والسعادة والخلود فى عهد صاحبي الجلالة

جميله العلايل

المنصوره

من سنى الضوء فريال أنت
انبثق الفجر لما دملت
وتضاءل البدر لما سطعت

* * *

فلهنأ الكون بعطرك الشذى
ولتسعد الدنيا بفألك العلى

جميله العلايلي

بسم الله الرحمن الرحيم

أُلهِم فأكتب.....

وأكتب لالهَم.....

وأنا وقارئ فكرة في ضمير

الانسانية

نتحول بالصدق والصراحة إلى

قطرة دم في قلب الوجود

تبعثه من العدم إلى الخلود

جميله العلايلي

الفصل الأول

عندما عرفتُها

ابنتي جميلة

سأذكر أن ألقاك يوم الخميس القادم عصرا لحضرت جفلة

الشأى التى أقيمها فى منزلى بمناسبة تشريف صديقة عزيزة على
من بلاد العرب لتغيير الهواء ، وسوف تسرك هذه الزيارة
تفتح أمام ناظريك آفاقا جديدة من المعرفة والفكر و
أجمل الخواطر .

يا عزيزتى الصغيرة

حذار من التأخير إذ كل مصادقة تحمل فى ذيلها
حقائق الوجود

أمك

وإلى اللقاء

زينب

جاءت

حيث

فلهمك

بعض

جاءتني هذه الرسالة من سيدة محترمة لها في نفسى مكانة وكانت
دعوتها اللطيفة بما فيها من غمزات غامضة أكبر باعث على
قلبية دعوتها .

جئتها فى الميعاد فوجدت ظواهر البهجة بادية فى كل مكان بالبیت
وقد أبدعت فى تجميل الصالون وغرفة الطعام على الأخص ، حتى
خيل إلى أن بالمنزل عرساً وشاءت السيدة أن تفاجئني به . . . لكي
تخلق من المفاجأة قصة طريفة أصور فيها عرسها لأنها كانت مغرمة بأن
اتحدث عن حياتها لاعتقادها أنها المثل الأعلى للمرأة المصرية المستنيرة .
قدمتني للزائرات وهن خليط من السيدات والآنسات ،
المتعلقات والجاهلات ، المحافظات والمتطرفات ، المتعجرفات
والمواضعات .

ولفت نظري سيدة عليها طابع عجيب من الجاذبية المتجسمة فى
هجتها التى تشبه هدير الحمام ، وفى نظراتها التماع يبعث الطمأنينة فى
ففس من واجمها ويحماله على الصمت ليمتزج برقها فيشمر أخيراً أنه
خلق خاتماً جديداً .

على أنى لم أحده أن أنظر إليها كثيراً خوفاً من أن . . . تتمنى

بالفضول ، كان فيها قوة تدعوني للتطلع إليها ولكن حيائى كان يرد
طرفى فى ذهول وظللت هكذا أنظر إليها وأنا واستمع إليها أحياناً ،

وهي لا تتكلم إلا نادرا ، وإذا تكلمت اشترأت الاعناق إليها كأن
صوتها نغم يترامى من وراء الأبعاد كحمامة وديعة بسمتها

وسيرها وجلالها والى عناق آفاقها ولم تقف أذن هذه

السيدة الأعراية أصلاها مصرية ، فدهشت وحملت فيها متسائلة كيف
تكون أعراية ومصرية قالت : لها قصة عجيبة ، لا يعرفها أحد ، وإن
قدر لك وعرفتها عرفت تاريخ الحياة كلها في شخصين اثنين .

فلت علمها متوسلة راجية فوعدتني أن نقص على حكايتها إذا
زرتها في منزلها بالحدائق .

وهنا دخلت الخادم وهمست في أذنها « التليفون يطلبك »

فأستأذنت الفتاة وخرجت وأنا أشد ما أكون شوقا لتعرف
حكاية السيدة الأعراية أو المصرية كما تقول الفتاة .

لم تخمد رغبتى لتعرف الحقيقة لأنصراف الفتاة بل تجسمت حتى
شغلتنى عن كل ما يحوط بى - ما معى - أعراية أصلاها مصرية !!

بدت هذه الكلمات ملتمعة وضاعة كحروف من النور ، أمام
فاظرى . . وبدأت أفسر اللغز الذى جاء فى خطاب السيدة . إذن
لأبد فى الأمر سرا . . .

ولكن كيف أعرف الحقيقة ؟؟ . .

واهتديت إلى أمر قد يصلح حلا عندما دخلت الخادم لتقدم

إلى هنا أقهوة قلت : — متعمدة لكي أسمع الأعرابية صوتي — من
تريد أن أطالع فألها ؟

فنظرن إلى قائلات : كلنا . وكان صوت السيدة أعذبهن بهدوئه
فابتسمت ودنوت منها بعد أن أخذت من يدها الفنجان محدقة في
قاعه كأن به كلمات يمكن قراءتها . مختلصة النظر إليها من تحت أهدابي
لاصتعين على تعرف حقيقتها بالمعاني المرتسمة على وجهها في شبه
ظلال تبدو كلمات مقروءة للذهن النابه ، وفي هذه اللحظة فقط
أدركت أن مهنة الدجالين ، هي فراسة فطرية — لا أكثر ولا أقل —
يستخدم فيها الدجال عقله ودهاه ليذكر ويفهم . . .

وفعلا خيل إلى أنني اكتشفت خبيثة صدرها عندما لمحت ظاهرة
الخوف تبدو على شفيتها في شبه ارتعاش كأنها تخشى أن أقول شيئاً
أمام الحاضرين . : وذلك الشيء لا تحب أن يعرفه سواها ، ثم ظاهرة
اللهفة الملتزمة في عينيها لتعرف شيئاً تنشده وتبتغيه .

اتسعت أمامي سبل القول ، ما عساي أن أقول والكل صامتات
متلهفات مترقبات قولي كأنني كاهنة تنزلت عليهن من السماء
لو سألوها كل إنسان ماذا تريد ؟ لقال أتمنى ، وأتمنى . . ولن تنتهي

بانتهاه الاجل والرغبة التي تدفعه لمعرفة ما وراء
عجل لتحقيق الأمانى . رفعت إليها وجهي وقد
قصيدة أتمنى إلا
الغيب هي يريد

تكالفت الجد واكسبت لهجتى نغمة اليقين الاكيد وقلت — مشيرة
بطرف أصبعى إلى الرسوم الظاهرة فى قاع الفنجان وهى حلقات
متداخلة متلاصقة :

هذه سلسلة حبال كلها أقاصيص عجيبة ولدتها قصة واحدة
غريبة غامضة !!!

فضحكت ضحكة خلتها حرارة اندفعت من قلبها لتستقر على

~~شفتى العنقة فى~~ هيه ! . . .

فاستطردت : وأنا اتأمل عينيها وأنتقل منها إلى داخل الـ
مشيرة إلى رسم شجرة جذرها فى ناحية . وفرعها فى ناحية أخرى
يا عجباً . . . ولدت فى بلد كمصر مثلاً وعشت فى غير وطن
هكذا يبدو لى ؟ . ونظرت إليها استشف من وراء ملاحظها ما
على إتمام تفرسى .

فدهشت وقالت : وما دليلك ؟

قلت : وسوس إلى خادم الفنجان .

فضحكن جميعاً وارتفعت اصواتهن . . اسرعى اتمهى و
احداهن . . انا بعدها واعقبك اخرى — لا ، وانا لانتى على
وأريد الانصراف توا .

فأشارت إليهن ليصمتن ونظرت إلى لانا بع حثيثى ، قلت

أصدقيني أليس ما قلته حقاً فزت كنفيتها ومطت شفيتها وغمغمت
ربما . . . أتمنى

فتخابثت وقلت . . . إذن لا ضرورة للافصاح لك . . . سأنظر
وأعرف مرك وحدي فريعت وقالت . . . أوه قولي كل ما عندك ،
فغمزت إليها بعيني وقلت بصوت مرتفع ليبلغ مسمع الجميع . . . خادم
الفنجان انسحب . بلغت الساعة السادسة — إذن — إلى يوم آخر
فتجهمت الوجوه ورمقتني العيون بنظرات الغضب . . . فتعاميت
وتكلفت إبتسامة وأنا أقول . . . تسلية . . . كل ما أتمنى أن تطول .
ولم تستطع السيدة أو الأعرابية صبرا فوقفت وقد نظرت إلى
بمعنى انبعيني وخرجت وفي الواقع أفرحني هذا التصرف لأنني
أريد أن أستغل الخلوة بها لتعرف سرها .

ولما لحقت بها بعد برهة دون أن أشعر الحاضرات — جذبتني
في لطف قائلة فسرى لي كل شيء في الفنجان ، ما يؤلم وما يفرح ؟
فحلالي مداعبتها فقلت متماكرة . . . الخادم انسحب . . .
فتمتعت وقالت . أرجوك ؟ . . .

قلت . . . روى فدا هذا الرجاء . . . لكن لي عندك أنت رجاء
قالت : مری

قلت : لا تكتمني عن الحقيقة التي أصورها لك
قالت : قبلت

قلت : إذن تمالى نجلـس بعيدا عن الأنظار وتأبطت ذراعها ثم
تسللنا فى هدوء حتى بلغنا الحديدـة فاسترحنا تحت خـيلة بديعـة منسجـمة .
ولقد بانـت فى هـذه اللحظـة كل عواطفها مرتسـمة على وجهها بظلال
وضاءة تكشف للرأى حقيقة قلبها الحى الخافق عاطفة نائرة يشملها
الرضا والأمن والهناء الأ كيد وشاعت العظمة النفسية على كيانها
فاشعرتنى بالرهبة وخلتها حقيقة مقدسة يجب أن تظل بعيدة عن
خيالى المجنون حتى لا يشوه جلالها .

ولكن رغبـتى فى تعرف حقيقتـها كانت أكبر من رهبتى . .
قلت . . خلفك تمثال أبى الهول وأمامك صحراء فسيحة ثم نظرت
إليها خفية لأرى تأثير كلامى عليها .

فهزت رأسها دهشة قائلة :

وما معنى ذلك ؟ ؟

قلت : معناه أنك ولدت فى مصر

فضحكـت ضحكة كـهربتـنى كأثـمها شـدتنى إليها بسلك مكهرب

وقالت : لست افهم مرمـاك . .

قلت : أوه يحتمل إذا كنت تتغابين ؟ !

فابتسمت فى مرح وتمتمت ثم . . .

فتظاهرت بالعجز وقلت : فى الواقع سرك غامض . . غامض

جداً . . كأنك حكاية لا بداية ولا نهاية لها . . ثم أرخيت ذراعي
بالفنجان واستطردت :

حضرتك لست من هنا كما تقول السيدة زينب هاهم
قالت : أجل

قلت : ولكن طبيعتك تكذب لهجتك ، كأنك مصرية
قالت : بدون أن تتعثر في لهجتها العربية الفصحى : بل عربية
فهزت كتفي علامة الشك وقلت - لا يمكن أن أصدق ذلك . .
أبدأ . . أبدأ . . معانيك عنوان لقصة جمعت في فصولها تاريخ الحياة
كلها كتبت حروفها من نار العقل ونور القلب . .
وفي الواقع ياسيدي . . أرى الانسانية كلها بحقائقها وأخيلتها
والمها ووحشتها مجسمة فيك

فربت على خدي في حنو تسرب معناه إلى قلبي حتى أحسنت أن
المسافة التي مرت من عمري قبل أن أعرفها قد قربت حتى بلغت هذه
اللحظة وأوثقتني بها وثاقاً لا انقصاص بعده وإظنها أحسست بهذا
الاحساس لأنها مالت على كتفي في عطف ونظرت إلى الأفق البعيد
ثم تنفست الصعداء وتمتمت كأنها تخاطب الأفق دون أن تحول نظرها . .
تري كيف أنت الآن يا حبيبي فمر بذهني عدة صور متنوعة للشك

لنما طهرها كان أجل من ريتي فلم أندفع وراء ذلك التيار والتفت
إليها قائلة . . في أي بلد تقطن الهانم

قالت - اسمي . . سناء . . وأريد أن اسمع هذا الاسم دائما ليعيد
على سمعي نداء زوجي الحبيب . .

قلت اسم جميل . . حقا - سناء - ما أعذبه وأين زوجك ؟
قالت - هناك في البلدة . . لم يستطع ترك بلده لخطورة المسؤولية
الملقاة على عاتقه في هذه الأيام ، وقد يجيء بعد شهر ليصحبني أثناء
عودتي كما صحبني أثناء مجيئي

قلت - لكأن زوجك حاكم

قالت - شبه ذلك

قلت - وكيف هان عليه تركك ومثلك لا تطيب الحياة يدونها
فابتسمت في دل وخفر وتمتمت . . كم أنت لطيفة .

قلت - حدثيني عن بلادك العربية الجميلة

قالت - لا تبالغين . . فأنت كما قالت لي صديقتي ربة الدار

شاعرة أدبية

قلت - لقد خدعتك ! . .

قالت - وهل يمكن أن يخدعني حسي وإدراكي . . هكذا أراك

قلت - إذن حدثيني عن بلدك علني أخلق من عالمه دنيا حافلة

بالحياة المحيية . . .

فصمتت مليا ثم قالت - سأقص عليك قصة في مقدورك تسجيلها
بروحك قبل قلبك ثم قدميها للانسانبة تحية معطرة مني
فطربت وهللت وقلت - أو لم أقل لك أنك قصة الحياة صاغها
الاله في انسجام وجمال واستودعها امرأة هي أنت؟؟ ...
فلم تتكلم ورفعت رأسها في تيه وحركت شفتيها في بطاء كأنها
بدأت تفتح قلبها أيضا وقالت بصوت منغم ساحر هادي كهدير الحمام .

* * *

وقت الرحيل

كنا جماعة من العذارى عن لنا السياحة في الصعيد ترويحاً للنفس
وطلباً للدفء في فصل الشتاء - وعادة - تحلو زيارة هذه البلاد
الحارة في مثل هذا الفصل البارد الماطر ، حيث تكاد تكون الشمس
بمعزل عن بلاد الوجه البحري كأنها غضبي متجنية - عكس هناك -
أبدأ الشمس حانية كأنها تحتضن ارض الصعيد في حرارة تشعر الخلائق
معهما بالدفء والسرور على أننا تحيرنا في اختيار البلدة المرجوة ،
قال فريق منا . . . إلى الأقصر وقال فريق آخر . . . إلى اسوان .
وبعد حوار ونقاش إتفقنا على ان نبدأ الرحلة بزيارة الآثار .

التي نمر عليها مبتدئين بزيارة آثار البليينا ثم اسوان وعند عودتنا
نعرج على الأقصر وقد رنا لهذه الرحلة عشرة أيام على الأكثر .
وكان عددنا يبلغ العشرة من فتاة أو يزيد ، مختلفى السن والديانة
والميول والطبائع - رغم تآلفنا الظاهري - على ان كل واحدة منا
لم تعد رفيقة تماثلها في المشارب وتوافقها في الميول وتجد بجوارها
كل ما ترتجيه من مرح ولهو برى يعينها على الاغتراب إلى حين .

ركبنا القطار من القاهرة في أمسية يوم من شهر فبراير
سنة ١٩٣٦ ، وكان فرحى لاستطلاع الحياة الجديدة أقوى من
شعورى الحزين لوداع الأهل والصحاب وفي الواقع إحساس
الإنسان رهين التأثير المباشر وكلما تنوع هذا التأثير قوى الحس
لانتقاله من حالة إلى حالة وهذا الانتقال غير المباشر هو التجديد
الحقيقى الذى يغذى الشعور الباطن ويحبب الحياة إلى الإنسان رغم
ما يناله فيها من مآسى وأحزان .

نحن نولد ونموت دون أن ندرك حقيقة ذلك ، نموت بالحس
ونحيا به - وليكن الحس على أى صورة . . أنه هو اكسير الحياة
على كل حال .

أعرف ذلك - لذلك كان احساسى غير احساس رفيقاتى ونحن

فتأهب للرحيل، نودع الأهل والمعارف ونستودعهم أحلامنا وأمانينا
إلى حين.. .

قد نعود وقد لا نعود.. .

هذا الظن كان يراود ذهن كل منا ومع ذلك فكلمن متفائلات
ضاحكات عداى

. فقد وقفت فى نافذة القطار أرقب جميع الناس بعينى روحى
المشرتبة إلى إدراك خفايا نفوسهم — دون عمد منى — هو إحساس
كما قلت لك يحاول دائما أن يتسرب فى كيان كل شىء ليصل
بين الحقيقة المجهولة وبينى ، كأن شعورى . . قوة قادرة استودعها
الله كيانى لتستقر فيه كلما تطلبت الراحة بعد طول جهاد .

وعلى ضوء هذا الأحساس البعيد عنى الخارج منى = رأيت
الدنيا كلها بأفراحها وأحزانها ممثلة على « مسرح المحطة » عند قيام
القطار ، والذى يشرف على هذه الجموع من عل يرى عواطف
الإنسانية كلها مجسمة واضحة جليلة وقد ارتدى أبطالها ثيابا لا يخفى
على الباحث الحساس كشف ما وراءها إذا جرد الإنسان نفسه من
شواغل الحياة المادية ونظر بشعوره وعقله إلى وجوه المسافرين
والمودعين - يعلم حقيقة الخواطر التى تختلج فى نفوس الآدميين ..

المعارف التي كونتها المادية وأسستها علما وثقافة ، وسائرتها المطامع
والأهواء وأسستها ظرفا وكياسة . .

وهذه العواطف المكتسبة بعد تمرين طويل ودراسة وافية
لغمزات العيون وارتعاش الشفاه وحركات وإشارات الأطراف في
همسات لا يدركها غير المشار إليه .

ظواهر مدرسة المدنية الحديثه . . تتراءى عارية في غير دثار . .
تأثيرها عجيب حتى طغى على — انا الأخرى — إنما على صورة
غير هذه الصورة المرئية فتحوّلت من ماديتي المحدودة إلى روح شفيف
هفهاف استطاع ان يتقمص كل كيان أمامي في خفة ومهارة - وأخيرا
عاد إلى كياني الجامد فرد إليه رعشة الشعور المتيقظ ، فعرفت ما
غاب عني إنما دفعت الثمن من دموعي وبسماتي بكيت بعيني وابتسمت
بشفتي ولم اكن كاذبة في هذه ، أو متكافئة في تلك .

فقد أحزنتي بحق منظر أم تودع ابنتها وكأن شبح النوى المقبل
أمال على بصيرتها تراب الألم المضي . . فأرخت أهدابها على أسي
مروع ، ولو ان حنان الأمهات تجسم وصار جسما لما كان غير جسم
هذه الأم الحانية الحزينة .

أطل شعورها الدافق من عينيها فشاع النور على وجهها حتى بان

كجسم شفيف احتبس في إناء بلورى يستره — وهو في الواقع يظهر
معناه في حنان ، حنان الأم وحدها

من لى بقوة تعينى على تصوير ذلك الحنان وهو يخرج من فمها
فى شبه كلام

كانت عاطفتها أجل من المنطق فخلبته حتى ذابت الألفاظ
فى فمها عندما همت بالكلام لتودع ابنتها . . .

أى جلال يحويه ذاك الصمت الرهيب صمت الأم عند ما تقول
كل شيء بقلبيها وتأتى الحقيقة السامية أن تخرج من شفيتها .

الأم وحدها ، رسالة الحب والحنان

فى عناية الله يا ابنتى . .

النماذج مألوفة .

ولكن هاته النظرات الساهمة والشفافة المرتعشة والأطراف
المتقلصة والظلال المرتسمة على الوجه كأنها تتمم حديثها ، كل هاته
الظواهر تكسب هذه الألفاظ معنى عميقا حاراً يجذب قلب الابنة
من موضعه فى عنف فيه لطف وعناية ليرده أكثر قوة ومعنى . .

ظالت الدموع فى عيني وصورة هذه الأم مرتسمة فى ما قى
وأنا أضحك لمنظر شاب منألق يخال نفسه « رودلف » مصر

الوحيد استعان على خشونة الرجولة القويه بأدوات التجميل
الحديث فاستبدل الكبرياء الرزين بالتخث الرصين واللمجة
الخشنة التي تفتح قلب الحسناء دون إنذار بالصوت الناعم الذي
بقصبه عن المرأة التي تطمع في الرجل — الذي يشعرها بضعفها
لأنه أقوى منها وبأنوثتها لأنه يمتاز برجولته . .

وقف ذاك الشاب يردع حبيبته الحسناء وهي أمامه صورة
من تماثيل المعارض لرواج الأزياء . . .

استطاعت بأدوات التجميل والتطرية أن تكون جميلة ولا يمكنها
لم تستطع أن تكون جذابة لأن يد الصناعة تلعب بالمادة . . أما
الروح فلا يمكن أن تمسه . .

ومع ذلك فهي مسكينة مستسلمة تؤمن بذلك الشاب إيماناً
مطلقاً كما يبدو تبكي في حرارة — هو الشيء الجميل فيها — أجل ،
صدقها في عاطفتها حرك فيها كل خامل وأيقظ كيائها الميت فرأيتها
أخيراً إنسانه .

كانت تستودعه قلبها وحبها حتى تعود وهو يستمع إليها في
تكلف عجيب كأنه يفهم وكان يزهو بينه وبين نفسه بهذه الدموع
الغوالي ويوهمها أن الدموع انحبست في ما كفيه من فرط ما فيه

ويدير وجهه ليخفي ألمه ، وفي الواقع كان يديره ليختلس النظر
إلى الوجوه الجميلة والأجسام الغضة التي يموج بها الرصيف .

وهو يجيد فن الكلام — كما يبدو — فقد سمعته يهوس
في أذنيه أناشيد الهوى المستعر أو على الأصح المصطنع
أى كذب ؟ وأى نفاق ؟ شمتها في حديثه .

والحسنة البلهاء الساذجة تبكى في حرارة من قلبها حتى أحسست
وأنا بجانبها ان كل جارحة فيها تهتف — أحبك — وحبست
نظراتها فيه كأنها تحاول أن تلتهمه بعينها لتظل صورته مرسومة
في أعماقها إلى الأبد . . .

أى هول . . . عندما يتجسم الحب تجاه النفاق ؟ ؟ . .
أى هول عندما يتنفس الحب عبيرا فيجاوبه الكذب زفيرا
أى هول . . . عندما تغض المسكينة الطرف عن كل جميل ، ولا يتعفف
المحبيب عن التطلع حتى إلى الشيء الدميم

هى تفكر ما عساها تفعل لتهدى قلبها الواله وتتذوق الشهد
صابا لفراقه وهو يفكر كيف يغرى الحسنة الواقعة على بعد أمتار
منه . . . ولما تحرك القطار كادت المسكينة تفقد وعيها من فرط
حزنها . . . بينا استدار على عقبيه في هدوء وأشار بيسراه مودعا
وقد رفع يماه ليشير إلى غادة أخرى لترافقه ! !

ثم هاته الزوجة التي لم تكد تودع زوجها وصغارها وداعا لا أشك
في صدقه وحرارته حتى تضطجع في « صالون » تخالس رجلا بجانبها
نظرات لا تستحي كرامتها من بذلها في سخاء ، وأخيرا يتحادثان
ويتنادران ، وذلك الرجل الذي يترك زوجته في « صالون » ليجالس
فتاة أخرى ولا يرعوى فيغازلها دون حذر وتأدب ورائحة الإفراس
تفيسح من فمه وضوء الرغبة يتطاير من عينيه كالشرر .

وهذه الفتاة التي لا يجهد الضحك المتتابع والتي تجيد فن الغزل
إلى حد ضاع معه الحشمة والخفر .

وأخيرا — أنا

جلست في مكاني وقد جلس بجاني الرجل الذي خطبني راضيا
فقبلته مرغمة وقد رغب أن يركب معي حتى الجيزة ظنانه أن ذلك
آية من آيات الولاء - وكذلك أنا !!

لا أخلو من الرياء أيضا !! ..

كنت أطمع أن اتزوج برجل أحبه الحب كله فاذا بي أقنع برجل
لا أعرف إن كنت أحبه أم لا ..

أعطف عليه وأحنو أنا ، وأتمرد وأقسو أحيانا ، وهو يفسر
العطف بالحب ، والجفاء بالدلال ، سعيد بهذا وذاك ...

نسيت وجوده وأنسرحت فيها رأيت . . . وقبل أن يتركني قال :
عودى بقلبك كما هو . . .

فتصامت وظلمات ساهمة كالحلقة أرقب الأفق البعيد :
فعاد يقول في شبه همس لا يسمعه إلاي .

أنا لا أخشى عليك من رجال الصيد ولكنني أخشى أن يملك
الفن حسك كله فأفقد قلبك . .

فاعتدلت وقلت بلمحة جادة : ومتى ظننت القلب لك ؟

قال : دائما

فهزئت راسي علامة النفي وعندما تأهبت لأقول له . لا - وقف
القطار فاستطرد . استودعك الله . اكتبني دائما لأطمئن عليك
وأذكركني دائما . . وعودى على عجل وظل يأمر ويرجو وأنا
واقفة أمامه كالحلقة

لقد أعانته الظروف على الرياء أيضا . . لو لم يقف القطار لقلت
له . . لا . . ولكن الشيطان يحاول دائما التخير بنا . ونحن الضحايا . .
ولست أدري لم لم أقلمها . . اخجلا ؟ . أم تأدبا ؟ . أم خوفا ؟ .
أم بدافع الرياء الذي يطغى على حياتنا في كل شيء . بتأثير الانانية
لكي أظل محبوبة ولا أفقد قلبا يحبني .

الفصل الثاني

في الطريق

بدأ القطار يجتاز طريق الصعيد كأنه الوحش الكاسر يجتاز
مخارة مخيفة موحشة في غير تهيب أو كائن بينه وبين القدر حساب
ولا يريد أن يفوته الميعاد لئلا يخسر المعركة .

ودخل بنا القطار في قلب الليل ، أي ليل هذا ؟ . .

كأن ليل الصعيد دنيا وحدها في أفقها الحالك الساكن صورة
مرسومة للغيب المجهول الذي يجذب الروح غصبا إليه باحثا عما
وراءه ، إنما يؤنس وحشته هدوء فيه بشر لكن تصحبه الدموع ! !
وشبه مس رقيق ناعم يمر على الصدر بأصابع حريرية فيرهف الحس
ويذبذه الذهن إلى شيء لا وجود له إلا في الأحلام حيث تتطلع عيون
الشعراء الملهمين .

ويا للإنسان الرقيق المشاعر من أحلام الظلام بقدر ما فيها من
وحشة فيها حنين هادئ يسرى في النفس مسرى نور الفجر في الليل
البهيم ، بكسب الصدر أنسا كما يكسب السماء لطفها .

أبدأ ما رأيت ليلاً يصور غموضه عمقه كهذا الليل ، لسكائه
بحر أمواجه جمعت من قطرات دموع أبناء السبيل اليتامى والمحزونين ،
تكاثفت وانصهرت من فرط ما أسيمهم وحرمانهم وسجلت بالدموع
قصيدة الحزن على صفحة الأرض فصار بحراً وعلى الشجر فبان ندى
وعلى الأفق فبدأ ليلاً

طواني هذا الليل في برديه فتلاشت ذاتيتي ولست أذكر تماماً
ماذا دهاني عندما غمرني الليل وطواني — كل ما اذكركه اننى
فيت بحواسى فى ذلك التيه المجهول المتراعى الأبعاد — ولم اتنبه من
غفلتى السحرية إلا عندما بدأ الفجر ينساب من وراء الأفق كشعاع
من النور الرائق انحدر من معين الأزل اللاحدود موزعة بحساب
الرحمة الكبرى فاكسبت الوحشة انسا والخوف أمنا والألم أملا
ودبت الحياة فى كل ميت فانتعش واشترأت الأرواح إلى الانتعاش
البهيج .

وتنفس الشجر فاستيقظ. الزهر وبدأ النسيم يرجع أغنيات السحر
فاذا الكون كله مأخوذ مسحور بنشوة القبل الذى طبعها الفجر على
كل مرئى ظهر .

كل قبلة صافية تبدو على الورق والزهر دون خفر كأنها غذاء
الضعفاء العلوى والرضا السماوى تمنحه الطبيعة الحانية البارة إلى دناها
فى بر وحنان تحيى ما أصابها من أباطيل الحياة وما أفسد الانسان

أى نور من الخلد يحبو الكون النائم الحزين ويعانق الحياة
فى نشوة البر العميم — لاشك أنها يد الخالق الأعظم تمتد من وراء
الغيب لتحى الخلاق بنورها الوضاء وتبدل تشاؤمهم الى تفاؤل
وهنا .

لطالما تصورت وأنا أتابع نور القمر الساحر وهو ينساب برفق
متمشيا فى شرايين الحياة العليا — أن ملائكة السماء كشفت الستار
عن عالمهم السامى وما هذه الألوان والأضواء والظلال إلا فنون
دنياهم تتجلى لنا فى غير كلام . .

الله وحده جل جلاله يدرك مرامها ومعناها . . أما نحن فلا نعرف
غير ظاهرها ومسراها . . تسرى فى حياتنا ولا ندرى مداها
ولو أن الانسان اتسع أفق تفكيره باتساع هذا الأفق
لضاع سدى .

اكتشفنا وأخترنا ولن ينفد معين الاكتشاف والاختراع ،
ما دامت الطبيعة محتفظة ، بأسرارها حريصة على غموضها وسوف
تظل كذلك ما دامت الأرض والسماء يعيش بينهما الحيوان
والنبات .

كثيرا ما انغمس بكاميتى فى مشهد من مشاهد الطبيعة بعواطفى وتفكيرى
حتى أشعر انى فقدت نفسى وفنيت فى ذلك المشهد وأخيرا أحس

بأن خاطرة جديدة تتجسم حتى تصير شيئاً له قيمته تستقر في عقلي
آنا فأسميها فكرة وتعيش في قلبي أحياناً فأسميها عاطفة وقد يجتمعان
ويصبحا قوة لها في ذهني قرار وفي عاطفتي استقرار، فإذا بي تبدلت
من نفسي التي أعرفها إلى نفس جديدة لا أعرفها فاضطر إلى مسايرتها
واختبارها حتى أشعر بأنها — أنا — إنما خلقتني الطبيعة خلقاً جديداً
بتأثير إلهام جديد، وعلى ألف صورة تخلقني الطبيعة فكثيراً ما تبدلت
بحسب المرحف من آدميتي البشرية إلى نسمة ندية وخرجت بذاتي
المحدودة إلى جسم شفيف نوراني أستطيع معه أن أجوب الآفاق وأعيش
وراء السديم كأنتي من أبناء السماء والله — لو جاز لي أن أطلب
من الله أن يخلقني شيئاً آخر لما اخترت إلا أن أكون نسمة ندية من
نسمات الفجر تحيي موات النفس الحاملة أو لمحة من لمحات الضوء تثير
بواعث النشاط الحي — لو جاز !! ..

ولكن هيهاي !! ..

دائماً نتمنى — والتمنى حلقة الصلة بين الإنسان والحياة —
وسوف نظل نرجو والحياة تعدو !

قلت لك لقد غفبت ، ولقد ظلمت كذلك حتى نهيتني رفيقتي
قائلة : ياسناء — طالع الفجر

فابتسمت قائلة : لمحتة عندما انتعش الزهر

فتنفست صاحبتى الصعداء كأنها تحمد الله لزوال الليل وقالت :
الطبيعة هنا بالغ الله فى تكوينها ، كأنه بدأ يخلق الصعيد فأودع فيه كل
فن عجيب ... لم يخفى ليل كهذا الليل ولم يبهجنى فجر كهذا الفجر
قلت — أى والله — عل رضوان فتح نوافذ الجنة فبدأ ذلك النور
الساحر الذى نسميه فجرا

بعد أن تغتسل الحياة من أدران المجتمع وتتطهر من أضاليل
الوجود تظهر بثوبها الشفيف وروحها الطاهر الأصيل مسيلة غلالة
الطبيعة السمحة الزائدة على الـكون كله فتراها ذلك الفجر الوضاء :



الفصل الثالث

في البليينا عند العرابة المدفونة

— وقف بنا القطار على محطة البليينا وكنا قد تأهبنا للنزول عندما لمحنا قمم مبانيها المتواضعة وشممنا هواء صهرائها اللاقح . وما كدنا نقف على الرصيف حتى هرع إلينا الرجال المنوطون بارشاد كل غريب « التراجمة » وهم من أهالي الصعيد يجيدون التكلم باللغات الأجنبية في غير تعثر كأحد أبناءها ، مهنة مارسوها وأجادوها ، والبلد على غير ما كنا ننتظر ، عامرة بالغرباء والأجانب الذين يجيئون من وراء البحار باحثين دارسين في جد ا كيد ليتعرفوا إلى فنون القدماء غير عابئين ولا لاهين بل ليتخذوا من هذه الفنون سلما يرتقون عليه حيث المجد العتيد الذي يعملون على تدعيمه في بلادهم مسترخصين أرواحهم في سبيل مجد بلادهم .

وتقدمنا بعض التراجمة إلى الطريق المؤدى إلى آثار العرابة المدفونة وهي أبنية أثرية من عهد تحتمس ورمسيس . .

وقالوا إذا شئتم اختصار الطريق فلا بأس من اجتياز الصحراء
بالجمال .

فرحنا وطربنا وقبلنا ذلك .

وفعلا بدأنا نركب تباعا كل اثنين أو ثلاثة على جمل حسب
ما يحلو لمن وكل جمل يقوده رجل عربى . .

جاء دورى فتقدم إلى قائد الجمل يساعدى على ركوبه وقد
لاحظت أن هذا الرجل ظل يرقبنا فى صمت منذ قدمنا ولم يقدم
جمله لرفيقاتى كالآخرين بل ظل ساكنا لا يتحرك حتى جاء دورى
وكنت الأخيرة فتقدم إلى واقفا أمامى يحول بينى وبين جمال آخر
إقترب منى ، ولحمت فى عينيه التماعا أخافنى فداخلى الشك أحجمت
وتقدمت فى جرأة إلى الرجل الذى إعترضه قائلة له : ساعدى على
الركوب . . فتهلل وجه الرجل وكان شيخا مسنا ، وبدت ظاهرة
الانتصار على وجهه فلم يتكلم الآخر وانسحب فى هدوء يجر جملة
بعد أن ألقى على نظرة زادتنى خوفا وقلقا .

سارت القافلة

ورفيقاتى ينشدن ويصفقن مراحات طروبات . .

وراحت إحدانا تغنى بصوتها الرخيم ونحن نجاب الغناء

بالترجيع والتصفيق . . .

وأشرقت الشمس وضاحة المحيا فامتلاء الكون بشرا وارتفع
الصوت في الأفق العليا

أشرقت شمس الصباح وانقضى الليل وطاح
وتبدت في الوشاح خير أفلاك السماء
كم نرجى في الصباح كي نرى الزهر لاح
ونرى فيه السباح مشرقا مثل البهاء

يومنا بالبشر رفءا عاطرا كالروح لطفا
وعديل الراح صرفا يملأ النفس صفاء
يا كواكب في علاك لا حرمنا أن نراك
جل ربى من حباك كل نور وسناء

نسأل الله تعالى لنا خيرا ونوالا
وهنا وكما لا في نعيم واقتبال
وانل مصر مناها في حمى بدر دناها
وانتصار لهاها يا مجيبا للسؤال

كنت أشاركهن الغناء وفي الواقع كنت شاردة اللب سارحة وراء ذلك الرجل الذي يسير بجانبنا يرقبني من وراء أهدايه . وعندما التقى نظره بنظري أحسست أن نظراته كلمات قاسية مصوبة إلى فؤادي لتبلغ مكانها في عمقه .

كل الرجال الذين يقودون الجمال يرتدون ملابس الأعراب المتواضعة يتمتعون بصحة جيدة وبذية قوية وحركة التوثب الحار تشملهم وهم بثيابهم البيضاء وأغطية رؤوسهم الداكناء كأسراب من الطيور تبدو صغيرة بجانب الجمال .

يتكلمون العربية الفصحى ، إنما بأسلوب أبناء الصعيد حيث تختفي أواخر الكلمات في أفواههم .. على أن ذلك لا يضايق محدثهم لأن شاراتهم وحركات وجوههم تعبر في صراحة عما يخالج نفوسهم طبعت الشمس حرارتها على بشرتهم وترك الجو اللافت معناه على وجوههم فأصبحوا بوجوههم السوداء أشبه بابناء السودان . إنما يكيفهم رصانة النفس العربية وشكيمتها وحيويتها فتغلب على طبيعة أبناء الصعيد الحارة النافرة .

عدا التراجمة . جعلوا لملابسهم عناية خاصة منهم يرتدون « القفطان » الحريري ذات الألوان الزاهية كالأحمر أو الأزرق

ويلبسون على رؤوسهم « الطربوش » تتجلى فيهم كياسة مصرية
مكتسبة من الاختلاط والتكاف لترضية الأجانب ويحسنون
صناعة المجاملات

أما ذلك الرجل فقد كان يخالفهم جميعا ، شاحب الوجه ، نحيل
الجسم كأنه يعاني هما دفيناً ، يرتدى رداء قائما وتنعل بحذاء
لا يلبسه غير سعاة العرب وقد لف على رأسه عمامة لم يتقن لفها
كأنه حديث عهد بلبسها ، يبدو من حركات نفسه المضطربة أن
قلبه يبلى في بطن ، وكان في سن يقرب من الخامسة والعشرين .

لم يتكلم لما رأيته حتى أعرف دخيلة نفسه من لهجته ، لذلك
كنت مشوقة جدا لتعرف حقيقة ، فقد أدركت بفطرتي أنه يخالف
الآخرين .

صرنا وسط الصحراء الفسيحة وكانت الشمس استبقتنا إليها
وعانقتها فسطعت حرارة حنوها على الرمل فأكسبته بريق الذهب
وعلى سعف النخيل فبان من بعيد سابحا في الضوء خارجا من
لجة مذهب متلاشية في وهج الحريق والعرابة المدفونة كجزيرة رملية
واقعة بين الجبلين قريبة من نهر النيل — هي في الواقع قلب
صحراء البلينا .

لم تمل عيني سراقبة الرجل رغم جمال الطبيعة الأخاذ .
ولم أشعر بانني ابتعدت عن بلدي حيث لا فرق بين رعاة الغنم
أو الفلاحين عندنا وبين هؤلاء . سوى اختلاف الهيئة واللغة والصناعة
لأنما سماحة الطبع وكرم النفس وسذاجة الفطرة توجد بين كل من
يعيشون بقرب الطبيعة الصافية .

فالسما والماء والخضرة والحرارة — كل هذه المؤثرات الطبيعية —
تلهم الناس جميعا على اختلاف تباينهم . . . حيث أن الطبيعة تشاطر
كل من يلجأ إليها سواء في الصحراء أو البحر أو الرياض .
ولقد تلمست احساس السحر والنشوة يسرى في كيان كل انسان
حتى أنستني بهجة نفسي كل شيء عدا الانغماس في روعة
الخلو المطلق .

فهمست في أذن قائدي .. أسرع بنا .. فأطاع ولا كز الجمل فأسرع
ولم آبه للعرشة التي ملكتني من الخوف الباطني ، حتى بلغنا الآثار
وكننت قد قطعت مسافة كبيرة وحدي . .

والرجل الآخر يجانبي بجملة أيضا وهنا ترجمت وقلت لقائدي
الشيخ أريد أن انطلق في الصحراء ريثما يصلن رفيقاتي فنظر إلى الشيخ
في دهشة كأن جرأتني غير مشروعة فابنسمت قائلة :

— لا تخش علي — وتنفست ثم اردفت الا ترى ذاك الجو الوسنان
يبعث في النفس مساهينا فيطمئنها . فأومأ الشيخ برأسه وأشار الى يده

ثاقلا : — سيرى من هنا وسأتابعك فقد يتعبك الرمل .

هرولت أعدو كالطير الطليق وقد حلا لى أن أخلع معطفي
وحذائى وأسدل شعري ورائى مداعبة الرمل بقدمى، مستلقية عليه
آنا متسلقة النخيل أحيانا ، وأنقطع الصوت فجأة ولازم الصحراء
سكون العدم . . . فخفت واضطربت وكان الرجل الشاب قد اختفى
فقلت للشيخ وكان جائئا كالأسد الرابض بالقرب منى — إذهب
وابحث عن رفيقتاى وعد إلى لتأخذنى ريثما أستعيد قواى تحت ظلال
هذه النخيل . . . لقد أجهـدنى المشى . . . ففتح الشيخ فمه ليتكلم
فقلت :

— أتخاف الطريق ؟

قال — أخاف عليك !

قلت — لا — لن يأكلنى الذئب سأنتظرك هنا . . . وفى الواقع
تلاشى الخوف وتملكنى شعور التصرف ولم أعد أفكر إلا فى الخالق
الاعظم — خالق هذا التيه اللامحدود وتمنيت لو أتنى الساعة فى
قالب ذاك الخلاء الشعري البديع .

غاب الشيخ ولم يحضر . . . فعادنى الخوف وقمت أتمشى باحثة
عنهم ولففت نظرى كوخ فحولت خطاى جهته — حتى بلغته فلمحت
امرأة تطل من وراء ثقب يتسع لخروج رأسها منه تتأملنى فى دهشة

فاندفعت إليها بتأثير خفى وفاجأتها بتحيتي فردت على بصوت خفى
رقيق وفتحت لي الباب راجية أن أدخل لأستريح ، فلم يلبث دعوتها
راضية فرحة ليطول بيننا الحديث . . . فكانت النظرة الساذجة
الصافية تكيف حياتها وطبيعتها .

وتأقت نفسي لارتداء ملابسها القروية فرجوتها أن تعيرني ثوبا
من عندها على أن تأخذ ملابسى وديعة عندها حتى أرد لها ثيابها
بعد أن أتصور بها .

فدهشت المرأة وقالت وهى تقدم لى كوبا من الشاي أحضرته
لبفتها بدون إذنها وأعلمها عودت الصغيرة بتأدية هذه المهمة كلما نزل
عليهم ضيفا :

— ملابسى لا تليق بك . مطلقا ياسيدتى

قلت — حسبي أن أتحرر من ضغط ملابسى التى تضايقنى بفضل
ملابسك الوسيعة الفضفاضة .

فهزت رأسها — متمتمة فى خجل . قد لا تروق فى ناظريك
لبساطتها ؟

قلت بلمحة لطيفة : أنها ببساطتها أجمل من ملابسى — صدقنى ،
فنظرت إلى باسمه فى وداعة . فاذا بالاسمة تجذب نظرى إليها

لأنأملها وكأنتى لم أرها إلا اللحظه ... لم تتكلف التجميل ، عارية
القدمين ، شعرها الطويل الأسود مرسول نصفه على أحد خديها
والنصف الآخر يعانق الأول فى نهايته ويستريح على ظهرها يدفعه
الهواء إلى الخلف فيرتفع عن الظهر والكتف ثم يعود فيضرب
خدها الناعم الرقيق كأنه الريح تدفع جناح الطائر .

وقمصها الأسود حجب ذراعيها بكفيه الطويلين وقد أحكمت
قفله عند عنقها ، وكأنها متأهبة دائما لدخول غريب ولم يظهر من تحت
القميص الأسود غير حيوية قوامها الرشيق المليء فى غير بدانة مؤثرا
على قماش القميص فجذبته الى منحنيات الجسم ليظهر فتنة الانوثة
رغما عنها .

وكانت عيناها السوداء ذاتى التماع متغير يجمع بين سواد ليل
الصحراء الحالك وبريق الشعاع الذهبى الرائق . لون يلفظ وحشة
النفس الموهومة ويلهم الطمأنينة والبشر الاكيد ولونها الخمرى ،
خلاصة الحرارة الصافية التى تستودعها الشمس سكان هذا الوادى ،
ووجنتاها مستديرتين بديعتى التكوين . طبع عليها الشفق لونه
الأرجوانى الداخى وشفقها السميكتان الملتهبتان يصوران الارادة
القوية الثابتة ، يظهر من بينهما أسنانها الناصعة البياض تلمع على ضوء
الشمس كما يلمع الصدف على شاطئ البحر تحت وهج الشمس ، ولما

ولما تكلمت تمنيت لو تظل تتكلم وانا أسمع ، مع أن الأثر يحمل
نصف كلامها . . أنما ليضيف إلى لهجتها أواخر النغم الحنون .

ووجهها شاشة سينمائية تتجلى عليها عواطفها الدخيلة . . . كانت
ملاحظها تتحرك بعواطفها — مزيج من الدهشة والسرور والشك
والبقين والخوف والرضى .

والكوخ داخله يشبه خارجه صنع من الحجر الذى يؤتى به
من الجبال ، وإنما شيد فى بساطة لا تحتاج لكثير من العناية ، على
أن هناك بعض أكواخ مصنوعة من الحصى والطين وأخرى من
جذور النخيل التى تكثر فى هذه البلاد ومن الحجارة أيضا ،
وبه من الأثاث ما يكفى لحاجتهم . . . وقد لاحظت أنه صنع بأيديهم ،
فالسريـر من سعف النخيل والحشية ، والوسائد والملاحف من صوف
الأبل والماعز ، والآنية من الفخار حتى الأطباق والقدر .

تركنتى برهة تأملت خلالها هذه الأشياء ، ثم عادت تحمل بين
يديها بعض ثيابها قائلة : اختارى ما شئت — هذه أحسن ثيابى .
ووضعتها بين يدي ، ولحقت بها ابتها قائلة لقد نسيت الحلـى يا امـاه . . .
اتخرجين مع السيدة بدونها . فأجابتها .. لست فى حاجة إليها . السيدة
غنية بحليها .

فجذبت الصغيرة وقبلتها وأخذت منها الحلى قائلة ، ساتحلى بها أيضا
لأكون فتاة عربية . وخلعت ردائي وناولتها اياه . ولبست السروال
الطويل ، ومن حسن الحظ كان طولها يماثل طولى ، ثم ارتديت
القميص الأسود ، وهو يشبه قميص المرأة الفلاحة عندنا تماما . لكنه
غير رقيق لكي لا يبدى تقاسيم جسمها . ثم غفصت شعري وربطت
فوقه منديلا أسود ، اسدلت عليه خمارا أسود أيضا ، ولبست القرط
الطويل الذى لم يشعرنى بأى ألم لخفته ، ووضعت على صدرى القلادة
وهى من الخرز الكبير المحلى بالفضة ، ولبست الأساور ، ووضعت
على جبينى لفافة تدلت منها قطع فضية تشبه القطعة ذات القرشين .
وسألتها : كيف تريتنى ؟

فابتسمت قائلة : حلوة جدا .

وناولتنى قطعة من الزجاج الصقت بظهرها قطعة من الورق الأسود
مردفة : أنظري فى المرأة فراقتنى صورتى واخجلانى اطراؤها
فقبلتها لأخفى خجلى ، ثم درت دورتين على عقبي فى طرب من فرط
اعجابى بنفسى ، وكأن نفسى أعلنت فى نشوة مبلغ سرورها بهذا
الذى البسيط الصريح . فتنفست فى طلاقة واحسست الدم يجرى فى
عروقي ويندفع فى وجهى ، وأظن المرأة أحست بذلك لأنها قبلتنى
بين عيني بحنان ونالت : كمأنك أميرة عربية - لو رأك الأمير لأحبك .

فضحككت حتى كدت أستلقى على ظهري وقلت : الأمير
أوه ... ما أكرم تعبرك .. انسيت أنتى من بنات الشعب .
فربت على كتفى برفق قائلة : أعرف ذلك .. وأعرف أيضا أننا
أصبحنا فى عهد الديمقراطية الحاكمة الآمرة : وأن امتزاج دم
الملوك بدم الشعب جعل للامم الديمقراطية سلطانا أقوى وأشد من
سلطان الارستقراطية الطاغية .

فهزئت رأسى مقتنعة بقولها متممة : اجل — كل تألف
يتمل فى عصر النور ، والآن هل تسمحين لى بالانطلاق :

قالت : إلى أين يا كينار الصحراء ؟

قلت : إلى الخلاء مهد الهناء واختطفنت منها قبلة وخرجت
اعدو كالطير الذى خرج من قفصه بعد طول احتباس .

تمنيت لو أظل هكذا حتى نهاية أيامى ، يخفق قلبى بحرارة ، ويفكر
عقلى فى طلاقة ، قانعة ببساطة العيش مع هدوء الحياة .

وترامى الى لحن منعّم يقاطعه صوت ناي حنون ينساب برفق
من بين شفتين كأنهما وتران يترنمان ، فتمشيت أتابع الصوت
لأعرف من صاحبه ؟؟

يا وحيدا ضاع في غمر الليالي ويتما قد جفاه الأقبون
قد طواه الدهر في دنيا المحال وازدراه الناس حتى المخلصون

* * *

يا يتما لم يجد إلا الهموم يصطليها في انين وسكون
قد براه الهم في دنيا السوم ورماء الدهر في ريب المنون
وهنا كنت قد بلغت صاحب الصوت ، فلما لحنى صمت مطرقا ،

فتوقفت عن السير ، ورحلت أشد وبصوت تسبقه الدموع .
أيها الشادي سمعنا من نواحك فهرقنا الدمع كالمن الهتون
ليت شعري من يداوي من جراحك من يواسي صاحب الهم الدفين

* * *

قد فقدت الأم في مهد الفطام فشربت الصاب من كأس المنون
وقضيت العمر في مر السقام وظلام ليس يمحوه السنون
ولست أدري كيف اهتت هذا الشعر ، كأن شيطاننا إن كان
للشعر شياطين كما يقولون .. تكلم في ... كنت اهتز وانتفض
كعصفور وأنا أغنى — وظلمت في موقفى ساهمة كالحالمه حتى
اقترب الرجل صاحب الصوت منى ، قائلا : أنت .. ازددت حسنا

كان السحر معاك. فأطرقت براسي خجلة وقد أدهشتني المفاجأة ..
إذ وضح لي وجه الرجل من قرب فرأيت .. الجمال الذي أبيت
أن أركب جملة . وقد راضني ما رأيته في وجهه من ملامح لها معناها
عن كتب .. فهو حديث السن ذو وجه مسيح رغم شعوبه الواضح ،
وعلى جبينه طابع الخلق الشريف ، وفي لهجته قوة الرجولة المعتدة
بنفسها ، يلوح عليه سبيل العظمة ، وفي عينيه بريق يليق عن سر دفين
يحرص على كتمانها . وهو لا يرفع نظره الا لما ويرده على عجل إن
فطرت إليه .

وخيل الى أنني لو ظلت أنامله لما عقلت النظر إلى وجهه أبداء فيه قوة
مقطعة جذبي إلى فيه في عنف ولكنني احتفظت بثباتي وكبريائي
وتحصني سوارية الشعور الحار اللطيف الذي أسكرني برهة ثم ردني
إلى صراي عندما سمعته يقول : ظننت أنك تبحثين عن الطفل .

قلت : أي طفل

قال : ذاك وأشار بيده إلى طفل افتش الأرض والتحف السماء .

فقاطعته قائلة : اتراء حبل الطريق

قال : أنه ابن شهور ، وقد وجدت معه هذه الرسالة . . .

أيها المار الكريم

إذا مررت بهذا الطفل تعطف عليه بقبلة أن كنت فقيرا ،
وقليل من ابن المساعر إن كنت موسرا ، وارعه أن كنت كفيلا
برعايته أنه ابن أحب بركة السماء وانكرته الأرض ، صعب على الأم
أن تقتل ابنها . فقتلت نفسها ... وصعب على الوالد أن يعيش
بدون حبيبته فقتل نفسه بعدها . وبقي الطفل أعنوا لنا لقصة الحب
المقهور وطابعا على جبين قسوة الأقدار . والدفنى ... وام فقيرة ...
والقنى والفقر لا يجتمعان في شرعة العقول المريضة .

أبت التقاليد الكاذبة أن تجمعهما باسم الزواج فعاتقهما الموت
سويا ليتمنعا في عالمه البرئ . وبقي الطفل ليقص على مسمع
الأجيال حكاية الظلم والجهالة .

فان استطعت أيها المار النيل أن تبارك . الحب ، فباركه في
هذا الطفل ، وإذا صعب عليك ، فاتركه في رعاية الله .

ولدى إننا أبقاك الله استقم لأبريك ...

أموت مرغما لأن أمك تناديني .

أما أنت فاني على يقين بأنك سوف تعيش ، سيبريك صاحب
قلب كبير يعرف قيمة الحب ويقدر قسوة الأهل وظلم الأوضاع

الباطلة . وسوف تكبر وتحمب وتغفر لنا جنايتنا .
أمك المسكينة كانت أضعف من أن تقاوم احتقار الناس لإرقسوة
أهلها وعشيرتها .

وأنا لا أقدر على الحياة بدون أمك
ولدى أستودعك الله .

• • •

لم أتمالك نفس فيكيت وقد عدوت حتى بلغت الطفل ، فاحضنته
بكل عواطف مقبله كل موضع فيه ، لأبته عطفي وحاني كأنه
لبنى خرج منى

بكي الرجل في صمت ، وقد تساقطت دموعه على وجه الطفل ،
فتفتح الصغير عنيه ورفعهما إلى ثماليه كأنه يجاوب صدى عطفنا الدافئ ،
وحرك يديه وقدميه فقال الرجل عليه ، وحاول أن يأخذه منى ،
فأبته والصقته بصدري كأننى أخاف أن يختطفه منى ، فابتسم في
مرارة قائلا : سأتناء

قلت : أنا أولى به

فطر إلى مشفقاً وقال : لا خير على إذا تبذرت ... فانا رجل ...
أما أنت . فعذراء ... ففهمت مرعاه ودفنت وجهي بين ذراعي

الطفل لأخني مداعبي ... تضاعل أمامي كل شيء . عدا حبي للطفل ..
اشتد حتى ملك كل حواسي ، فظفرت إلى الرجل في جراءة قاتلة :
وعلاذا بهم .

قال : ماذا يقول الناس عنك
قلت : سأعهد به إلى مرضعة ترعاه حتى دور القطام ، ثم أرحاه
بنفسى .

قال : انك تتكلمين بحسك الآن . . . ولكن عقلك يعيش تحت
ضغط الناس ورغبا عنك .

قلت في يقين : أنا واثقة بما أقول .

قال : أمالك وعشيرتك وبيتك تحرم عليك ذلك .

قلت : بإيمان أكيد . . . لو تطلب منى الخروج عن طاعة
هؤلاء جميعا لما ترددت .

قال : جراءة في ظنهم غير مشروعة .

قلت : حسي وراحة ضميري والشكثير عن خطيئة الآئمين .

وهنا لحقت قائدى الشيخ محبوب الصحراء بأخانا هـ ، و مرر على
فتحاته وملت على الطفل أناغية بغير صوت ، فلم يعرفنى وسأل
الرجل . . . ألم تر الفتاة المصرية ، أخوف ما أخافه أن تكون ضللت
الطريق . وتعلم الشيخ وتأفف ، وقبل أن يتكلم نظرت إلى الأعرابي بمعنى

لا تقل . فقال له : اطمئن . . . قد نكون في طريق الآثار ، ولما غاب
الشيخ عن بصرى . . . قلنا له رجل : والآن . . . علام عولت ١٤ . .
قال . . . الطفل من نصيبي طبعاً واسمح لك برؤياه كلما شئت .
قلت : ولكنني أعود إلى وطني بعد أيام .

قال : لتكن مشيئة الله . . . لا يمكننا أن نفعل إلا ما ترسمه لنا
الأفكار .

قلت : استودعك إياه الآن . . . ريثما اذهب وآتي له بما عز
نقد له ليأمن .

قال : لا تكني نفسك أي عناء في سبيله مادام تحت رعايتي . . .
لقد اشغرت له ماعزتين ، وكافيت امرأة عجوزاً برعايته ، وقد
تركته لي الآن ، لأنها ذهبت تبيع له فراشا وثيرا في كوخى .
قلت : إذن دع خياطة ملابس لي . . . سأذهب الآن ، وآتيك
بعد ساعات ، فهل القاك هنا .

قال : هناك في كوخى عند الجبل ان شئت . . .
قلت : انفقنا . . . قال القاء .

وقبلت الطفل بحرارة وانطلقت مسرعة ، لأعده له هدية ،
وفي طريقى مررت بأكواخ السكان ، فافت نظري نساء الحى .
بعضهن يغزلن والبعض يحببن الماعز والفتيات الصغيرات يشتغلن

بصناعة الخوص والخرز ، فيعملان من سعف النخيل السلالات والمقاعد
والسرر ، ومن الخرز الحلى التى تجعل بها النساء ، وبعض الأواني
التي تصلح لزينة الدار وتباع للغريب السائحين .

كل امرأة جالسة أمام كوخها ، فالحى وقت الضحى كمشغل
للصناعة جلست فيه العاملات بمعدات فى صناعة ووقار وحرية لا تخلو
من سحر حلو برى ، والصغار يقلدن ويناولن عطاياهن ، ولقد
خصص لكل صغير عمل يلائم - منه وميوله . فهذا يثقب الخرز ،
كل لون على حدة ، وذلك يفرز القش ، وآخر يبلل السعف بالماء
وهكذا .

وما كنت اقرب منهن حتى رفعن رؤسهن ، فاخرات إلى فى
دعشة وقد لحت الزينة تغمر وجوههن ، انى لابسى كلابسين ولكن
لاشك أن الطبيعة المصرية تغلب على . وبادرتى احداهن كأنها شامت
ان تعرف حقيقتى من طبعتى قائلة مرحبا بالآخت . . . فتكلفت
اللهجة العربية مقلدة لغتهن . . اسعد الله صباحكن .

كشفت طبعتى عن حقيقتى بلا ريب ، لأن رنين صوت المصرية
يلازمها مهما تبدلت وتغيرت . وقد أدركنى ذلك . . فابتسمت وقالت
احداهن . . تفضل . واتهالت على كلمات المجاملة والترحاب . . فلم
أر بدأ من مسيرتهن وبجاليتهن ، وفعلا جلست معهن بعض لحظات

وقد نسبت كل شيء إلى إلهام . وحديثهم مرغوب فيه ممتاز بلطفه ،
وغرزة الاستطلاع عندهم قوية ظاهرة ، فمن يحاورهم بمهارة فائقة
وكياسة نادرة يعرف الحقيقة .

راحت كل واحدة منهن تسألني سؤالاً يهيب بي إلى الصراحة...
وفي الواقع طبيعتهم الصريحة تبعث في النفس الأطمئنان ولا تكلف
الإنسان عناء التفتيق والكذب . لذلك لم أر غضاضة من التحدث
اليهن في صراحة ، حتى عرف اسمي وبلدي وكل ما يمكن أن يعرفه عن
الإنسان عاشرني طويلاً وفهمني أيضاً . وفجأة . . . مر بخاطري طيف
الطفل فرجوت من أحدهم أن تدلني على الطريق الموصّل إلى سوق
البلد حيث تباع الأقشة . . وكانت نظراتي التي وجهتها للمرأة التي
فضلتها كافية لكي تجيب رجائي ، فقامت معي في غبطة مظهره كل
بهجة ورضا قائلة : سأصحبك كما تشائين

فدلت لما ذراعي في لطف . . . ومرنا جنباً إلى جنب تحدثني
في إيجاز عن بلادها . بالجلال المرأة العربية

لأحسب امرأة في العالم تحتفظ بانوثة حواء الأولى وطبيعتها
الطاهرة الساذجة ووحشيتها الغامضة المحيية كما تحتفظ بها المرأة التي
تعيش في الصحراء . أنها كما خلقها الله ، وكما كرمها الطبيعة ، وكما

يشتهيها الرجل ، لا تعرف صناعة التجميل ، ولا عجملة المعالجة
ولا تفاق المعاصرة .

وفي الحضارة حسن محبوب بتطرية

وفي البساطة حسن غير محبوب

ملابسها السوداء الطويلة الفضفاضة تسترها من قمة الرأس حتى
انحس القدم ، وقد تطول فتبدو كقصن ناظر إذا رف عليه النسيم
ملا ما يحيطه عطراً شديداً . وكان الحكمة ، حكمة الجمال اللامحدود
لا تستقر إلا في أعماق هذه المرأة التي تتكلم فيها البساطة بآيات
الحسن والبهاء . وتعرها الطويل المسدل على ظهرها كقصن ناظر
تدل في تيه ودلال يحكى نقيض السمو معناه في رفته ، كأنه الجبل
الحريري الذي يربط المرأة بالسما . وهي بقوامها الأنيق المليء
في غير بدانة كعمود من التور كساء الخصالتي بفلاحة من الظلال ،
تجيب شفتيها لتبدو لنا بشراً سوياً . هي انسانة ان بدت ولكنها
في الحق ، فكرة من الجمال الخلطت بالوجدان فتجسمت وصارت
امرأة . وعيناها . . . هما عينا الغيب اللامحدود ، لها في كل نظر معنى
فيه قصيد ، وفي كل لحظة لها أشيد .

واقن مافي المرأة العربية تنورها ، حاولت جهدي أن أصورها

(بآلة التصوير) فريعت ونفرت وجرت كالطبي الشارد . هي
تجرى وأنا أجرى خلقها ، كأنها فريسة يطاردها الوحش الجائع ،
وقد حلال أن آمن في معا كستها ، لا تزود من فتنتها فأرهمتها أني
عدلت عن تصويرها ، مادامت لا تريد ، فصدقت . . . وطبعي أن
تصدق لأنها لا تعرف الكذب حتى ترثاب غيا أقول ، واتجهت نحو
الشمس متصنعة أخذ صورتها . . . فذهبت المرأة وقالت : لن تمنع
الشمس لأنها ملك العالم كله .

قلت : وما الذي يمتلك . . . قالت : أنا ملك زوجي . . .
وزوجي لا يبيع لي ذلك .

فذهبت وتحتمت . . . زوجها .

قالت : أجل وسأعرج عليه بك الآن لترين بضاعه فقد تجدى
طلبك عنده . وعدت أعدم . . . أنت متروجة .

قالت في زهو : ولي أولاد أيضا .

فازددت عجباً وقلت : من يرك لا يتصور أنك زوجة أبدا . . .
أنك محتفظة بسحر العذارى وخقرهن ، وهذا ما حدا لي إلى
الاعتقاد بأنك عذراء . فابتسمت ابتسامة الخيرة وقالت : ماذا
تعنين ؟ . . . اليس الزوجة والعذراء كلاهما امرأة . . . اهني

انى لها طابع الأتومة بغيره ورقته ، واستعرضت فى خيالى صور
 النساء المصريات على الأخص المتزوجات ، وقارنت بين المرأة
 المتزوجة هنا وهناك . . . هنا المرأة العربية تستحي أن تطل من النافذة
 لا من خوف أو احتشار ، لكن طبيعة التعفف فيها أقوى من
 رغبة التطلع إلى ما وراء الدار . . . ينسا المرأة المصرية التى تظن
 الاستهتار سحرا والأختلاط بالرجال فنا ، مكتسبة هذه الإباحية
 الطليقة من المدنية الكاذبة التى أدخلتها من أختها الغربية ابنة
 المتعة والمباهاة . . . وملكى الفكر حتى كاد يردنى عنها ، كأنها روح
 مقدسة يجب ألا تحسبها أى روح غريبة ، حتى روى التى أعتقد أنها
 قوية طاهرة . . . ولكنها أخرجتنى من هواجسى بقولها : انظرى . . .
 هذه جدتى عائدة من عند زوجى ، كانت تنظف له المحل ، وتنظم له
 الحاجيات . . . فسمعت حتى ظننت أن إنفاسى قد انقطعت ، وحاولت
 الكلام فصعب على ، ولم أتمكن إلا من قول . . . جدتك ١١ . . .
 يا لله . . . كأن الزمن لا يحسب أعمارهم . . . يا عجيبا . . . أى امرأة
 هذه ١٢ . . . أتراها حفيذة القدر — أم تراها ساحرة تتغلب على
 الزمن بقدرة تستعيبها من الأزل . . . فقاطعتنى قائلة : أنها بلغت من
 العمر الخامسة والثمانين ، ولكنها قوية جدا كما ترى .

فهرزت رأسي كأنني أشك. ودرت بنظري منطلقة الفكر اجوب
الصحراء بعين روحى، باحثة عن السر المجهول الذى يبحث في حياتهم
فضارة الربيع إلى آخر الحياة المقدرة لهم، في عالم الأحياء، من يظن
هذه المرأة التى تسير معتدلة القوام فى نشاط فائق كأيها خلقت للتوأم
الدائم. هي جدة... شبت على الفسحات العذبة. حيثك أدركت أن
صفاء هذه الطبيعة هو باعث هذه الحيرة.

فتنفس في طلاقة تنفساً لا أحسني بمستطاعة أن أتفهمه في غير هذا التضاء الصافي . . . وايقنت أن الطبيعة وحدها مبعث العلمانية والحدوء والصفاء والقناعة والأمن والسلام ، فلم لا تكون حياتهم عامرة بالبشر والأمان .

ووقفت بي على متجر زوجها فحيته قائلة : عم مساء . يا ابن
العم، أعرض على الأخت بضاعتك .

فرد عليها التحية وهو يكاد ياتهما بنظرات الحب كأنها معشوقة لأروجه... هكذا خيل الى... لأن الزوجة في بلادنا يعيش معها الزوج عيشة آلية عادية مملة لا حب فيها ولا لهفة.

ما رأيت زوجاً مصرىً ينظر إلى زوجته نظرة حب أبداً -
لذلك كانت هذه النظرة غريبة عندي عجيبة . ويكفيك أن تسمع

لحمه ولحميتها ، فتشقى تمام الثقة بحبهما المتبادل الرفيع ، حب الإنسان
لروحه ونفسه .. قلت لأحول نظرة الى : هل عندك لعب للاطفال
منتظره ان يولنى الرجل صكك اهتمامه ... وأنه سيمجب في ،
وقد اثير تقديره كما اثرت اهتمام من هو أعظم منه أثرا وشأنا ...
ولكن الرجل نظر الى جلدا قائلا بانجامي : يا سيدتى ... نحن
لا نتجر في لعب للاطفال .

فتكلفت الرقة لأغريه قائلة : ولكن بلادكم عامرة بالأطفال .
قال : يلعبون بالحصى والرمل وسعف النخيل ... يتعلمون بالتجربة
والمران كيف يصنعون من سعف النخيل شيئا نافعا مفيدا . وأشار
إلى السلات والمراجين والأسرة الخ ... وكذلك يصنعون من
الرمل والحصى معجونا يكونون منه هذه التماثيل الصغيرة التى تشبه
تماثيل الفراعنة .

وهذا التعليم العملى غير المباشر هو الأكثر أفادة للاطفال بلا
ريب ، يقوى عقولهم ويهذب نفوسهم من غير تقييد أو اضطراب ،
قلت : أرى أصناف الأقمشة ، فقاطعتنى زوجته قائلة —
أظنك لست فى حاجة الى الآن ، إذ يتحتم على أن أعود لاهىء المشاء
لأولادى ، وإن شئت أمرا فزوجى طوىح أمرى . وصافحتنى ثم
حيث زوجها ومضى بعد أن شكرتها على تلفتها معى ثم بدأت أتغير بما

فماشا يوافق الطفل ، والرجل ينتظر أمرى فى سكون حتى انتقلت
القماش ودفعت له الثمن كما طلب وانصرفت .

ظاهرتان عجيبتان فى هذا الحادث العادى ، المرأة تفسح وتترك
زوجها تحت تصرف ، ثقة عالية . . . قلنا توجد عندنا فى مصر ، أى
زوجة مصرية تترك زوجها تحت تصرف امرأة غريبة عنها . . .
والظاهرة الثانية اعتداد التاجر بتجارته . . لم أسمع منه ثروة
ليغرينى بالحديث المتق والكياسة المصطنعة كى اشترى أكثر مما
أريد ، كأنه يسمو بعمله فوق أى عمل ، وكأن إيمانه بالله حسبه .

التاجر عندنا ينحط بمهنته إلى الضعف الخس ، فهو يرجو ويلج
باللوب يبعث الدم فى وجه المرأة الشريفة ، ويلجأ إلى الكذب
والنفاق ليروج بضاعته . مع أنه لو آمن بالله إيمانا مطلقا ، وعرف
أن الأمانة والصدق والتعفف أنفع له ويأخذ قوى على الساع رزقه ،
لما لجأ إلى الاحتيال . فلا بد للشترى أن يشتري بضاعته ، ولا بد له
أن يبيع . والرزق المقدر له لا يتعداه ، إن التاجر فى مصر يقضى
وقته فى صناعة الكلام ، فالشئ الذى يستغرق ربع ساعة فى بيعه ،
يقضى فيه ما يزيد على الساعتين . خصوصا إذا كان (الزبون)
امرأة ، يخرج من لون القماش إلى لون وجهها ، ومن طراوة القماش

إلى طراوة جسمها ، ومن أين القماش إلى عذب حديثها وهكذا حتى
ينقلب في لحظة إلى شاعر متهوس يجيد أسلوب المنزل السوقي ، وقديتهى
بيع القماش بمعرفة المرأة وتحديد موعدها . . . وأطول القصة حتى
تنتهي الرواية بعد أمد قصير أو طويل ، أخلايل تبعث الخجل من
أفئسنا ، أي والله من أفئسنا ، لأن دم الوطن الذي يربط الحر
بالبد ، يشعر الأول بطل الثاني ، فيتألم له أكثر من ألمه على نفسه
لأنه يحس بأن ذراعه ميتور .

بقى أمامي حياكة ملابس الطفل — فما العمل ؟

خفت أن اذهب إلى رفيقائي في دار الآثار فيضايقتني بالأسئلة
التي تحدثها المفاجأة غالبا في مثل هذه الأحوال . فما معنى خياطة
ملابس طائل غير طابئة بمشاهدة الآثار التي جئت من أجلها ، وكيف
غيرت ملابسى ؟ . . . وأين ؟ . . . وقد ترغب كل واحدة أن ترتديها
لحظة ، لتأخذ بها صورة تذكارية ، طافت بفهمي كل هذه الأسئلة ،
وضاق صدري بالإجابة عنها ، أخيرا فضلت أن اختفى وراء شجرة باسقة
بعيدة عن المارة ، وحدثت أبحث عن شجرة ظليلة في مكان هادئ .
حتى عثرت عليها فأخذت مكاني تحت ظلمها الوارف ، واعدت
ملابس الطفل بقدر المستطاع ، وأشد ما كان فرسى عندما انتهيت
من حياكة الملابس بعد مدة وجيزة لا تزيد عن الساعة .

ولعل اليسر أدرك ما بي فطالع من وراء الأفق يزدهى نورا
ويتألق بهاء ، فسرت على ضوئه ميممة وجهي شطر النيل ، باحثة
عن الرجل والطفل ، وأنا أحس بأن القمر يتساب إلى روحي فيزها
منتشبة بسحر السني

قف في سمائك يا قمر أنت الحبيب إذا ظهر

لا تخفى خلف الستر قلبي يناوشه القدر

أدن مني

يا حبيبي

خذ وهبي

يا سميري

في فضائك ترع والنجم قربك يلسع

وأنا أمامك أسمع نغم الضياء الممنع

تدعني

أنت روحي

بالحب جن

ويح قلبي

نسيت نفسي بهذا الشدو ، حتى تبهت على صوت وقيق ناعم

يقول من تغنى ١٩ ...

قلت : من بات وادبك .

قالت : لا تعرف ابنة اليد حلوة التفريد .

قلت : تتواضع لتزيدنا فتنة .

قالت : بلهجة حلوة . . . غريبة

قلت : يا قريبة

فاضمت وقالت بنقمة حية : معذرة يشرقا أن تكونى منا
وكان الله أرسلها لانقاضي لأنى ضللت الطريق ، فاعطأنت وقلت ،
أيمكن سيدتى أن تدلنى على الرواة القريبة من الجبل .

قالت : أغثك تعين ملعب العذارى . . . هناك . . . بالقرب
من شاطئ النيل .

ملعب العذارى . . . تسمية غريبة لم أسمعها من قبل . . .
سألتها ، قد يكون هو المكان الذى أعنيه ، ولكننى لا أعرفه اسمه . . .
ومرت بجانبها طرودة ثم سألتها : وما معنى هذا الاسم . ؟

قالت : إن العذارى تترخص فيه وتنفس الهواء الطليق اذا ضنن
بمنزلهن ، وهو يعزل عن الرجال . . .

قلت : تعين أنه لا يلعب فيه غير الفتيات

قالت : أجل . . . ولا يمر به أى رجل أيضا فى الساعات المحدودة
للعب . . . صيانة لحرمتن ورعاية لكرامتھن — كى يأخذن حظھن
من الرياضة والهواء النقي دون خوف أو حذر
قلت : تحسن وحرية . . . ما أجل هذا ، كنت أحدثها وارمقها

خلصة باحثة عما وراء كيانها من أسرار ومعان ، ضاغطة على الرمل
بقدمي كائنتي استتجده ليعينني على منطقي وجيه ، وأظنها فسرت حيرتي
البادية بالجهد الذي يحتمل أن يكون قد أصابني من وعثاء الطريق .
فقلت وهي تنظر إلي بعينين ناع ، عين فيهما حنان ملتئم :

أظنك تعبتي .

قلت : أبدا - لكن رقة الرمل تهذبني ، لكائنتي أسير على
حرير أملس - وترادفت خواطري قارذفت - لو لم أعرف أنني
أسير في صحراء رملية لظننت أن الأرض تنجرت قابلات طليقة من
طبقات أرض الفردوس . فضحكمت متهايلة كمنصن يداعبه الفسيم ،
فيا لسحر ضحككتها ، لكائنتها إحدى أنعام الموسيقى العلوية ، هابطة
منسجمة في هدر ، ولا أظنها خالفت إلا لتضحك - أو كأن الضحك
عندها مهنة مارستها فاتقنت وأبدعت أو عليها تعلت الضحك منذ
بدأت حواء الأولى تضحك فليست موطن السحر حتى أفتفت

كنت أسير على عجل وهي تتابع خطاي ، فقلت : كائنك على
موعد . قلت لا أخفي عنها الحقيقة ، مع ألبدر هناك . . . سمعت
أن منظر هذه الربوة تحت أشعة القمر ساحرة ، فرغبت في استيعاب
هذا المشهد عن قرب ، ولحمت شبه شعاع خفيف يبدو من بعيد
فألتها : ما وراء هذا الشعاع ؟ .

قلت : كوخ عربي

قلت : أيعيش صاحبه وحده هناك ؟ . . . كأنه زاهد !

فهزت رأسها منمقمة : شبه ذلك

قلت : كأنك تشكين في زهده .

قلت : اجل . . أحيانا يعيش هنا يتعلى من الحياة كما يريد ،

وآنا يعيش هناك كأن به عزوف عن كل الوجود .

قلت : تناقض غريب يجعل سرا .

فأطقت رأسها مفكرة كأنها هي الأخرى تجعل سرا .

فاردفت : عله ساحر !

قلت لا أظن فلاحه تدل على استسلامه لله ويحده عن الأضاليل ،

وهنا اقربنا من الكوخ فترامى إلينا صوت حنون تقاطعه نغمات

النأي الحزين ، فتوقفنا عن السير لنستمع إلى الغناء ، وقد

طفرت دموع من عيني صاحبتى ، لكنها حولت وجهها بعيدا

لتخفى ما ألم بها . . .

تعالى تملأ الدنيا غراما ونحيا فوق دنيا العالمين

تعالى نسكب الأرواح شعرا لتروى لوحة القلب الحزين

تعالى يا منى القلب الالوع

تعالى

تعالى ترسم الأحلام ولا نخش أذى الأسوام
وحسب غنة الآلام وما بعثت من أيام
تعالى يامن القلب الولوع

تعالى

الا فذاك في قربك ابتك لاعبر الحب
وما احذرت في قلبي اذاتك من هوى عذب
تعالى يامن القلب الولوع

تعالى

عرفت صاحب الصوت قبل أن أراه ، راسقتني المراقبة في بطن
لخفي اضطرابها ، وقد لاحظت أنها تأثرت بالصوت تأثراً بالغ حسنها
وأنه وجد في قلبها حدى . فقلت لأعرف حقيقة روافدها : لكان
هذا الصوت صادر من وراء السماء .

قلت بصوت الحاملة النائمة : لأن صاحبه من أبناء السماء .

بدأت أفهم شيئاً جديداً واستطردت : أتعرفينه ؟ . . .

فارتجفت وتلعنت ونظرت بعيداً كأنها خافت أن أفهم سرها
من عينها فائلة بصوت خفيض : أسمع عنه

وكنا قد بلغنا الكوخ فقلت : أنا عطشى وفي الواقع تصنعت الظماً
القاتل فترفت بي وقالت : هنا ماء ... وطرقت الباب بيد من نجفة ...
فبان وجه الرجل « الجمال » بعد أن فتح الباب في هدوء ، كأنه كان
على موعد مع الطارق ، فأخفيت خلف الجدار لكي لا يراني ، وسمعته
يقول لها بلهجة لا تخلو من التحذير ... كيف جئت ؟ ادخلي . فتوقفت
قائلة : ابراهيم ... معي فتاة غريبة عطشى ، فصفق الرجل
مدمدا ... غريبة وأطل برأسه من الباب في لهفة ، وكنت قد
اقتربت لكي لا يتهمني بالتجسس ، ولشد ما كانت دهشته عندما رآني
فتحركت ملاحه من الدهشة إلى الخوف ، إلى المسرة ، إلى التردد .

قلت بلهجة جادة كأنني لا أعرفه : مساء الخير ياسيدي ، هل عندك
ماء ؟ فأسرع واحضر إلى أبريقا من الفخار ناواني إياه قائلاً : معذرة
لأنني لا أملك سواه ، أعيش وحدي ولا يشرب منه غيري .

فشربت حتى ارتويت — لم أكن عطشى ولكنني لما رأيت
الماء بين يدي أحسست بالظماً . كالإنسان لا يشعر بحاجته إلى
الشيء إلا إذا وجدته بين يديه ميسوراً لديه ... ولحت الطفل
نائماً ، فدنوت منه أقبله وأناغيه ، وقد انتهزت المرأة هذه الفرصة ،
فهمست في استحياء : لم أرك منذ عهد بعيد ... ماذا دهاك ؟ ...
تملكني شعور غامض عجيب ... فانسحبت في سكون وأنا

أقول للرجل اشكرك طفلك وديع ، وخرجت بعد أن وضعت
هدية الصغير تحت غطاءه دون أن يشعر أبوه . فتبعني المرأة
مرغمة . . . إذ كانت ترغب في البقاء بجانبه بلاريب كما فهمت من
ملاحظتها خرجت متعثرة بعد أن قالت له بصوت خفيض : متى
اراك ؟ . فاطرق برأسه صامتا ونظر بعيدا ليرقبني .

ولما اقتربت مني نأبطت ذراعي في هدوء ، وقد شعرت انها
تجذبني لتلقى في كيانى ما فاض عنها من عاطفة كامنة ، وسارت
بجانبي فى صمت . . . فاحترمت عواطفها ولم اشأ أن اشوه جلال
خواطرها . ولم نكد نخطو بضع خطوات حتى سمعت صوتا ينادى . . .
يا سيدتى . . . فتلفتنا خلفا وإذا بالرجل يكرر نداءه ، وفهمت
من اشارته أنه يعيننى .

توقفت المرأة ونظرت اليه فى لفة حارة ، فلما اقترب منا خاطبني :
لقد نسيت هذه الورقة ، وقبين لى أنه لم يفتحها .

فقلت : آه لقد نسيتها — على اننى فى غنى عنها . . . حذها هدية
منى للصغير : فقدمها الى فى انفة قائلا : شكرا ، ليس الطفل فى
حاجة إليها . . . ودار على عقبه وعاد مسرعا بعد أن رمانى بنظرة
قوية . . . ما معنى هذا ؟ ! . . . لم أفهم ! ! ! . . . أنه يعرف أننى

سأحضر هدية للطفل ، و كنت على موعد معه ، فلما إذا رفض
الهدية ... اتراه يتعمد ادائتي أمام هذه المرأة لا بد ! ... وعاد دنتي
كبريائي ، وتحفزت كرامتي للأخذ بالثار في ثورة وجنون .
تغتفر المرأة كل شيء ، عدا اهانتها أمام امرأة أخرى . وزادني
غیظا انطلاق وجه المرأة بعد التجهم بالبشر وقولها : أنه يعتد برجولته
إلى أقصى حد ، وبقدر ما يحب المرأة يصدّها ويهجرها ، ولكن
ليست كل امرأة تغريه . وتنفست كيأنها مطمئنة إلى فتنتها فاشتد
حنقي . مفكرة : هل أكون أقل منها فتنة ! ! . أتمكن ثقافتی أقل
من جهالتها . وبدأت أنظر إليها من جديد نظرة الكاشف الباحث
لأدرك ما وراء نفسها من معاني . فاذا بها امرأة ممتازة بفطرتها
الساذجة البريئة المستسلمة رغم جهالتها ... وفهمت أن السحر
لا يكتسب بالتعليم والمران ... إنما هو قوة معنوية ، يهبها الله لمن
يشاء من عباده كما يهب الذكاء والاشجاعة مثلا ، لكن اتشفع هذه
العقيدة للرجل ؟ أيمن أن تبدد ما أصابني من أهانتة ! ! . التهمت
غريزتي فنضائل إيماني بالأدراك ... ورأيت الغريزة أقوى من
الارادة ... فها هي غريزة الغيرة تملكني ، والمرأة دائما
لا تحب أن تكون هناك امرأة أفضل منها وخصوصا إذا أحست أن
القاسم المشترك رجل ، إنما الغيرة تتولد من الحب ، وأنا لا
أحب الرجل فما معنى هذا الشعور ؟ لشد ما أخشى ! ...

وذاق عقلي بشكري واتسع خيالي لفكرة الانتقام لأحلى .
جذرة الغريزة التي تأججت في - كرهت المرأة ، وكرهت الرجل
ولست أدري ، أكرهت هذه من أجل هذا ، أم كرهت هذا من أجل
هذه . . . أرى المرأة أمامي في صورة عذيفة تبث في نفسي ابشع الخواطر
وأرى الرجل أمامي في صورة وحش لا قلب له يحاول أن يجذبني
بالطف وبالعنف .

على أن ذلك لم يقصني عن المرأة التي ظلت محتفظة باقتسامتها
الحلوة وهدهد . نفسها البريء . التي لا أمقتها ولكنني لا أحبها أيضا
لأنها كانت سببا في إهانتني . . . لو لم تكن لما قدم الرجل على إهانتني
مستغنا بأنوتي ، فغمرني شعور الانتقام منه ففكرت في سبيل
تحقيقه .

وإن المساء قد أرخى سدوله وأكسب الصحراء وحشة يذنف
رهبها ضوء القمر الفضي ، فصحبتهسا لأعيد ملابس المرأة العربية
وأرتدى ملابس حتى إذا انتهت ودعتها ، وأخذت طريقني إلى الحباء
الذي أعد لنومنا مفكرة في صياغة رواية أقصا على رفيقتي محتفظة
بتاريخ حوادث اليوم لنفسى .

ولما وصلت إلى الحباء ، قصت عليهن حكاية استطعت أن

أخلقها بمهارة تثير غيبي طوال اليوم ، وكن يستمعن إلى في لحظة
وطرب حسن تمثيل وجمال خيال الذي أبدعته باتقان عجيب حتى
صار كالحقيقة الأكيدة .

وبعد أن خلوت بصديقتي الخاصة ، همست في أذنها ما اضطرت
إلى الإباحة به إليها تسريلا لما يحق التي أتتويت القيام بها . وبعد مدة
وجيزة أقهرتها كل شيء ، واستطعنا أن نتسلل خفية بعد أن تأكدنا
من نوم الرقيقات . ثم عرجنا على خباء الحارس الذي كلف بحراستنا
من قبل الشرطة . واستعرنا منه ملابس الخاصة غير الرسمية وهي
ككلايس رجال العرب تماما ، بدعوى أننا نريد أن نرسمها بالقلم
لحاجتنا الماسة إلى أخذ فكرة عن ملابس العرب ، وأكفى يسهل
علينا وصفها إذا عدنا إلى بلادنا . ولم تمنح له فرصة للكلام فوضعتنا
في يده بعض النقود وأخذنا الملابس وأرهناء أننا عائدتان إلى
الحبابة . . . ثم تسلكنا في حقل إلى الخلاء .

ولما خلا المكان إلا منا ساعدتها على خلع ملابسها وارتداء
ملابس الرجل ، وقد استطعنا أن نخفي شخصيتها النسوية بمهارة فائقة
وساعدنا على ذلك تعاقب قوامها ، وخشونة صوتها ، وكبر انقباضها ،
واساعفها . وتأبطت ذراعي كأنها حبيب ، وسرنا على عجل حتى

بلنا كوخ الجبال ، فتكلفنا السير في بطنه ، وخلاعة ، تنسافر بصوت
خفيض كأننا نخشى رقبيا ، وثقلتنا بمنه وبسرة كأننا نخاف غريبا .
وانتظرت أن يخرج من الكوخ فلم يفعل ، فاضطرت أن أغنى
ليتبه أن كان غافلا . وملت على كتف صاحبتى أو على وجه التمثيل
« صاحبي » في شبه دل واستسلام .

جف دمعى يا حبيب فاض حبي والوجيب
ولي بؤسى والنحيب عاد سعدى مع الحبيب

انت لي نور البشير

ترشد القلب المظلل في الظلم
تسكب السقيفا إذا الغيث انهمل

انت لي الأمل الكبير

وهنا فتح الباب ، وخرج منه الرجل بحذر ، ووقف يستمع
ال فسكت وطوقت عنق (رفيقى المصطنع) بذراعى
وقربت فى من وجهه . ثم انصبت عني في حياء ، كأن الخمر عندي
أشد من الالهة الكائمة .

وقد مثلت صاحبتى دور العاشق فأجادت حيث قالت محاولة أن
تهدئني إليها في قوة ، وأنا أصدها عني في نية ودلال تعالى

يا حبيبتى الى صفدى اترك هيام روى ، هل ذلك يطفى جذوة
فراى تعالى اضمك الى نفس ضمة لا فراق بعدها .

قلت : وانا أمل عليه طريا وابعد عنه حياء . . . لا تهذبني الى
السمير . حسبي ما في من لخب ، ومد ذراعيه ليطوقني ولكنني
ابعدته عني في رفق وانا انعم . . . دع ذلك حتى يجمعنا الله اجتمعا
نفسيا . . . وقد يكون قريبا . ولم اكده انتهى من قولي حتى فاجأني
الرجل كالوحش المفترس ، وهجم على « رفيقي المصطنع » . في
وحشية وقال والشرر يتطاير من عينيه :

من أنت يا رجل .

قال : وما شأنك ؟؟ . . .

وتابته وانا أقدم يدي لأنابط ذراع رفيقي ، من اباح لك
التدخل في شأننا . فلم يأبه لقولي ، وجذب الرفيق بقسوة فطرحة
بعيدا . . . وساعده على طرحه خفة جسم الفتاة وضعفها أمام قوته
الصارمة . فاصطدمت المسكينة بصخرة اسلمتها لأشياء عميق ،
انقطعت انفاسها ، وسال الدم من انفها .

يا مصابي .

صرخت بكل قواي ، ولوتعت على جسم الفتاة أوارى شعرها

بخطأ الرأس وابكى . وقبل أن اتحرك لأحضر الماء ، كان الرجل قد أحضره فوضعه وجهها أو وجهه كما يظن .

ورفعت رأسها على ركبتي وقت باسما فيها ، حتى تفتت وتحركت وتمتت . . . اشعر بدوفر في رأسي كأنها تهشم ، واستطعت أن أبحث في رأسها عن أثر الصدمة في غير حذر ، لأنه ابتعد عنا خطوة وراح ينظر الى الاقن بعيدا كأنه يهاني أزمة نفسية حادة ، ويحاول أن يهدي ثورته ويسترجع هدوءه أو ليرسم منها ما يريد أن ينفذه حالا .

وفجأة انطلق وجهه ، وبان كأن قسيانه خطوطا من العطف والحنان . وتحرك من مكانه ، ثم وقف كأن التردد يساوره ، واقترب منا حائيا على الرفيق ، فوجدته بين يدي ، وقد أعمدت ان أقبله أمامه في حنان ، وكأنت قبلي خنجرا صويته الى صدره ، فصرخ ولكن الصرخة لم تخرج من فيه ، بل ارتدت الى قلبه طيما اشعل وجدانه ، وعادته ثورته ، وتلست الغيرة تطاير من كل جانحة فيه ، فتمتت بهذه النتيجة ، واقعت رفيفي من وقفته في تأدب ولم أشأ أن أزيد جنونا .

ولكنه استرقنا قائلا : أريد أن أعرف صلة هذا الرجل بك .
أنت عذراء مصرية وهو عربي . . . فأنثرت الى رفيفي علامة —

اسكت لأغصيه من الكلام — وقلت . . . التفاهم لأدين ولا وطن
له . . . يا سيدي .

فأطرق برأسه ملياً ثم قال : لو لم يصب صاحبك بمأزوه لقتله
قلت متبكة : بأي حق ؟؟ . . .

قال : بالعدل . . .

قلت : ومتى أباح العدل قتل بريء

قال : لقد هتك حرمة هذا الوادي المقدس .

قلت : أن الحب يزيد طهراً وقداًسة ، فما كنتسح الغيظ أرادته
وقال موجها الحديث إليه . أيها الشاب ابتعد عن هذه الفتاة والا فقتلك
فقال الفتاة (الرقيق) لن ابتعد .

قال : أتى أحذرك .

فقاطعت : كلانا حر بأصاحبي

قال : موجها الحديث له — اعصم على التفرير بها ؟

قال : اعصم على حبها وعبادتها (وفي الحق ادهشتني لطيفة الفتاة
المتفنة مع اشاراتها وحركاتها)

فقال الرجل : لن أطعنك من الخلف كما يفعل الجبناء . بل اترك
لك حرية اختيار السلاح وتحديد الوقت والمكان . فريعت الفتاة
وارتجفت ونظرت الى كأنها تستلمني . . فضغطت على قدمها
بقدي . . أي لا تخافي .

وقلت : انا التي أحده لكما الزمان واختار السلاح . . . لكن
أحب ان أعرف السبب الذي دفعك إلى هذه المبارزة .

قال : يجب أن يغسل هذا المكان بالسم . . . فليكن دمه
أودى والله يفعل ما يريد . فتكلفت الغضب — وقلت . . . انك
تبهني بأسيدى وتغدش كرامتى وشرفى .

قال : بالعكس . . . من أجل شرفك أداقم
قلت : انك تضع السم في كأس شفيف . . . ، يا عجباً .

ولاحظت أن رفيقتى ترتعش وتتفصص ، فخفضت ان تكون الحى
قد ملكتها . فاستطردت بصوت تشفعه نغمة الرجاء . . . انه محموم
الآن : ويجب أن نتصرف .

قال : سأأخذه إلى كوخى ، أسهر عليه وارهاه حتى يتأهل إلى
الشفاء ولن تتأوز حتى يشعر بأنه أقوى منى .

قلت : أشكر لك حنانك ، ولكن لابد أن يعود إلى كوخه حتى
لا يفتن غيابيه أمه العجوز . وهنا ارتعت الفتاة على الأرض في أعياء
فحسبتها فإذا بها محومة ترتجف . فهالنى الأمر وبكيت وفكرت
ما عسى أفضل لقد جنيت عليها . ولم يعال تفكيرى . . . إذ تقدم إليها
الرجل وحملها على أكتافه وسار بها إلى الكوخ ولكنى استوقفته

وحلت بينه وبين الدخول قائلة : هذا لا يمكن ، يجب أن أعيده حالا إلى أمه .

قال : قد تصاب بمكروه إذا رأته على هذه الصورة
قلت : قد يعيد إليه حنان أمه عافيته . . . وتشبثت بردائه راجية
في الحاح ، فأطاع مضطراً وخرج معي يحمل الفتاة على كتفيه ،
وتجسست خطورة الموقف أمامي ، ورحت أفكر في سبيل للخلاص
منه حتى لا يفتضح أمر الفتاة . أخيراً اهتديت إلى فكرة . . .
لمت له عندما بلغنا شبه غابة من النخيل . . . أشعر بجوع عظيم .
ومنظر هذا البلاح يزيدني جوعاً . أيمكن أن تتسلق هذه النخلة القريبة .
فوضع (الرفيق) برفق على الرمل بعد أن أمرني أن أسنده بذراعي ،
ثم تسلق النخلة وراح يلتقي الجيد من البلاح حتى أمرته أن يكف
وينزل . . . ففعل .

وفي الواقع لم أكن جائعة ولا كنها حيلة لجأت اليها لكي أهمل
في أذن الفتاة — حاولي أن تتمالكي قواك ولو تصنعا كي تتمكن من
الخلاص منه حتى لا يفتضح أمرنا . فهزت رأسها بعد أن صعب عليها
محررك شفتيها وعاد ليجمله فقلت له . . . أنا عطشى أكاد أختنق
أسعفني بكوب من الماء . فتلفت يمينه ويسرة ، فلم يجد أي مكان قريب
فيه ماء .

فقال : ألا يمكن احتمال الظمأ حتى نقرب من أى كوخ .
قلت : رأنا أبتلع ريقى . . . كدت أموت . . . وتباكيت
فراح يعدو مهرولا ناحية كوخه ، وكنا قد قطعنا مسافة بعيدة
وما كاد يتوارى عن ناظرى حتى سحبت رفيقتى . . أجرى بها وهى
مستسلمة إلى فى اعياء .. متجهة صوب كوخ من أقرب طريق عرفته ،
حتى بلغناه يعد منتصف الليل ، فدخلنا فى سكون وارتمينا على الفراش
من فرط النصب ، لآنحس ولا نشعر بوجودنا .

اطمأنت لخلاصنا منه . . إنما شغلنى مرض الفتاة .
خلمت عنها الملابس المعارة والبستها ملابس نومها ، وسهرت
عليها طوال الليل ارحاها . وقد أفادتها رعايتى قليلا فنقصت الحرارة
واستجمعت قواها حتى لاح الصباح فاستدعيت الطبيب ليفحصها
وافهمت رفيقتاى أنها أصيبت بحمى طارئة فى الليل ولم أشأ أن أقلقهن
حرصا على راحتهن .

وبعد أن فحصها الطبيب كتب لها الدواء وأمرها بالراحة وعدم
مغادرة الفراش بعض أيام .

كان من المقرر أن تغادر البلينا فى هذا اليوم ، ولـكننا اضطررنا
للبقاء من أجلها ، وقضت اللياقة أن أظل بجانبها حتى تتعافى ، وبعبارة الله
تمثلت للشفاء فى اليوم التالى واستطعت أن أخرج معها الرؤية ما لم أره من

الآثار . ونسيت الفتاة ما عانت لاستمتاعها بالهواء النقي وجمال
الوادي ، وقد تكون تكلفت ذلك لتشعرنى بالراحة وتطمئنى فقد
كانت تحبنى حبا صادقا وتحرص على راحتى حرص الأخت على اختها .
وانا الأخرى نسيت مصابها بما لا زمنى من شعور غامض فقد
أحسست بالراحة النفسية لاننى اكتشفت دخيلة صدر الأعراى
وعرفت أنه يحبنى ولولا ذلك لما اهتم بى

وفى طريق الصحراء راحت رفيقاتى تنشدن ، وانا لاهية عنهن بهواجس
يشوبها الحزن المبهم . فكرة السفر دون أن أرى الرجل كانت
شاغلى ولكننى لا اريد أن أره ، فحسبى انتقاما — وحاولت أن
اوارى الهم بالغناء .

هذه الدنيا الجميلة	خير ام للعيلة
فى مغاتها الظليلة	كل الوان النعيم
صخرها وسط الرمال	آية فيها الجلال
جوها يسبى الخيال	جل من صاغ الأديم
أنها حلم سعيد	يبهج المضى المكدر
فتها سحر جديد	عطرها عبق كريم

كالحسن الشاديات

وطيور صادحات

صوتها يشفى السقيم

لاهيات مارحات

تمنح النفس شفاها

ساعة عند ضحاها

فتنة الخلد المقيم

جل ربي من حباها

كنت اشاركهن الغناء ، لكي لا يشعرن باغتراب روحى
متكلفة المرح ، والله يعلم انى سابحة فى الغيب المجهول ، كنا نغنى
راقصات بحركات ايقاعية على وتر النغم كالزهر اذا تفتح وداعبه
النسيم وسط الروض النضير . كان ذلك فى طريقنا الى المحطة لنسافر
الى اسوان . وقضينا الليل فى القطار حتى انبلج نور الصباح ،
فتنهنا وما كاد الضحى يستقر فى قلب الافق حتى كنا فى اسوان .
تبعنا الرائد الى الفندق وبعد ان تمالكنا قوانا خرجنا نتفقد البلد
ابى ما أودعه الله سبحانه وتعالى فى بلد من روائع الفن ،
ما أودعه فى وادى اسوان . قد نشاهد النخيل فى بلادنا فلا يجذب
نظرنا ، لكن هناك يجذبنا غصبا كأنه قوة سحرية تنطق بحلاء .
هأنذا — وهو فى مجموعته — كلمات مبعثرة مرتفعة عن الأرض
لتحكي نشيد السموفيه مغزى المجد الخالد . أما الصخور ظننتها عند
ما نحنا لأول وهلة أوكار طيور مائية جمعتها يد الخالق الخفية برفق ،

فكونت منها شبه قصور حجرية تحجب اسرار الطبيعة الندية .
تعانقها الشمس إذا طلعت فتطفر الحرارة من جوانبها كأنها قطع
ذهبية أو وهج من حريق فيه ثورة ولهب ، ويحتضن بعضها بعضا
في حنان وشغف . حتى إذا سطع القمر تبدل اللون الثائر إلى الظل
الهادي ، وبانت الفوهات الفارغة كشبه مغارات عامرة باطيايف
الليل النائمة . ولا يخلو الصخر في الليل الحالك من روعة المساء الحالم .
دائما على الصخر قبلة من الضوء مهما تنوع باعته . مجموعة من
رءوس الوحوش الكاسرة المستسلمة للقوة العاتية ، لا تخيف
ولا تزعج لأن الظلال الساحرة تلبسها غلالة من الفتنة الباهرة .
فتحسبها تناديك بصمتها الرهيب — تعال — فاذا اقتربت منها
وأدركت روعة فنائها تهيب ، واحجمت كأن فيها قوة مسحورة
نقصيك عنها ، وما هو بسحر يملك انما هو ذهول العقل امام الفن
الخالد . كثيرا ما نمر على الرمل لاهين عابثين ، لكن رمل صحراء
اسوان لا يدعك تلهو أو تعبث . . . بل يدفعك للفكر لتجد . كأنه
سجل الوجود منذ بدأت روح الحياة تسرى في كيانه . حكايات ما مر
من دهور مرتسمة على الأرض في الذرات المنشورة . سبحانك
ربي . . . لقد خلقت فابدعت ورسمت لنا مثل الفن الأعلى وسوف
تنتهي الدهور ونحن اعجز من أن نفهم اسرارها .

الفصل الرابع

كانت هذه المفاتن كافية لامتلاك حواسي كلها ، لكن الرجل
الجمال الوحشي بقوته الجليل بحضانه . كان تأثيره على أعظم من
تأثير جمال الطبيعة حتى احسست اني فقدت شيئاً عزيزاً ، وندمت
على سفري دون أن أراه . ولكن ماذا يجدي الندم . . . وحاولت
أن اتخلص من خياله لأعود الى الانغماس في قلب الطبيعة . . .
ولكن هيمات . . .

قوة خفية تدنيه مني وتدنيني منه ، ولا قدرة لي على صدها أبداً ،
ولا أنكر انني كنت احاول أن أتخيله في صور مخيفة مزعجة بغضه
عل ذلك يحول بيني وبين التفكير فيه . ولكن شبه مس من الكهرباء
كان يتمشى في روعي فانتعش وارى وحشيته أجمل من لطف أي
رجل لقيته وعرفته .

صح عزمنا على أن نقضى في أسوان بعض أيام لتوفر أسباب
الراحة والمعيشة وجمال الجو وهدوء الوادي ، ولاستيعاب الطبيعة
الجميلة ، ولما استعدت راحتي بعد عناء السفر ، عن لي الخروج
وحدي لأتلمس مواطن الفن حيث يطيب لي اكتشاف المجهول
دون دليل .

وأول ما استرعى نظري الصخور الجاثية في قلب النيل كزهور
تأبى إلا أن تخلد على الزمن حيث هي ، لذلك هرعت إليها وجلست
على أحداها ، وقد انتثر حوالى بعضها فظهرت كأننى خرجت من
باطن أم تأبى إلا أن تحتضنى بذراعيها ، كأنها تخشى أن تفقدنى ،
وهاته الصخور المتناثرة منوطة بحراستى . آه . . لو لم يكن فى قلبى
ذلك الأحساس الحزين ، لطربت وانتشيت وسعدت بما حوالى من
مشاهد . وفنيت بمشاعرى فى ذلك النيه اللا محدود حتى نهى تغريد
الطيور ، فتنبهت شاعرتى ورحلت أغنى :

ياهائى فى كل واد	تشدو بألحان البعاد
رتل لنا اللحن الشجى	من كل فن عبقرى
فى صباح ومساء	وانبعاث واختفاء
أيهذا الطائر	انت معنى حائر
لا تبالى بالحياة	فى أنين أو شكاة
إنما الدنيا هباء	سوف يذروها الهواء
فانج منها فى سلام	قبل أن يطغى الظلام

هو قاي الذى كان يغنى فطربت لألحانه ، كأنه خرج منى ليسمعنى أنغامه .

مربى النوبيون يرتنون أهازيج المرح الطليق . فما أعذب
 أغنياتهم الساذجة ، فكانها خلاصة الصفاء الذهني ونقاء القلب الآبي ،
 رأيهم كالطيور يلزمهم الأمل والنشاط ويحفهم الطرب والبهجة .
 وبدأ الصوت يخفت رويدا رويدا كلما ابتعدوا عني . . .
 فاضطرت ان انتقل من صخرة إلى صخرة لاقترب منهم لكي يظل
 الصوت الحلو في مسمعي وتواروا جميعا عدا واحد منهم ، خلع هلب
 المركب الحديدي من الصخرة القريبة مني وتأهب للتجديف
 فاستوقفته قائلة : ايمكن ان توصلني الى الجزيرة ولك ما تريد . وأظنه
 لم يرنى من قبل لأنه دهش عندما سمع صوتي ونأملني طويلا ثم قال
 مبتسما بلمحجته النوبية العاجلة مامعناه تفضلي . . . في الواقع لم أفهم
 الفاظه جيدا ولكنني أدركت ما يعنيه من اشارته وابتسامته . فدلقت
 الى الزورق واخذت مجلسي في مؤخره مع رغبتى الشديدة في التجديف .
 ولكن عدم ثقتي الموفورة به منعتني من الجلوس بجانبه . على انه لم
 يمض بعض دقائق حتى آسنى ويعث الطمأنينة في صدري فانتقلت
 الى جواره وعاونته — مشرطة عليه ان يغني ابان تجديفي . . .
 فرضى باسماء طروباً ، ما أبهى وجه النوبي رغم سواده الحالك . الطمر
 يتجلى في ملامحه وتنطق بصفائه اسنانه الملتصعة الناصعة البياض .
 من يتأمله بحسه وفكره يحزم بأن قلبه قلب نبي لا ينشد في دنياه

غير ما تجنيه بداه . وهما يجنيان ما يعود على نفسه بربح روحى فيه
إيمان ثابت وقناعة راسخه .

صفاء السماوات العلاء استقر فى نفوس النوبيين الملاحين وفى هذه
اللحظات سرى الصفاء إلى نفسى فانتعشت ونسيت هواجسى حتى
سمعت النوبى يخاطبني بصوته العميق عندما اقترب الزورق من الشاطئ .
ان شئت عدت بك أو أظل معك - قلت وبودى لو استبقيه بجانبى
الى نهاية يومى . اذهب وعد بعد ساعة - فأظهر سروره بابتسامته الوديعه
وعاد بزورقه ونظره عالق بى . . . هرولت إلى الرمل لأدفن جسمى
بين ذراته الناعمه تاركه رأسى وحدها تطالع صفحة الأفق باحثه عن
مكان يستقر فيه خيالى ، لأخلو إلى طيف الجمال الغريب . . ومضى
الوقت وأنا كالحالمة . . حتى لححت الزورق يقترب منى ، فايقنت أن
النوبى عاد ليحملنى الى اسوان ... فتأهبت وبى من الشوق لرؤيته
مالم يدر بحسبانى ان يكون عندما فارقتى . وقبل أن أتأمل وجهه
أو أخاطبه كنت قد بلغت قاع الزورق وعندما رفعت نظرى لأحياه
واجهنى الرجل الجمال . . . أى دهشة غمرتنى 11 . .

تلاشى كل ما كان فى صدرى من شغف وحنين وتملكنى الخوف
والاضطراب ، وقبل أن اتكلم قفز الرجل ووقف أمامى وجهه
لوجه قائلاً : أخيراً . . . وجدتكَ .

فصرخت بصوت مرتجف . من أنت ؟ . .

ولقد تجاهاته لأغيبه ناسية كل شيء إلا أهانتى أمام المرأة . .
وفى الواقع كان حقدى عليه قد تلاشى ولم يبق فى صدرى غير عاطفة
صادقة تقر به منى . . . على أنها لاتمنع عقلى من التفكير فيما حدث
واقوى صورة مرتسمة فى ذهنى . . . صورته وهو يتهم بى أمام
المرأة .

لم يؤثر جمودى فيه فظل محتفظا بهدوئه قائلا : أنا .
فهزئت رأسى منهكة وابتعدت عنه غير عابئة .
فقبض على يدى فى عنف قائلا : مهما تجاوزت حدود الجحود
فانك لا تستطيعين الفرار منى .
قلت متكافة السخرية : ماهذه الجرأة . اهكذا تعامل الفتيات
المحصات فى بلادكم .
فقال : اسمعى وافهمى — تعرفين جيدا أنك تركتني فى العراية
على صورة لاتلبق بفتاة عاقلة .
فقاطعته : لاتزد . اتهمنى مرة أخرى هل جئت من أجل ذلك ؟
قال : جئت لاكشف الستر الذى يحول دون تفاهمنا
فتعنت قائلة : ليس ثمة مايدعو للتفاهم ، وصعب على تفهم حقيقته
فى هذه اللحظة إذ كيف يتبعنى وقد أهانتى . . اتراه يكذب

على، وبدأت أفكر في أى الناحيتين يكذب ؟
فان كان تهكمه بي امام المرأة كذبا ، فليس معنى ذلك أنه يصدق
الآن ، اذ الذى يكذب مرة من الجائز أن يكذب دائما . وتجسمت
هذه الصورة المزعجة حتى تفرتنى منه . فابتعدت عنه صامته .

ولكنه اقترب منى قائلا : فى الواقع لم اتبعك رغبة فيك . . .
لكن لأطمئن على الرجل المريض الذى أسأت اليه فى ساعة غضب
غير مشروعة ، واختطفته منى وهو فى أشد الحاجة إلى العناية . . .
وظننت بي سوءا . . . ونظر الى طويلا كأنه يقول :
ليس كذلك . . .

فى هذه اللحظة مر بخيالى عطفه وهو يحنو على المريض الذى
يكرهه ، وتذكرت كل ما قام به نحوه وما اسبغه عليه من عطف وحنان
وما تحمله من أجله فى سبيل راحته ، فتضاءل غيظى وتلاشى كل
فكر بغض . عدا تقديره والعطف عليه . ما عساي أقول عن رجل
يحسن لمن يكرهه ويحتقره ويحجىء من بلد الى آخر ليطمئن عليه يا لجلال قلبه
عليه عندهما وجده فى حاجة الى الرفق والعف . لطالما بحثت عن هذا
القلب الكبير . . . فلم أحده .

وهأنذا أخيرا أجده . . . انما عند رجل تعتبره الجامعة
البشرية حقيرا إذا وضعت الجامعة معى لتقدر حسابه

بأرقام وفق هواها ، لكنه في ناظري لا يقل عن قيمة بل يمتاز برجولته
الناضجة وقلبه الكبير المليء بالرحمة الشاملة ونفسه البارة الأبية .
لطفت هذه السوانح مشاعري فتنبه قلبي ونسيت كبريائي آه . .
معذرة . لقد تذكرت . . . أشكرك بالنيابة عن رفيقي

قال : آيس من أجل هذا جئت — وهنا لا يطيب الحديث . .
تعالى معي في الزورق ، لنتنسم العبير ، ونستمع الى الخريف ، ونشدد
كالطير في حى الطهر الوفير .

راودنى الخوف من جديد فأحجمت ، فحملق في ثم قال :
سأحميك حتى من أنفاسي إذا رفت عليك . فلزمت الصمت أفسكر في
حيرة وقلق وعاد يقول : أيا جلك شك في شرفي ورجولتي ، فأنفرت
دمعة من عيني ولم أتكلم . . . كنت في أشد حالات الهلع . . . أريد
ولا أريد . أريد أن أذهب معه إذ بي حنين دفين اليه . وأخاف أن
يستغل استسلامي ، كما يفعل النسر بالحمامة الوديدة . وطال الصمت
وهو يتأملني في سكون ثم قال : في صمتك معنى للتردد والحيرة .
ثم حملني بين يديه ووضعني في الزورق ، واتجه به على سطح
الموج بحمله أنى شاء . فها لنى تصرفه وصرخت :
وحش جرى . . .

فضحك طويلا ورجع قولى - وحش جرىء ... القاب أفاخر
يا واتمسك باهدابها .

واندفعت أقول بلهجة جنونية ، ان لم تذهب بى الى الشاطئ ،
استغثت ورميت نفسى فى النيل فعاد يضحك قائلا . افعلى ماشئت . .
فانا قادر على حمايتك من نفسك ومن القدر اذا عاداك .

كان لارادته الحديدية تأثير قوى فعال على . . فشعرت بالضعف
يدفعنى الى الاستسلام ، وانتابتنى شبه غيبوبة ردتنى لأجمل الأحلام
وهذه أسلمتنى الى مدامع الأشجان . ولا أعرف كم من الوقت مر على
ولكننى سمعت صوته يجتاز جنبات نرسى ويستقر على مسرح
روحي النورانى قائلا . تكلمى .

فاعطيته ظهري لأنأمل الموج وهو يطغى على حافة الزورق كأنه
يطبع على جوانبه قبالات اللهفة المستعرة . فعاد يقول : لى-كن صمتك
على أى صورة . . وليواجهنى ظهرك فان معنالك يظهر من كل جهة فيك
فاعتدلت ونظرت اليه فى غضب متكلفة الأشمئزاز منه . فقال -
سيان عندي ابتسمت أم تجهمت . . حقيقة قلبك لا تتغير . ثم لزم
الصمت ليتأملنى ، فملت برأسى بعيدا عنه وبدأت أتأمل عاطفته عن
كثب . أرانى أميل اليه ميلا لاشك فيه ، فما الذى حول عاطفتى
من الحقد والنفور الى الحب والاستسلام . ودرست مواقفه بعقلي

وقلبي محاولة أن أحلل كل دافع، وأبحث كل تصرف حتى اهتديت أخيراً
إلى القوة الفعالة التي جذبتني قد تكون إنسانيته التي جعلت منه قلباً
كبيراً ووحشاً كاسراً .. وحشية ورحمة .. اجتمعتا فيكونا وصار عاني ،
فصدعت واستسلمت . في هذه اللحظة تبدل الوجود أمام ناظري ،
وتأكدت أنني أحبه وعاد يقول : اتذكرين الطفل — وكأنه مر
بموضع حاد على قلبي فاحسست برعشة الحمى ، وما هي بحمي . ولكنها
الغيرة . . . عاودتني عندما ذكر الطفل فتذكرت المرأة وما أصابني
أمامها . . . فخبا ضوء الحب الملتصع واختفى وراء نفسي التي تجهمت
فقلت بصوت مختنق :

اجل اذكر الطفل . . . واذكر . . . وخجلت من ضعفني
فصمت وتركت الدموع تنهمر في سكون بحرارة .

فابتسم وقال : لا تحملي نفسك عبء الجود
فقلت على مضض : دع السفين ترسرن على الشاطئ ، بدأت أشعر
بتعب وأريد أن أستريح .

قال : لقد ذكرتني .

فخانتني قواي ونسيت تحفظي وقلت : بالمرأة .
قال : أي امرأة .

قلت: أو نسيت هندا .

فنظر الى طويلا واغتصب بسمة مريرة ثم قال : دائما المرأة
فى طريق الرجل ، والرجل فى طريق المرأة . انما . . . أى امرأة
تستوقف الرجل وأى رجل يستوقف المرأة . . . واحدة ، وواحد
فقط — افهمت — من أجل هذه الواحده يجتاز الوهاد والجبال
والصحارى والفيافي والبحار . يقابل الوحوش وبها جم اللصوص ..
ومن أجل ذاك الواحد . تقنع المرأة بالفقر تاركة وراء ظهرها
المنعة والثراء ، راضية بالحياة فى كوخ حقير ، معتزة بحبها فخورة
بحرمانها .

وكم أن كلماته مرهما ازاح الخوف عن صدرى فذهب عني
الاضطراب والتردد وخيل الى اننى مع إنسان عاشرته والفته طويلا
لا كلفة بينى وبينه

فقلت بصوت لا تشوبه الكلفة :

مهما سمونا بانفسنا فاننا عبيد المطامع .
فقاطعنى . انما هناك قارق بين مطامع الماديين والروحانيين ،
أتشبهين الرجل الذى يحب المرأة ابتغاء مالهأ برجل يحب امرأة للحب ،
غير مبال بالتقاليد والأوضاع التى تفرق بينهما - الأول يصطنع
الحب ليعيش بالمال ، والثانى يبذل الحب ليعيش به . تصورى فتاة

لعوب تتزوج من شيخ ترى لتشتري بماله ما تشاء لأنه يسايرها كما
تروم وتشتهى . وحبيدة حسناء زكية مهذبة ، تضجى جمالها وشبابها
فى سبيل رجل لا يمتاز بشيء إلا حبها .

قالت : ولم لا تقول . . . هذا حظه وذاك حظها ولا حيلة لهما
على رد القضاء .

قال : يا فتاتى . . نحن الذين نخلق القضاء ، الله يعلم به قبل
أن نخلقه — أن الله الذى نطن قضاء حكمه المبرم . لا يوجه الإنسان
إلى الفساد أبدا ، أنه لا يحتم على الرجل أن يغدر المرأة ، ولا يدفع
المرأة لخيانة الرجل . فنظرت إليه تائهة فى بيداء فلسفته مؤمنة بكل
ما قاله ، ولحت وهجا يلتصع على صفحة الماء . . . قلت : انظر الى جمال
الطبيعة كيف تشبهه ؟ ولقد قلت له ذلك لأعرف مدى تأثير
الطبيعة عليه ، فالمس مبلغ حساسيته .

قال بصوت بمازجه رقة الأحساس المرهف — ما عساي أقول
لك ، هل احديثك عن الجبل الراسخ كحي امام الصخور الجاثمة
فى قلب الماء كنخا طرى المائلة فى فؤادى ، ام الشروق الذى اراه مجسما
فى ناظريك ام الهدوء الذى يصطبغ بعطر روحك .

وانتفض واقفا وهو يقول - آه - لو استطعت أن احمل معبودتى
على ذراعى وانطلق بها لنعيش بعيدا عن اباطيل الحياة فنقع ببساطة

الحياة الصافية في كنف الطهر الجميل مرتكزين على صفحة الأفق .
 ثم زبط الزورق بالصخر مردفا — هيا نستريح على الصخر مليا .
 تأمل الشمس وهى تعانق الموج فيحمر حياء ، ويتحرك توثبا وقد
 اكتسب وهج الحريق . اعجبتني طبعته اكثر من اعجابي بتشبيهه وكانت
 الطيور ترفرف علينا هابطة من الفضاء تتناغى بلغة السماء — قلت
 وانا اشير الى الطيور — اتفهم؟؟...

قال — وان شئت اسمعتك نجواها —

قلت — ما احب لغاها ، انها شعري .

فاطرق مليا ثم اخرج من وراء (حزامه) شبه ناي وراح يناغيه بانفاسه
 فسمعت اعذب الألحان . ثم غنى :

قبل	السنى	يا قلبى	قبلة الحب	يا قلبى
اسكب	اللحن	يا قلبى	من	ينايع
				الدموع

* * *

غردى	يا منى	قلبي	اسعدى	بالهوى	قلبي
واضئى	دجى	قلبي	اجلسى	بين	الضلوع

* * *

خذ فؤادى ما اشتهيت نلت قلبي ما رجوت
لك قلبي ما طلبت من افانين السطوع

* * *

ودع يا قلبي ذكريات العذاب
نلت يا قلبي امانيك العذاب
حطم يا قلبي تهـاويل الجموع
راحت الآلام يا قلبي حانت الآمال يا قلبي
ودع الأشجان يا قلبي إملأ الكون بنور الشموع

قلت — هـ — اقبل السنى ؟

قال — سناك

قلت — لو انك بدأته .

اشرح الحب يا قلبي واسكب الدمع يا قلبي
نور الهوى يا قلبي شاع من فيض الدموع
لاحسنت

قال بصوت الداهل

ولو قلته حرمت .. ذاك !! ...

هنا تركته في مكانه ورحلت اتنقل من صخر إلى صخر في مرج
طليق وقد خلعت حذائي وداعبت الماء بأقدامى. وهو واقف صامت
يتأملنى في هدوء ، وقد رسم البشر على وجهه ظلالا من النور ،
ولا انكر انى بعدت عنه لأنى احسست باتجاه عواطفى نحوه ، ولو
أنه حملنى بين ذراعيه فى هذه اللحظة ، ونزل بى إلى قاع البحر لما
ترددت مطلقا ولهان على الموت . وظننت ان فى البعد عنه قوة تعيننى
على صده إلى النهاية . لكن حرارة حبه كانت اشد مما ظننت ، فبلغتنى
من بعيد وحولت ماديتى الهادئة الى شفافية ملتهبة وشعرت أن قلبى
بدأ يتفتح ويتأهب لاستقبال ضوء جديد ، فخفت أن يداهمنى الحب
فى قسوة تدفعنى الى الخضوع . ونادانى . . فجئته فقدم إلى طعاما
شهييا أظنه كان محتفظا به فى مكان خفى . ولما شبعت قلت له — مر
بى ايها الملاح إلى الشاطئ ، فلم يحجم وسار بالسفين دون تردد ،
وشملنا السكون وكأن روحينا نسجا حوالينا غلالة من النور ملائتنا
رهبة وزادتنا سحرا . . . ولما وقف بنا الزورق مد الى يده فى رفق
وسكون ليساعدنى على اجتياز الصخور . ومن فرط ما بى من ذهول
اخطأت قدماى موضعهما ولم أشعر إلا وأنا ممدودة على ثوبه المفروش
على الصخرة البعيدة عن الشاطئ . مبلة الشيا ، مرتجفة الاوصال
تلازمنى رعشة باردة . خجلت من نفسى فاعتذلت معتذرة شاكرة
له فضله فى ايجاز يشوبه الخجل والاضطراب والذهول

عجيب أن اقع في الماء ولا أشعر ، واستفيق ولا ادري ! . . .
 اهكذا الأحساس يملك الإنسان ؟ . . . حاولت جهدى أن افسر
 هذا الأحساس ، فصعب على !! كل ما ادركته ان لم اعد قادرة على
 تكيف حياتي كما اروم . فانا لا اريد أن اسير هذا الرجل ولا كمنى
 اشعر ان هناك قوة خفية تدفعني اليه في غير تهيّب . استطعت بعد
 لأي أن استعيد قواي ، وحاولت أن اجتاز ما تبقى من صخور
 لأبلغ الشاطئ ، فلم يدعني وحملني بين ذراعيه بعد أن جفف ملابسي
 على النار التي اشعلها ، وقد استطاع ان يجمع الوقود من ورق
 الأشجار والأغصان الجافة الملقاة على الصخور القريبة من حديقة
 غناء خصصتها البلدية لنزهة السكان . وهي اجمل ما رأيت من حدائق
 لاعتماد صانعها على الطبيعة وحدها في تنظيمها . حيثته واخذت طريقى الى
 الفندق حتى وصلته قبيل الغروب وصعدت الدرج بخطى متثاقلة
 كأننى احمل عبئا ثقيلا ، لا قدرة لى على حمله ، متأهبة للوم الرفيقات
 وعشهن ومضايقتهن ، فاجأتنى احداهن — ظننا الرمل ابتلعك ،
 وقالت الثانية — خيل اليك ان الصخر عانقك حتى فنييت في
 احضانه ، واردفت الثالثة — اوان الموج قبلك فأذابك وتابعت
 خبيثة — ولم لا تقان رجلا ، وقبل ان تتم حديثها — نظرت
 اليها نظرة سكنت بعدها وهربت من امامى ، ودخلت غرفتى وانا

أخرج ما أكون إلى الراحة . فظننت أن النوم سيضمني ثلاث ليال
سرياً من فرط ما بي من جهد وضئ . . وبعد أن ألتصت صاحبتى
كثيراً تاركت قليلاً من الغذاء . لم تكن بي حاجة إليه ولكنى
أكلت حتى امتلأ جوفى بشراة لم أعرفها من قبل .

يقولون إن الحب يولد القناعة فى المأكل . أما أنا فقد كنت
شرهة جداً ، ولو قدم إلى أكثر مما قدم إلى الرجل من هواكه
ولحوم وغنم ويقول لأكلته ، من غير أن أدع لغيرى لقمة . حتى
الأيام التى كانت تبدو أعلى كنت أنأملها بشراة . . . وأحس
أيضاً بهراة ، كأننى تحولت من قناعة المحدودة إلى شراة غير
محدودة . ولم أكء أخلو بنفسى فى غرقى حتى تصورت كل ما مر بي
بأله . كيف سارت الغريب ١٩ . . . وكيف أكلت معه ١٩ . . .
وكيف مت وحييت ١٩ . . . العجوبة من عجائب القدر أن أكون
أنا الحريصة على نفسى أشد الحرس المتكبرة فى تعقف ، الحذرة فى
تحصن ، استسلم إلى هذا الحد أخيراً ، وساورتنى الأوهام فتخيلت
مناوشة الأقدار وما يحتمل أن ينالنى من وراء هذه الأخطار ،
لحمدت الله على مرور اليوم دون أن ينالنى شر أو مكروه . وصح
عزى على الأراء مطلقاً . ونفر النوم منى بتأثير هواجسى وراحت
محاولاتى عبثاً فى سبيل الحصول عليه .

أخيراً اضطرت أن أقوم من فراشي وأتلهي بمنظر النيل الوديع
 من نافذتي — مستقبلة مع السكون الليل وهو يحطو في بطنه يعلم
 معه السكون والوحشة والأحلام المعطرة بأعذب الأمانى .
 وفجأة لمحت الرجل يتمشى في الطريق ، كأنه ينتظر انساها على
 مرعد معه ، ولا يتحول نظره عن نافذتي مع أنني لم أخبره عن اسم
 الفندق ولا مكانه فيه . ولما وقم نظره على رد طرفه وانسرع في
 مشيته حتى اختفى . هو الآخر يريد أن يراى ولا اراه كالاحساس
 الذي يراودنى تمسأما ، وعجيب أن يلازمى القلق طوال الليل ،
 واتحس قلبى فلا اجده بين جانحتي . . . وليس من الهين أن احب
 رجلا كهذا ، لا تجيز التقاليد الموضوعة صلته بى ، ولا تبيع
 الأهل معرفتى له . فكنت في عاقبة هذه الصلة . انها بريئة واعتدائى
 على شرف الرجل أكثر من اعتدائى على ارادتي . فقد خانتني
 ارادتي أكثر من مرة . خدعتني حينما اسلمتني للخضوع لمشيته
 فقضيت معه سحابة النهار . ولكن شرفه لم يخدعنى ابدا ، فقد
 حرص على عفتي وكرامتي كما يحرص الأخ على شرف اخته . وكنت
 احس بحرارة الحب تنير كما من احسانه فيخطفها بالكبت والارادة
 واجزم بأن قلبه اعظم من ذاته . ومثل هذا الرجل جدير بالحب
 والتضحية إتعا لتقاليد حكمها واللازمة أوضاعها . . . ولا بد
 أن احترم هذه واقدس تلك .

وعاودتنى النفرة فانتويت ان اهرب من طريقه الى الابد إنما
للخيال تأثيره الخفى الفعال، فقد أعاد إلى مسمعى حديثه بنغمة ممغطة
عن (رفيقي) وقال عقلى انه يتماكر تمننا فى الاغراء بي حينما قال انه تبغى
ليطمئن عليه، فهل يمكن هذا ... أبلغ به الطهر الى هذا الحد الملائكى -
أليس إنسانا له غرائزه . لا أحسبه إلا خادعا ، تعقبه ليقتله ،
ويغرر بي ليحقق مأربه ، كبر مقتنا فى ناظرى .

وتضامل الشعور المرهق الذى قربنى اليه وفى هذه اللحظة كنت
كالقائظ الذى لا يوجد امامه سبيل للحياة ومع ذلك يطمع فى الحياة .
يفكر فى الموت ويخاف الموت . وبعد عناء استطعت ان أحرر فكري
وأطلق بخيالى فى غير دنياه . وبدأت أتيا للحياة الجديدة التى
جئتها لاستوعب فنونها .

فى صبيحة اليوم التالى قمت مبكرة لأهرب من رفيقاتى وخرجت
أعدو ، منطلقة صوب الحديقة التى رأيتها فى الأمس بقرب الشاطئ .
وسارت بي قدماى فى طريقها الممتد حتى وجدتنى فى قلب الصحراء
المترامية الأبعاد ، ومع خلو الصحراء من المارة إلا بعض القاطنين
بها ، لم أخف ولم أتهيب ، وصح عزمى على السير حتى أكتشف
ما يمكننى اكتشافه . ولفت نظرى صخرة طويلة ممتدة ، أحيطت
بشبه صخور اثرية يجلس بقرها بعض الصبية الذين يبيعون تحف

الآثار الصغيرة التي يتهافت على شرائها الغرباء . وسألت صبييا عن تاريخها ، فأخبرني ان اسمها (المسلة الراقدة) وهى من روائع الفن القديم ، ولشد ما أدهشنى أن تظل راقدة من عهد الفراعنة إلى اليوم . تتطلب فنا لتنتصب وصاحب ذاك الفن يجب ألا يقل عن الفراعنة قوة ومضاء . فهل صعب على مصر مهد الحضارة وأم الفراعنة أن تخلق فردا يتم بناء أجداده . قد تكون رائعة برقتها ، لكنها تكون ارووع لو لعبت معاول الاحفاد بالجسم الذى وضعت هيكله الأجداد .

استرحت على المسلة أنأمل العظمة التليدة عن كشب . أستمع إلى الصبي الذى حدثنى ، وظل يحدثنى دون ملل بلمجته الاسوانية ، كأنها الحزن يوقع على وتر نحاسى . وسمعت وقع أقدام على السلم الخشبي الموجود بجانب المسلة ، فالتفت لأتبين صاحبه إذ خفت أن يكون لصا أو جريثا يحاول أن يداهنى ، فوجدت « الجمال » رددت طرفى كإتنى لا أعرفه . فلم يأبه وتقدم منى قائلا بلمجة صارمة ، كأنه صاحب حق على : من أباح لك الحضور هنا وحدك ؟ ! . . . إنك تخاطرين بحياتك فى جرأة رجل الأربعين الذى خلق كشافا يبتغى من وراء الكشف مأربا عتيدا . فاطرقت برأسى صامته بفكرة فى

مخرج من هذا المأزق. وأردف يخاطب الصبي — شكرا لك يا ولدي،
ومد إليه يده بقطعة فضية تناولها الصبي بفرح وراح يعدو وكأنه يخاف
أن يستردها منه .

ولما خلا المكان بنا ، نظر الى طويلا ثم قال — إني لا أخاف
عليك مغبة تجوالك ، ولكنني أخاف عليك من الذئاب . فانتهزت
الفرصة لأغيظه قائلة — إذن ابتعد عني .

فضحك متهكما قائلا في حث ، إن استطعت الخلاص من ظلك
فتخلصي مني . فدرت على عقبي ، وخطوت في هواده بشبه نفور
فلحق بي وقبض على يدي في عنف وقال بلهجة صارمة خالية من
الرفقة — لا تحاولي الفرار مني . فصرخت في وجهه — جرى ...
وحش . فضحك ضحكة مكتومة اهتزت معها مفاصله وانتمعت عيناه
ببريق غريب . ثم تنفّس الصعداء ونظر إلى السماء وسرح ببصره ثم
رده إلى فوجدني أجفف دمعة طفرت من عيني ، ولست أدري
أهي دمعة الرعب والفزع منه ، أم دمعة الحب المخبوق ؟؟ .

فاقترب مني وقال بصوت خفيض رقيق — لو أنصفت نفسك
أغمضت عينيك حتى لا يكشف سرك ، إنهما يبوحان بما وراء
صدرك . فأرخيت جفوني وتمتمت .. أعفريت من الجن أنت .. .

سأرحل عن بلاد انت فيها . . . فتمم قولى — سألحق بك على
جناح الأثير ... فانا كما ظننت جن آدمى — قلت — اعوذ بالله منك .

وقامت عاصفة هوجاء محملة بالرمل فأغصت عيني — فضحك
قائلا — أعرفت أن الله معى . فتابعت خطاى ، اقفر كالأرنب من
مكان إلى مكان دون كلام ، فسار خلفى صامتا وفجأه هدأت العاصفة
وتحسن الجو ، وسكنت الرمال راستطعت أن أسير كما يحلو لى .
وانقطع صوت أقدامه من ورائى ، فتلفت خلفى فلم أره ، تنفست
الصعداء وحمدت الله . ورحلت أبحث عن أقصر طريق يؤدي إلى
المدينة معزومة أن أسجن نفسى فى الفندق حتى تنتهى الأيام ،
وتراى لى عن بعد شبعا جائما بالترب من إنسان . فظننت معركة
قائمة بين غريبين . اتجهت نحوهما وما كدت أقترب منهما حتى وضع
لى الشبح . . . إنه الجمال . . . يمد يده بالطعام إلى فم الضير كأنه
طفل صغير . وقفت خلفه أنامله . رحمة كبرى عجيب . . . أن تستقر فى
قلب بشرى ! وجد الضير ين من التعب ويلتوى من فرط الجوع .
قعد به المرض عن مد يده ، فعجز عن السؤال إلا بكلمات خاطفة
يشوهها ضعف القلب . تركنى وهرول إليه دون أن يخبرنى مفضله
على . كان يحمل تحت ثيابه طعامه ، فآثره على نفسه وعلى ، وظل
بجانبه يطعمه ويسقيه ، حتى شبع الضير ، فصاحبه من اليد الأخرى

وسار به غير عابى، بى .

احترمت الرحمة، وقدست البر، وخشعت امام الحب الانسانى،

فتبعتهما فى صمت وخشوع .

ولما بلغنا المدينة سمعته يقول له — أين منزلك يا صاحبى فأجابه

أشكرك يا سيدى ، أعرف كيف أصله وحدى . قال — سأظل هنا

بعض أيام فإن احتجت إلى مال — تعال هنا فى الصبح —

سأنتظرك .. . وإذا لم تجدنى . . أعلم إننى غادرت البلدة . ثم أخرج

من وراء ثيابه ورقة وقلبا وكتب بعض كلمات وناولها للرجل

مردفا . . . كلف أى إنسان أن يكتب، إلى بهذا العنوان وسأبعث لك

ما تريد . وربت على كتفه برحمة وانصرف (بعد أن سلمه ورقة مالية)

تمنيت لو أرتقى بين ذراعيه أستغفره ليباركنى — إنه قديس

أى والله . . أى قلب يحمل ذاك الرجل . إنه لقلب نبى . لم أدعه

يتكلم بل مددت يمدى إليه قائمة — أحيى الرحمة المباركة فيك .

فابتسم على مضض وقال — هذا واجب الأغنياء نحو الفقراء . ثم

هز رأسه كأنه ندم على قوله واستطرد، أعنى واجب من يملك درهما

أزاء من لا يملكه . فخامرني الشك فيه ، إنما الشك الذى يرتفع به إلى

مصاف الملائكة المقربين ، وعدت من حيث أتيت ، فاستوقفنى

قائلا — إلى ابن ١٩ . . قلت — أستلهم الأرض اتى شهدت برك

وعطفك عن حقيقة أمرك، فتخلى عن طريقى وسار خلفى. وامتد بنا
المسير حتى بلغنا غابة من النخيل - فالتفت اليه قائلة - انظر إلى النخيل
كيف يحكى بظلاله أناشيد الحنان الرفيع . وعزى أن أهرز نخلة ليتساقط
البلح على الأرض ، فأجمع ما طاب منه ، وأقدمه له قائلة - منحت
السائل برك - فلا ضير إذا منحتك برى ، فضحك قائلاً - برى
للحياة ، وبرك للخلود . وعدت أهرز نخلة أخرى فلم تهتز فاشتد غيظى
ونظرت اليه حانقة متممة قائلة - جامدة . فابتسم قائلاً : اعرفت
ان الجود يغىظ ، فلم آبه لقوله وانتقلت إلى أخرى أهرزها فتساقط
الثمر - فرحت ومرحت ، وجمعت ما تساقط ووضعته بين يديه
قائلة - هذه كريمة .

فقال - كوني مثلها - ثم فسح لى مكانا بجانبه مردفا -
كونى جافة وكونى كريمة ، جافة مع الأفاكين ، كريمة مع الخالصين .
غمرنى النور كأن فوهة الغيب تفتحت عن عالم نورانى البسنى
غلالة من شفافية الضياء . فبدأت وجلست بجواره . فقال - تعبت
ايتها الطفلة . تحاولين أن تكونى قوية وفاتك أن القوة تعصف بكل
شئ وتستأثر بالمكابر . فأخجلنى ضعفى الذى تلمسته وعرفته ولزمت
الصمت ، فاستطرد - كل معنى فىك عرفت موضعه منك - عدا
ذلك السر الهائل الذى يسمونه أنوثة واسميه أنا - سر الله -

تناومت لكي لا أجهد نفسي في الرد عليه ، حيث غمرتني عاطفته
كما يغمر الطوفان الساحل . وأحسست بيده تتلمس الرمل الذي
أضطجعت عليه ، فخفت أن تنتقل يده من الرمل إلى . فاعتدلت
وابتعدت وأظنه فهم بفطرته ما دار بخلدی فابتسم قائلاً — ظبي
نافر . . . أريد أن أطمئن على الجسم البض الناعم — هل في الرمل
خشونة تؤذيهِ ؟ وحاولت أن أتكلم فارتعشت شفתי ، واختفت
الكلمات في فمي . قال — لو استسلمت إلى سميت على عبور المحيط ،
وقطعنا المرحلة في ملح البصر . فتكلفت التجهم لأعفيه من الاضطراب ،
إذ ايقنت اني مغمورة بعواطفه فهمست كأنني أخطب نفسي —
أريد أن أموت . وبدل ان يرد لي هدوئي — زادني ثورة بقوله —
ليكن — ستخلدين على أي حال .

فالمتني صراحته فقلت — كيف يتفق الموت مع الحياة .

قال — هذا بدء هذه وتلك بدء ذاك — حلقة لا تنتهي الا
يوم الحشر ثم طفرت دمة من عينيه أخجلته لأنه اغتصب بسمة
ليواريها مردفا . هه سخر كل مسميات الوجود . وانسرح بخياله
بعيدا ، فغاب عن نفسه وعني وهنا شعرت أنه جذبني إلى قلبه في عنف
غير لين ، ولكن في سحر محبب لطيف . وأشهد أنه استطاع في هذه
اللحظة ان يملأ فراغ قلبي ، بما يصعب على الرجال لو تضافروا

أن يملأوه في أعوام . فبكيت ، ودموعى عند ما تنهمر تعبر بصراحة
واضحة عن استسلامى وضعفى — ورددت جبار . . .
جبار . . .

فعاد من عالم شروده أكثر قوة وأجابنى — أقسم لك أنك
لا تحبين فى غير جبروتى
قلت — من ادراك ؟ . . .

قال — غريزتك تنشد نصفها المتمم ، فضعفك يستلزم القوة
لتحيين . . . قصورى رجلا ضعيفا مخنثا يخضع لأرادتك ويسير
كالأعمى حسب مشيئتك . اصدقينى — اتشعرين أنك فى حاجة
إليه . انه كنفسك فهل تنشدين نفسك . . . ؟ . . .

أحسست أن صراحتى تدعونى للتسليم برأيه . ولكن كبريائى يقيم
سدا منيعا بين رغبتى ورغبته . فتما كرت قائلة — ولكننى لا أحب
الرجل وحشا .

قال — بلهجة الزهو — وانا أفاخر بهذه الوحشية - إنها عدتى
ضد هجمات الأعداء
قلت — ولم تعادينى .

قال — تفورك هذا هو الذى أثار فى وحشتى ، وأقسم لك ..
لو لم المس إنسانيتك ، لكنت حطمتك حتى لا أدع فىك بقية

تشير اليك . وكأن الوحشية ملكته حقاً فاستطرد ، بصوت ينم عن
صدق أكيد . كنت أمزقك اربا وارب داعب دمك قطرة قطرة ، لأعرف
حقيقة السر الهائل الذى جذبني اليك . فنظرت اليه نظرة اسكتته
وحولته من الثورة إلى الهدوء الشامل . فصمت برهة ثم اردف —
يا طفلى . كل شيء افعليه عدا شيء واحد .

قلت — أى شيء .

قال — نظراتك .

قلت — إلى هذا الحد هى خيفة ؟...

قال — انها كالخمر تسكر وتميت

فضحكت وقلت — عند ما اراك مخمورا اضحك تحت رشاش

بغضى وكرهيتى لأننى اكره الخمر والميسر . وصاحبها يعيش على
هامش الحياة حيوانا بليدا ، لاخير فيه ولا فضل له على الحياة .

فقاطعتنى قائلاً — مغريات الحياة اخطر على من الخمر والميسر .

قلت — وهل للحياة مغريات غير هذا وذاك ...

قال — النساء .

ولم اشأ أن استرسل فى ذلك الحديث لى لا تفضحنى خواطرى
التي ازدحمت فى ذهنى . وسار امامى فبدا على غير ما ارجو لرجل

أن يسايرنى فى الطريق . فادر كت أن للظواهر تأثيرها على الإنسان
مهما ارتفع بتفكيره وعاطفته . ابتعدت عنه وتحاشيت القرب منه
مخاطبة نفسى ، قد يكون اقرب الى حقيقة الرجل الذى ارتجيه لو
خلع ثيابه التى لا يرتديها غير فقراء الأعراب ، عباءة قديمة تستر
ثوباً قديماً ، وحذاء لا يلائم الرجل العادى على الأقل . ثم نظرت اليه
من قمة رأسه إلى اخمص قدمه ، نظرة لمحها فتحتى بعيداً عنى على أثرها .
واغتصب بسمة ثم تقدم منى باحترام قائلاً : — بلمحة لا تشوبها
لهجة العبودية — انك تحتقريننى لهذا الزى . انما بعد حين ، سيتمخض
هذا الاحتقار عن يقين يأخذ مكانه فى قلبك ، فتسمينه انت ايماناً
واسميه أنا حياً .

ووضحت القوة الروحية ملتزمة فى عينيه ومرتسمة كالظلال على
شفتيه ، فتفهمت لكننى تعمدت أن أنلمى بمداعبة الرمل عساه يخفى
هو اجسى فعاد يقول - الميت يرجو منك الحياة . المحزون يطلب منك
الابتهاج ، الوحيد يناشدك الايناس - الجبار يريد أن يهدأ فى محرابك ،
الضال يرقب هدايتك . ثم سكت وترك انقاسه تتمم باقى خواطره .
فاسدلت جفونى على دموعى ، واطبقت شفتى على شجونى ، وتخيلت
الماضى والحاضر والمستقبل حتى لاح لى فى افق ذهنى ضوء بدد
ظلمات اوهامى وهدانى الى مصارحته فقلت — ايها السيد - انت

تحلم بلا مرأى ، وسحبت من يده نصاه ألوح بها فى الهواء . كأنها
عصا سحرية استمد منها جرأة تعيينى على الكلام . ثم أقمت من الرمل
جبالا فانهار فقلت مشيرة اليه — هكذا حللك وهما وخيالاً !! ..
فاتصب واقفا ودنا من النخلة وكسر غصنا منها ثم جزأه واقام
منه كوخا وظلله بالسعف وقال — ولم لا يكون مثل هذا ؟ ..
قلت — ولكنك بالعنف أقمته !!

فنظر الى نظرة لا أحسبها إلا نورا من شعاع روحه النورانى
وقال — ظاهره العنف وباطنه الحب والولاء . لم يكن فى وسعى
مطلقا ان احاوره إذ حيرتى كانت أشد من رغبتى .
قلت — غنى — أشعر بضيق يكاد يخنقنى — عسى النعم

يروح غنى .

فاخرج النأى وبدأ يتنفس فيه فيجاوبه بأعذب الانغام ، كأنه
يقضى بأنفاسه ، وأنا أغنى بدموعى . حتى أحسست ان الغيب طوانى
فحركت يدى وساقى لأتأكد من وجودى ثم قلت .. هلم بنا -

وتمشى بى فى طريق جديد انتهى بنا على شاطئ النيل - فلاح
لى الزوارق وهى تطفو على سطح الماء كأنها الطيور الرفيفة . فلما لمح
تعلق نظرى بها قال تعالى نذهب إلى قصر أنس الوجود ، إنه من

آثار الخلود . ولم ينتظر راي واسرع فاستأجر الزورق ، تبعته في صمت وجلست قبالة في الزورق محاولة الا انظر اليه لكي لا افقد شعوري ، فقد كان مجرد التطلع الى بريق عينيه يحملني على جناحين من نور إلى ما وراء السماء . ورحلت اتلهمي عنه بهدابة المياه حتى تمشي صفاؤها في نفسي . وانشغل هو ايضا بخياله وتجلي الشرود على وجهه فنبهته برشاش الماء فابتسم في طلاقة قائلا — آه لو ظل عقلك ابدا غافيا . . . يا سناء . فقاطعته قائلة — ما أحلى العناء !!

قال — اذن غنني

قلت — نعمك اطرب — استحلفك بالله .

قال — لتكن مشيئتك . . ونظر الى طويلا في حنان كأنه يستلهمني ثم غنى مشركا الناي معه .

يا غرامى اين نمضى اين نمضى يا غرام

يا غرامى قد بلينا قد بلينا بالهيام

يا مياه رجعى

يا كواكب اسمعى

لحن الغرام المسعد

اخت السنن بادليني يا فؤادى اسعديني

بالاغاني سامريني فاض حبي اسعفيني

يا طيور رفر في

يا زهور هفهفي

فاح حي الخالد

ويحه لقد ملكني — يا لسخرية القدر — يواتيني الحب رغم

الحذر . ويربطني برجل عابر سبيل — فيا له من حب خطر .

وقف بنا الزورق على حافة الصخور المحوطة بالقصر - فلم ادعه

في هذه المرة يحملني أو يساعدي وعدوت وحدي في سرعة وخفة .

ثم دلفنا معا إلى داخل القصر فتركته وسرت وحدي متنقلة من

غرفة إلى غرفة ومن ردهة إلى ردهة . ثم صعدت الدرج الخلفي فاذا بي

ادخل من باب لأخرج من باب ولا اهتدي إلى مخرج ، وبعد أن يتست

التقيت به في معبد تقديم القرابين إلى الآلهة . فتهال وجهه وقال

جميل أن القاك هنا —

قلت — ولم حدثت . هنا ؟؟ ..

قال — لأقدم لآلهتي قرباني .

قلت — ايها العبد كفرت .

فلم يحفل واستطرد : لم أكن أعرف الله كما أعرفه الآن . لقد
 كشفت لي عن باعث إيماني ، كنت أحب الله ، إنما في جميع
 مخلوقاته ، أما اليوم فأحبه فيك — أعني أحب فيك أنت — الحياة
 بمعانيها الزاخرة الفياضة . فأعرضت عنه ، فحال بيني وبين الخروج
 قائلاً — هنا كان القدماء يقدمون قرابين عبوديتهم إلى الآلهة .
 فلم لا تكونين أنت قبلة إخلاصى وخضوعى . ألسنت بشرية صاغك
 الله ومنح قلبك سناه — قلت متكلفة الغضب — هل جئنا
 لندرس تاريخ هذه الآثار أم جئنا للغزل السخيف . فابتلع ريقه
 كأن كلامى وقف غصة فى حلقه ثم تنفس وتمتم — معك الحق ،
 جئنا للدراسة — تعالى — وقادنى إلى الغرف شارحاً لى تاريخ
 القصر . وأجمل ما فيه — الصناعة الباهرة التى تدل على قوة
 العقل الإنسانى منذ الأزل . فأدهشتنى معرفته تاريخ الآثار كأحد
 علماء التاريخ على أنى شغلت بالتطلع إلى الرسوم .
 الصور البارزة على جدر القصر ، تبدو كأن يد الصناعة تركتها
 منذ لحظة ، والرسوم والهياكل يعانقها الماء الزاخر طوال الشتاء
 من كل عام ، وهى محتفظة بروعتها ومئاتها — لو كان حديداً
 لأبلاه الزمن . فأى صناعة هذه ؟ ! يفنى الزمن وهى خالدة .
 انتهينا وعدنا إلى القارب وقد لاحظت أن الألم الأكيد لازم
 نفسه . فصعب على ، ولكنى لم أشأ أن أكتشف له عن رحمتى .

إذ لا بد من وضع حد لهذه الصلة ، ما دام هناك حاجز يحول بيننا
وهل يمكن أن أكون غير فتاة خاضعة للتقاليد والبيئة والأوضاع .
ولما استقربنا المقام في الزورق قال بصوت خفيض — هل أرجوك
قلت متصنعة الجفاء — ليس ثمة ما يدعو للرجاء

قال — أنت مؤمنة فآمنى بي .

فضحكك متهمكة قائلة — أتريد أن تكون نياً — انتهت النبوة
بخاتم الأنبياء محمد ﷺ . أم تراك عيسى جئت من وراء السماء ...
إذن اكشف لي الستر عن نفسك ، لأقيم صلاتي في حضرة النبي الكريم

قال — يا سناء — افرقي بين الجذ والهزل

فقاطعته — لا أعرف حدود هذا ولا ذاك . قد يكون في قلب
الجد عزل وفي باطن الهزل جد . اسمع — لا يمكن أن نتفق ...
أبدأ ... أبدأ ...

قال في جد ورزاة : — لقد اتفقنا وانتهينا ، ولست أسعى
لتحقيق هذا الاتفاق . إنما أريد أن أحررك من قيود العقل . كوني
عارية النفس ليتسنى لك تفهم الحقيقة .

فشهقت — ماذا تعني

قال : — أغنى . جردى نفسك من كل قيود المادة ومغريات
الاضاليل . إرفعى عنك غلالة التقاليد اللامشروعة حكمى قلبك قبل
أن نحكمى عقلك . إذ الأول أودعه الله طهر السموات العلا ،
فأنت به إنسانه بمنحة . والثانى أضلته المطامع فربطك بالأرض
كحيوان ذلول . كان يتكلم بصوت يحفه الجذ والوقار ، فأكسبني
أنا الأخرى جده ووقاره .



لفصل الخامس

إزداد قريباً من نفسى لا كتشافى تهسيته ، ولكنى لم أستطع
تكييف عواطفى وتحديد ها ، ولقد دفعتنى فلسفته إلى مصارحته دون
خجل أو تردد . فسألته ونحن نتمشى جنباً إلى جنب فى الصحراء
عائدين إلى المدينة وقد أوحى إلى الشمس وهى تودع الكون
متوارية خلف الغيب شبه إحساس عميق يقرب من التصوف —
هب أنك أحبت فتاة ، حباً مشبوباً أتظل تعشقها بعد أن تملكها ؟؟ ..
قال بحدة : بكل تأكيد .

قلت — ولكنهم يقولون ، إن الحب يموت متى تحققت الأمنية
والحرمان هو الذى يشعل جذوته .

قال — كذبوا ... ذلك حب الشهوة — أما الحب الروحى
فهو خالد ما دام نور الله فى الحياة

قلت : وهل يمكن أن يتجرد الإنسان من شهوته ؟؟ ..

قال — لا تموت . ولكنها تكون أشبه بغذاء عادى ، يمكن
استغناء الجسم عنه بميول أخرى — وإذا عرفت ذلك أيقنت أن
الروح كلما سمت ضعفت شهوة البدن — فأنا مثلاً اشعر بلذة
لوحرمت من كل لذائذ الدنيا وبقيت هى وحدها فى قلبى لا كتفيت قانعا

بهذه اللذة -- هي أن أسمعك أو أراك مجردة من شوائب الحياة
ومزايا لاسمك ومعنى لذاك السننى الوضاء.

قلت -- لقد خلعت على هذا الاسم كرمأ -- فأين أنا من السننى
قال : جردى الحياة من الضوء -- لا يمكن الحياة فيها
وأنت سننى حياى

إن السننى العلوى ، ضياء الحياة ، وأنت سننى قلبى .
قلت -- مادمت تفهم ذلك -- دعنى أسألك كيف تفهم الحب ؟؟

فانحنى على الأرض ومر بيده على الرمل يغربله بأطراف أصابعه
ثم بسطه وامرنى بالجلوس لأستعيد قواى ، فأطعته دون تردد
وجلست ، وبقينا كنت متعبة فى حاجة إلى الراحة ، وخيل إلى انه
فنى فى "لأنتى احسست بجسم غريب كالطائر الوديع يحوم فى صدرى ،
فلمت برأسى على صدرى كأننى استوضحه الخبر على انه لم يتركنى
هكذا طويلا إذ قال -- اجيب على سؤالك بقولى -- إذا استطعت
ان تفسرى لى كيف تفهمين الله ، استطعت بدورى ان افسر لك
كيف افهم الحب فراقنى قوله ، بل اطربنى كأنه نغمة موسيقية ،
فلم استطع إخفاء سرورى وقلت -- قهرتنى

قال -- اعرف ذلك منذ أول ليلة رأيتك فيها تحاولين الفرار
منى .. إذ الخوف قد يخفى الحب أحيانا

قلت — لا اظن !! .. — لقد خدعت — ولن تقهرنى ابدا ،
وكنت صادقة فى قولى وعزمى ، إذ من المحال ان استسلم له
فعاد يقول — يحتمل أن تخدعيني إذا خدعتك . ولكنتى
أحبك والحب والخداع لا يجتمعان . والتفت الى بكليته مردفا .
إسمعى إن تاريخى معك قصة خالدة على الزمن . لقد احببتك قبل أن
أراك . ولما وجدتك كنت كمن جاء برسالة يدعو الى الأيمان بها
وهو أشد الناس تعلقا بها وتفهما لها .

قلت بدهشة : يا عجبا وكيف احببتنى قبل أن ترانى .
قال — جسمك الخيال أمام ناظرى ، واستودعك الالهام قلبى
فلما رأيتك على غير ارتقاب أيقنت انك أنت بغيتى وامنىتى .
فقاطعته — إذن حبك وهم خاطىء ؟؟ .
فاجابنى — وما دليلك ! .

قلت — امن غير أن تحكم عقلك تحب ؟

فغرس عصاه فى الزمل وضحك طويلا ثم استرد انقاسه ، وقال
بصوت الفيلسوف الحكيم — العقل يبحث عن المسببات والعلل
ليقرر النتائج ، وقد يخطىء أو يصيب حسب مقتضيات الحال .
وليس من شأنه أن يبحث وراء الانهاية — لأنه خلق ليسيطر

على الماديات فحسب . ولا قدرة له على تعرف حقيقة الروح
إذ التجانس لا بد أن يكون من مادتين متشابهتين ولا يغرنك
ما يطالعك به الفلاسفة من إبحاث ودراسات . يظنون العقل
خالقها ومكتشفها . . . ابدا . . . الحس هو الذى ادركها ، وعمل
العقل هنا تسجيل ما حدث بما يسمونه المنطق . اما الروح ذاك
الجوهر الأسى الخالد على مر الدهور هى الرسالة الالهية للحب
تحس وترى ما وراء السدم لأنها شفاقة إنمى تحتاج لتركيز
شفافيتها لكى تخلد . ولا يمكن أن تتركز الا بالآيمان المطلق . وذاك
الآيمان هو الذى يسمونه « بالحب » .

ونظر الى برفق مردفا — إذا عرفت ذلك يا فيلسوفتى الصغيرة .
استطعت أن تحطى اصفاد العقل المادى لتنغمسى فى نور الروح
السنى . والآن ايصعب عليك تركيز حبي ؟
قلت — ليس هناك ما يدعو لتركيزه .
فابتسم متهكما قائلا — وهل الغاية هى التى تخلق الحب ؟؟
قلت — أجل

قال — إذن باطل هذا الحب .
فهزئت كتفى كأن ذلك لا يعينى ، وداعبت الرمل باطراف
اناملى فى صمت فعاد يقول . ان نفسك الصافية لا قدر على معرفة
الحقيقة دون تفسير .

قلت - أن الضباب يوارى البدر أحياناً .

قال - ليزيد الكون فتنة وجمالاً .

* * *

بدأ الليل يرخى سدوله باعثاً من لدنه أغنيات الصمت الرهيب .
فخفت أن ينالني من ورائه مكروه ، فسرت على عجل ولاكنه تمهلني
قائلاً - لا تخافى انك فى حماية رجل .

قلت - قد يقابلنا أقوى منك .

قال - لم يخلق الله من هو أقوى منى بعد .

فابتسمت متهمكة وتمتمت - مغرور -

فاجابنى على الفوز - أن حبك بعث فى كيانى وروحى قوى العالمين .
وعن لى أن اغيظه فقلت - قل لى كم مرة قلت هذا القول .

فقطب جبينه وتنهد قائلاً - لم أقله الا مرة واحدة - الآن فقط .
فنظرت اليه متخابثة وقلت - من السخف أن أسألك وأنا

اعرف الجواب .

ما أغبانى - وهل يمكن أن تقول غير انك لا تحب سواى ، ولم
تقل لامرأة انك تهواها عداى .

وهنا تفتحت بصيرتى على ما غاب عني فايقنت اننى هالكة .

صحراء مقفّرة موحشة ليل حالك - رجل جرى له قوة وجبروت .
أهنت كرامته، وهتكيت رجولته - فلا بد أن ينتقم لنفسه وهنا رفعت
بصرى إلى السماء متكلمة بغير صوت - انقذنى يا رب . ومد الرجل يده
بورقة ناولها إياى فى سكون . . . تأملتها فاذا بها رسالة من خطيبى
سقطت من حقيبتي عندما فتحتها لآخذ منها منديلى بسرعة واضطراب
واظنه كان يتربّ أن أحدثه بشأن الورقة ، فلما لزمت الصمت
قال ألك هذه الورقة ؟ . .

قلت - اجل من خطيبى .

فريع وقال - خطيبك ؟ لا اظن !

قلت - أنتى مخطوبة .

قال - هذا لا يمكن !

قلت - وإذا أمكن .

قال - لن يكون ما دمت حيا .

قلت - أنت تخاطر بحياتك إذ تضع نفسك فى طريق فتاة مثلى .

فزفر زفرة حارة وقال - هذا - لا بأس .

قلت متهمكة - لا تدع عقلك يفلت منك على ضوء خيال خادع

فهز رأسه وقال : حدثينى عن خطيبك .

فتمعنت فى اغاظته وقلت آه ذكرتنى .. لشد ما أحبه ويحبنى -

وهو رجل ناضج مثقف نابِه حساس .

قال — فقط .

قلت — وماذا تريد أيضا .

قال بحماسة — أهو مؤمن ؟

قلت : — هذا طبيعي .

قال : — كان يجب أن تبادرى بذكر الإيمان، لأعرف أن الصق
خواصه ثابتة كالعقيدة ظاهرة كالإيمان في قلبك

« * * »

لا أعرف كيف انتقلت بشعورى من الخوف إلى الأطمئنان .
ومن الخبث إلى البراءة . حتى أننى صارحته عن تاريخ خطبتى . ولم
أحجم عن ذكر ما حدث بينى وبين الخطيب . كأنه ساحر استدرجنى .
وأخيراً قلت — حدثنى عن مغامراتك الغرامية . واقسم أننى
سألته، وأنا خالية الذهن من كل شيء ، مليئة النفس بحسن النية ، ولكى
أهيب به إلى الكلام لأنه يميل إلى الصمت دائماً . فأقسم أنه
لم يحب أبدا .

قلت فى دهشة : مطلقاً ؟؟ . . .

فعاد يؤكده : — أقسم لك .

قلت : — ألم تسامر أى فتاة ؟

قال : — كنت أبدد وحشة وحدتى بمجالسة بعض الغانيات فى
ملهى أو مرقص ، فاذا مللت الجماعة اتممت سهرتى مع أوفرهن
جمالا وأكثرهن استهتارا .

قلت — الا يتطلب منك ذلك كياسة ورقة ومجاملة ، وصياغة
حلية براقعة من جواهر الحب

قال : — الحب الكاذب .

قلت : — آه - وهاتظن انك تصدق فى الحب مادمت ألفت صناعته .
ففضض وثار قائلًا - اسحبى كلمتك .

فظللت هادئة وقلت - لا اسحبها بل اعقب عليها . الرجل الذى
يكذب على نفسه ، لا يطرق الصدق بابه ابدا . وانصرفت عنه بعد ان
صارحته . لك دينك ولى دين . وهنا ابتسم الأعرابى ابتسامة الرضا
وقال - اعفينا خطيبك من هذا المرض . . . اتحبينه ؟ . .

فلم احر جوابا - لأنى اميل دائما الى احترام الحقيقة .

قال : — هل افهم من ذلك انك لم تحبى انسانا .

قلت — بل احببت أكثر من مرة ، وكل مرة كنت أرى الحب

سرابا . وحب الرجل خدعة ورياء .

قال بلهجة الواثق المطمئن . كأنك لم تحبى !! . . .

قلت — بل احببت ... وانهمرت دموعى فاجهشت بالبكاء .

قال — يا سنى - ايها الضوء المتألق فى سماء حياتى ، قولها
كلمة واحدة تخرج من فمك طاهرة فتزدنى الى جنة الخلد - وهاتى
دموعك ، اغتسل بها فتطهرنى من كل رجس اصابنى ، طهرنى
بدموعك ، واحرقينى بحبك ، وارفعينى على جناحيك الى عالمك
النورانى لأعيش فى دنيا السنى كما يحلو لى ويطيب .

تأججت العاطفة فى قلبى ، ولم احتمل لهيها فابعدته عنى فى قسوة
وصدده فى عنف وصرخت فى وجهه . تخلى عنى ... اتركنى . .
ابتعد ... انك تتضافر مع الحب على - وأنا لا اريد كما .

وسكت على صوت غريب يتكلم (مخاطبا الأعرابى) - ماذا تفعل
بالسيدة يا رجل ؟ قال ذلك بلمحة نوية إغربية غامضة لم اتبين
الا واخر كلماتها ، وهو رجل اسود اللون طويل القامة لف على
جسمه قماشا سميكاً ولم يكشف غير نصف صدره وذراعيه — شعره
الخشن الغزير المشعث ، يصوره كأنه من قبائل الزنوج المتوحشة .
ولحت بعض ذرات من الدهن متاثرة على شعر رأسه ، كأن رأسه
شجرة س—وداء تدلت غصونها وظهرت براعم الزهر الأبيض
على أطرافها ، وغرس بشعره شبه ابرة عاجية . علت فيما بعد أنه

يدلك بها رأسه من حين إلى حين لتساعد على إفراز العرق . وقد وضع
في طرف أذنه حلقة من النحاس أو الفضة لست أدري . وكان
هذا المنظر وحده كافيا لانتقاع انقاسي . فتسيت وجودي من فرط
خوفي ، ولم اتنبه الا على صوت الأعرابي وهو يقول له - سر في
طريقك يا اخي . فنظر اليه البشاري في قسوة قائلا - سأقوم بحراسة
السيدة .

فقال الأعرابي - انا منوط بحراستها .

فهمز البشاري رأسه وتلكأ وخاطبني - ماذا تأمرين ياسيديتي .
فوجدت الفرصة سانحة للفرار من الأعرابي وقطع صلتى به .
فقلت دون تردد - إذا كان في مقدورك أن تصحبني إلى فندق
(ما جستيك) أكون شاكرة لك .

قال : - بكل سرور .

كنت اقيد ذهني به خلال كلامه مستعينة بلمحاته وحركاته
لأن لهجته غامضة تحتاج للتفسير . وبدأت اخطو في اتران محاولة
أن أخفي ما انتابني من هواجس مخيفة . وقد سار بجانب البشاري .
لكن الأعرابي حال بينه وبينى قائلا - تنحى عنها يا رجل - انها تاهو .
فصرخ البشاري في وجهه ملوحا بعصاه في الهواء قائلا - ابتعد عنها
والا

فاندفعت الحمية في صدر الأعرابي وسخر به : — أجنون أنت ؟؟
فلم يأبه البشاري وظل يرافقي ، فاجأ الأعرابي الى قائللا - مريه أن
ينصرف انه يظن دعايتك جدا .

قلت — أنا جاده - وهمست بصوت خفيض - لقد انتهت رحلتي
معك اشكرك .

قال — يا سناء . . . هؤلاء لا يفرقون بين الجد والهزل .
قلت — أعرف ذلك وأنا اعنى ما أقول .

فاحمر وجهه ، وارتعشت شفتاه مخاطبا البشاري بلمحة تنم عما يعاينيه
من صبر واحتمال - شكرا لك على محاولتك الطيبة ايها السيد . وأعرض
عنه ثم مد يده الى كانه يقول - تعالى نواصل : المسير ليذهب في طريقه .
فامتنعت ولم آبه للرغبة الملحة التي تتفزز لها ملامحه . وظن البشاري
أنه يخدر اعصابه ليتخلص منه بلباقة ليخلو له الجو بي .

فتمتم بلغته البربرية التي صعب على تفهمها ، ثم افصح عما دار
بخلده قائللا - لست بتارك الفتاة لك حتى اموت ، نخير لك أن تتخلي
عنها وسوف ارعاها حتى تصل الى منزلها آمنة . فجن الأعرابي وخرج
عن وعيه قائللا - اظننتني اتواضع لك مرضاة لأمل ابتغيه ايها العبد .
ثم جذبني في عنف ، وقبل أن يتحرك ، هاجمه البشاري وضربه

بعضاه ، فارتميت على الأرض من هول الفزع ، وتبدل صبرا لأعرابي
إلى جنون صارخ ، فاشتبك مع البشارى فى عراقك عنيف انتهى
بضربة على رأس البشارى طرحته على الأرض بغير صوت
ولا حراك .

وانتهت الثورة بالسكون الرهيب ، وانحنى الأعرابي على جسمه يتحسس
محاوفا أن يوقظه بشتى الطرق ، ولكن عبثا ، فقد البشارى الحياة .
تلاشت القسوة الطاغية ، ونحطمت الوحشية الفظيعة ، وسيطرت عليه
الرحمة الكبرى - فدمعت عيناه قائلا - ويحى قتله .

الغرائز البشرية كلها قد تجسمت فى هذين الرجلين . الرغبة
أثارت جنون الأعرابي ، وتحول بتأثيرها من الطبيعة المحتملة إلى
الثورة الجأحة . والذود عن النفس دفع البشارى إلى حتفه .
حربة تقاتل العبودية وكرامة تحارب الجشع . وبعد الثورة ظهرت
الرأفة - وبعد القتل وضع الحنان - فيا للإنسان من عقله ، كما هو
خير له شر عليه .

هالنى الأمر فتلاشت قواى وأحسست ببرودة العدم تسرى فى
شرايينى . الدم يسيل من أنف الميت يبدو كبصيص من وهج الحريق
يهدد ويتوعد . والحى القاتل إقترب من الميت المقتول ، يصلى فى

خشوع وسكون . يجمع بين الشهادة والاستغفار ، وهل تشفع له
الشهادة ، ويدافع عنه الاستغفار . أمام القانون ؟ . أليس الرجل
الذى يقاتل فى سبيل الدفاع عن حريته الشخصية كالرجل الذى يقاتل
فى سبيل حرية غيره . الحرية لا تتغير ولا تتبدل انما الافراد والشعوب
هى التى تكيفها حسب نزعاتها وهاته المطامع مدعاة للفوضى
إذ يقتل كل إنسان من يجترىء عليه . ولت كل فرد يحترم حرية
إخيه وفكره . فجميع الحريات تكفل حرية الشعب ، وجميع الأفكار
تنفع الأمة ، حتى الأفكار البسيطة الساذجة تؤدى رسالة لا تقل نفعا
للإنسانية عن أخصب الأفكار المتوقدة .

* * *

فقدت وعي من تأثير المصاب ، ولست أدري ماذا فعل الأعرابي
بى حتى نهى ، ولم أكذ اتيقظ حتى فوجئنا بجماعة من البشاريين
يحملون بعض المشاعل لتنير لهم ظلمة الصحراء . وكشفت المشاعل
عنا ، فاقتربوا منا . وقبل أن يتكلموا صعقوا لمشهد القتل فالتفوا
حوله يبحثون ويكشفون عن موضع القتل . فتساءلوا والشرر يتطاير
من عيونهم لها : .. من قتله .. قلت بصوت مرتعش ... لا ندري .
هكذا رأيناه . ونظرت إلى الأعرابي بمعنى .. لا تقل . وفى الواقع
كان خوفى على نفسى أكثر من خوفى عليه . إذ لو مسه الضر لمسنى

لوجودى معه وقد يعتبروننى شريكته فى الجناية . وعند ما انتصب
الأعرابى متأهبا للكلام ، ظننت إنه سيلفق رواية ، تبعد الظن عنا .
فانتظرت كلامه بفارغ الصبر ، وأشرأت الأعناق إليه فى شغف فقال
بصوت رزين فيه قوة النفس الكبيرة : أنا الذى قتلته .

فزجروا وصرخوا : . . أنت . . . قال بثبات وحزم . . أجل
أنا . . . فصرخت فى وجهه وأنا أشد شعري بكلماتى . . .
لا . . لست انت . . لا تصدقوه . إنه يكذب ، لا نعرف من قتله .
واطرق الأعرابى ولعله كان يفكر ماذا يفعل ، وعلى غير ارتقاب .
شدوا ذراعيه بحبل متين ، وقيدوا ساقيه ، وجروه على الأرض كما
تجر الدواب على بطنه أنا وعلى ظهره أحيانا . فلم أجد بدا من
الاستغاثة فصرخت . . النجدة . . النجدة . . وماذا يجدى
الويل والصراخ والاستغاثة فى الصحراء . بل ماذا يفيد صوتى
وأنا وحدى فى ذلك التيه اللامحدود .

وابلائى قتلت رجلين فى لحظة ، من السهل أن يدافع المراء عن
نفسه إذا داهمه عدوه جبهة . ولكن ما حيلة المسكين الذى يطعن
من ظهره وفى الظلام أيضا على حين غره . هو فرد أعزل ، وهم جماعة
مسلحة . ومحال أن يغلب فرد جماعة - تركونى أصرخ دون أى مقاومة

وطبعي الا يخافوا مني أو يهتموا لصراخي وعويلي مهما اشتد .
تبادلوا النظرات ثم تهامسوا بلغة لم أفهمها ، ولما حاولت اللحاق
بالأعرابي المنكوب الحظ ، قيدوني أنا الأخرى . إنما برفق ،
وحملني أحدهم على كتفيه واستدعى الآخر لكي لا أحاول خلاصا .
صرخة واحدة خرجت مني دون وعي ، فقدت بعدها قواي . إذ
ايقنت اني هالكة لا محالة ، وتصورت ميتتي الشنيعة ومصاب
امي الحزينة وكارثة عائلتي .



لفصل السادس

في المحبس

لا أعرف ماذا حدث في طريقى ، فقد كنت فى حالة شبيهة
بالأغماء وإن كان قلبى لم يتوقف بل إزداد خفقانا . والذى أذكره
ان يقظنى وثبت فنهتني إلى ما حوالى . واستطعت أن أتأمل الكوخ الذى
حبست فيه وقد صنع من الخيش والغاب تقيمه أوتاد وأعمدة من أغصان
الشجر . الأرض رملية مسطحة كأنها مهدت للنوم . وأنا وحيدة
وبجانبي ذلك البشارى الذى حملنى . ولما فتحت عينى وتلفت حولى
مغمغة - أين أنا... أبسم البشارى ابتسامة صفراء وقال - لا تخافى ..
لا تخافى ... ثم أسرع وقدم قنينة من الفخار لم أتردد فى تناولها ،
لأن الظمأ كاد يقتلنى ، والرغبة فى الحياة أشد من المصاب . ثم
أحضر لى أيضا أناء من الفخار به طعام . أظنه خليطا من الدقيق
واللبن والسكر . لأن هؤلاء - كما عرفت - لا يأكلون الا نتاج
للماعز وما يزرع فى واديه . وأظنه قد صنعه فى الحال قبل أن أتنبه

تماما ، لأننى لمحت آثار الدقيق وبعض قطرات من اللبن مع بعض
ذرات من السكر .

على أننى لم أستطع أن أتناول الطعام ، وأكتفيت برى ظمئى .
وكيف بالله آكل والطعام يبدو فى أنائه كأنه السم الزعاف وهو
فى يد الرجل المخيف يبتث الفزع فى كيانى ، ويدفع البرودة إلى
أعصابى دفعا . وأغمضت عينى متناومة لأقيم ستارا من جفونى
بينى وبينه . حماسة بين مخالب نسر هكذا كنت . . . وظننت الخلداع
أنفع من الاستسلام ، فتكلفت اليقظة واقتربت منه متوسلة فى تواضع ،
راجية فى الحاح أن يترك مرايحى ، وأظن رجائى قد أثر فيه لأن
الآلم البـادى على قد ارتسم على وجهه ، وتمتم قائلا - لا حيلة لى
يا بنيتى . . . إذ كلفت بحراستك . أنا فى داخل الحباء وزمبلى خارجه .

عظمت المصيبة وتجسم البلاء فى نظرى : فقلت بصوت متكسر
حزين تخنقه العبرات . . أنا بريئه ، ونسيت الأعرابى ، فلم أذكره
بخير ولا شر . فمزال رجل رأسه ولم يتكلم ، ونظر الى نظرة لوصدرت
من غير عينيه البراقتين الخيفتين لظننتها نظرة اشفاق . كان بريقها
اخاذا ، ولاكن وجهه الأسود المخيف يشوه هذا البريق . وغمغمت . .
أذن إلى الموت . . . فلزم الصمت . فزادنى ذلك خوفا وضيقا ويأسا
فايقنت أننى هالكة لا محالة . . عاجلا أو آجلا .

ضعفت حيلاتي وخبا نور عقلي ، وذهب كل أمل أرتجيه في الحياة .
وانتظرت ساعة الموت في هدوء القائط اليأس . وهو هدوء أشبه
بغيبوبة العدم . سأموت وسيموت الأعرابي أيضاً - يا للبصاب . -
وحاولت أن استعطفه مرة أخرى ، فخاطني النطق من فرط الالتئاع ،
واجهشت بالبكاء . أخيراً بعد جهد استطعت أن أعرف متى أموت
وكيف أموت . وهل ميتتي كميتة الأعرابي .

سأله - - متى يموت أخى ؟؟

ولقد كذبت لكى لا يسىء الظن بى . فقال الرجل انه فى عداد
الأموات . فصرخت فى صرع . . مات . . مات . وضربت خدى
بكلتا يدي ومزقت شعري . مرددة . . ويحى . . ويحى . فاقترب منى
محاوفا ان يربط على خدى ولا يكتنى وردته عني . وقد تبدلت من
الاستسلام المطلق الى التمرد الجنوني . فرحت اتمرغ على الارض
كالحية التى تتأهب لبث سمها فى انسان . وحاول الرجل ان يهدى
روعى ، ولكن مجرد النظر اليه ، كان يزيد ثورنى وخوفى . قلت بصوت
كالرعد جملجة - اصدقنى . كيف مات ؟؟ . وهل مات حقاً ؟ .

قال فى رفق - لم يمت بعد .

الآن يضربونه بالحديد المحمى صباح مساء . ويقطعون لحمه
ما يقدم له غذاء .

وضعت يدي على أذني لكي لا أسمع ما تبقى من حديثه ، صارخة في وجهه — وحشية لا تطاق كيف يسمحون للوحوش الآدميين أن يعيشوا بين الناس الآمنين — وهل هؤلاء إخوانيون — قال — في الواقع لا — أنهم من أفريقيا القديمة — لجئوا إلى الصحراء سعياً وراء الرزق ، وخوفاً من الأوربيين . عندما حاربت إيطاليا الحبشة وملكيتها . خافت هذه القبائل المجنولة أن تطغى عليها المدينة المدمرة ، ف لجئوا إلى أطراف الصحراء المصرية ، على أمل أن يجدوا في كنفها الرزق والأمان .

قلت — وأنت ألسنت منهم ؟

قال — أنا بشاري أسواني اضطرتني الظروف القاسية أن أعيش معهم وإن كنت في الواقع لا أقر ف جرائمهم وقد أفهمتهم أنه من الأوفق أن تكوني بمعزل عن وفيقك — ومن الخير أحبك في كوخى تحت أمرهم . فصدقوني وتركوني . ولما جئت بك إلى هنا وجدت رجلاً منهم يتبعني ، كأنهم غير مطمئنين إلى . وها هو جالس كالكلب الحارس وراء الخباء . وهنا ترمى إلينا صوت ينادى الرجل . فأسرع ولبي النداء وخرج يعدو .

فرحت نخلو المكان منه وأخذت مكان القبلة ، وبدأت أصلي لكي يغفر لي الله ما تقدم من ذنبي . أي ذنب هذا ، أتسبب في قتال

بريئين . وعادنى شعور الفزع من فكرة الموت ، رغم ايماني
 الا كيد بأن ساعة الموت آتية لا ريب فيها ، وهى لا تتقدم ولا تتأخر
 إلا باذن الله . وبعد جهد استطعت ان استعيد بالله ، وأصلى . كم
 مرة نسيت ما صليته وأعدت الصلاة من جديد . شعور التصوف
 يملكنى ، والتهيب من الموت يراودنى . فلا أنا منغمسة فى صلاتى ،
 ولا أنا مستسلية لخواطىر بما تى . فزعت الى الله ، منتغضة ، بقنب
 يأس ، وروح مهموم . فمسح الله عن صدرى همى ، وازاح عن
 قلبى يأسى . وتنزلت على فكرة غريبة . سكنت نفسى على أثرها الى
 خواطرى فرحت أفكر فى سبيل الخلاص . يجب ألا اموت على هذه
 الصورة وان فشلت فى سبيل الخلاص فلا تميت يدي لا بيد عمرو او بيد
 حسن ... وقبل ان انفذ ما انتويت عليه دخل البشارى ، واقترب
 منى محاولا ان يقبلنى . فابتعدت عنه مذعورة مرتجفة فى تشنج
 صارخ . فلم يرتدع ووثب على كالوحش الكاسر محاولا عناقى وتقبيلى .
 ولست أدري أى قوة وهبها الله لى فى هذه اللحظة فقد دافعت عن
 نفسى دفاع المستميت . . دافعت عن شرفى ، وأى دفاع أشرف من
 هذا الدفاع ، خير أن يموت المرء ولا يחדش شرفه . ثم وضحت
 كلمة الشرف ملتمة أمام عينى . فالهبت ما كان ميتا من
 كيانى ، واندفعت ارد هجماته بأشد قسوة ، جرحت صدغيه
 بأظافرى ، فسال الدم بغزارة ، ورفضته برجلي رفصة اردته بعيدا .

تم تبديد خوفي ، وتأهبت للوثة . انما يحفنى الطهر ليزفنى الى القبر
ملك الشرف ، مرتلا على قبري ، ترتيلة التضحية المثلثي ، والثورة
للشرف الرفيع أعظم من الخضوع للاستسلام المربع . وهنا صرخت
في وجهه مرة أخرى مرددة قول الشاعر : -

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
وتحفز البشارى لمهاجمتى عندما سمع هذا القول ، والشرر يتطاير
من عينيه . كأنه يار الدم من خديه . وما كاد يقدم حتى سمع صوتا
يناديه من الخارج ، فتراجع وجفف الدم بالرمل واستعاد هدوءه ،
وخرج كأن لم يحدث شيء بعد ان رماني بنظرة الوعيد والتهديد .

وتسللت خفية استمع الى حديثهما من وراء الباب . فسمعت
الرجل الآخر يقول له ، قف هنا بجانبى لتأخذ الفتاة راحتها علما
تهدا وتنام حتى الصباح . يا لله ، هنا تظهر سلطة الغريزة ، واستخدام
العواطف في سبيل الغاية . لم يحمنى الرجل رحمة بي أو شفقه على ، انما
لتحقيق مأربه الذاتى وإشباع شهوته . لم يعد الرجل فقهت من
الصمت انه أطاع أمر صاحبه . فشكرت الله سرا وعلانية ،
وبدأت انفذ منهجى الذى رسمته ، فى حماية الظلام قبل ان يدامنى
النور فيفسد على عملى . ورحلت أتمس طريق الخلاص . على الباب يقف

الحارس . ولما تحسست الجدر فوجدتها غير متينة ، وهنا داودنى
الامل من جديد . إذ اطمأنتت إلى تحقيق مآربى

بحثت عن معول أو ما يشبهه وأخيرا عثرت على قطعة من
الحديد . ثقت بها ثقتا فى أسفل الجدر يسمح لرأسى بالظهور منه .
ثم بدأت أوسع الفوهة تدريجيا بحرص شديد وبدون صوت حتى
لا يكشف عملى . آه — لو رآنى أقوى انسان يفاخر بقوته ويباهى
بها . فى هذه الساعة ، كنت قوة قادرة . وعزما أكيدا وثابا . آه ،
لو كان الانسان دائما هكذا لتبدلت نظم الكون فى ساعات ، ولكن
لا بد ان نضعف آنا ونقوى أحيانا كأن الضعف هدنة للراحة بعد
عمل شاق يقوم به العقل مرغما باسم القوة . واستطعت بعد
لأى ان أفتح بابا خفيا يسمح لخروجى منه . لكن ماذا أفعل ؟
لو رآنى نفر منهم فى الطريق . ارجو ألا يكون هناك حارس آخر ...
رباه — انقذنى — لقد تشعبت الطرق

بدموعى دعوت ربى ، وبقلبى كنت أتوسل وارجوه . وأخيرا
اهتديت الى تغيير ملابسى وتبديل صورتنى . بحثت فى الكوخ عن
مطلبى ، فوجدت بعض قطع من القماش الرث الملهمل . انه يقضى
مأربا على كل حال . بقى وجهى ، فأخذت مقدارا من رماد الوقود
الذى انضج عليه الطعام الذى قدمه الى آتفا . واضفت اليه كمية

من الدهن وجدته في اناة قدر كأنه مهمل منذ سنين . ومزجت
الجميع مزجا جيدا فتكون شبه مزيج صالح للاستعمال . لشد
ما كانت فرحتي عندما وفقت الى ذلك . وازداد ايماني بالله . وبعد
ان طاليت وجهي ، خيل الى أن يد الله بدلت خلقت من حيث لا أدري
ثم خلعت ردائي الخارجي ولففته على خصري ثم وارت جسمي
بالقطع المهمة محاولة ان أتقن الصناعة بمهارة لكي لا تكشف حقيقتي ،
وشبكت أطرافها بالدبايس لكي يسهل على المشي والجري دون خوف
من المارة . بقي شعري ، خفت ان يفضحني . فضفرتة ضفائر رفيعة جدا ،
تبتديء من فوق رأسي وتنتهي بطرف شعري على طريقة الاسوانيين
وتركته متدلليا على كتفي مواليا صدغي ، ثم طرحت فوقه قطعة
من القماش المهمة تأكيذا لاختفاء شخصيتي .

كنت أقوم بهذه المهمة مع الحذر الشديد . وسمعت شخير الرجلين
فازداد اطمئناني ، وفاض ايماني ، وتأهبت للخلاص . استلقيت على
بطني وسحبت جسمي في هودة من الفوهة فسهل على الخروج .
كانت ظلمة الصحراء ووحشتها كافيان لخوفي واضطرابي . انما أمل
في الخلاص على أي صورة ملا الصحراء الفسيحة بشبه ضوء أنار
نفسى المظلمة فشاع الضوء في ارجاء الخلا .

تنفست الصعداء في طلاقة رغم الأحساس المهم الذي انتابني .
لكنني تركت نفسي في حمى الله . أول ما اعترضني غابة من النخيل

فأفزعتني الصوت الذي ينبجهم من صفيح ريح الصحراء في سكون
شامل يحفه الظلام ووجدت المكان الذي استرحنا فيه منذ ساعات.
فاطمأنت قليلا وبدأت أتعرف الطريق الذي جئنا منه . أوه —
أى خوف كان يراودني من البشارين ، ومن حيوانات الصحراء ،
ومن اللصوص ، ومن حراسي إذا تنهبوا الى فرارى .

وترامى الى شبه صوت غامض فارتعشت واضطريت ولم أجد
أمامي مهربا ، غير النخيل فتسلقت نخلة واختبأت في باطن اغصانها،
وصح عزمي على البقاء حتى الصباح . مضت بعض الدقائق ، والرياح
تلفحني والسعف يلذعني لدغ ابر النخل ، حتى لمحت أنسانا يمتطي
صهوة جواده وهو يمشى تلى عجل . فعرفته لما اقترب مني . كان من
رجال الشرطة (حراس الليل) وقبل أن يبلغني ، نزلت من على
النخلة وتمشيت في بطن كأتني مريضة كسيحة أعاني ألمين ، ألم الجوع
والم ساقى . وأظنه لمخني لأنه هرع الى قائللا - قف - من أنت .

قلت بصوت خفيض مخنوق ... امرأة علية ضالت الطريق .

فترجل الجندي قائللا — منذ متى ؟؟ ..

قلت — منذ الصباح . جئت من الشلال سائرة على قدمي .
حيث لا أملاك ثمن نقل بالعبارة أو القطار أو الزورق . وحن
المساء ، فاذا بي ضالة في قلب هذه الصحراء كما ترى .

قال — ولماذا جئت ؟

قلت — لأعول ابنتى المريضة فى المستشفى . فصدقنى الجندى وأمرنى أن امتطى الجواد ، فتصنعت المرض وأظهرت أن لا قدرة لى على الحركة . ثم أبدت جهدا كبيرا حتى ركبت على ظهر الجواد ، وركب خلفى وترك لجواده العنان . وبعد ساعة كنا فى مدينة أسوان .

عرفت ساعئذ الشعور الذى ينتاب الغريق عندما تسوق له العناية الإلهية انسانا ينشله من بين احضان الموت . تنهدت لأستروح نسمة الأمان ثم قلت للجندى . شكرا أيها السيد الآن . عرفت الطريق

قال — ولكن المستشفى مغلق

قلت — البواب أخى ، وفى مقدوره إيوائى حتى الصباح . فاطمأن وساعدنى على الترجل ، وعاد من حيث أتى . نسيت كل ما مر بى ، ولم أعد أفكر الا فى الأعرابى . لقد نجيت باعجوبة فهل ينجو هو الآخر . لشدة ما أخاف عليه . ما عساي أفعل ؟ ... وهل يمكن أن أفعل شيئا أنا المرأة الكسيرة الجناح . وفجأة أحسست أن عقلى يكبر شيئا فشيئا ، وأن قلبى يتسع رويدا رويدا . ووضحت أمامى جريمة مجسمة شنيعة . ودفعنى العقل متحفزا بشعور القلب إلى العمل — لئلا نقاذ الأعرابى مهما كلفنى الأمر .

ترادفت خواطري وازدحمت افكاري ، وأنا سائرة كالتائهة اتلفت
يمنة ويسرة . اتخيل أن يداً خفية ستقبض على عنقي فينتابني من القلق
والذعر ما لا قبل لي باحتماله . أخيراً لمحت دار الشرطة عن كشب بعد
أن قطعت مسافة طويلة في الطريق .. فالهمني عقلي فكرة عجيبة
تضخمت حتى دفعتني بسرعة الى « القسم » . وقد أقبلت عليه وكلى
ثقة من نجاحي .

ولما لمخني الجندي تأملني في احتقار ثم غض طرفه ، واهملني كأنه
لم يرني ، فلم يهمني ذلك وتقدمت أسأله — أريد أن أقابل
الضابط النوباتجي وحاولت أن أكسب لهجتي نغمة المرأة الاسوانية
فاجابني بلمهجة جافة لا تخلو من الأشمئزاز — ما الخبر ايها المرأة ؟
قلت بتوسل — أريد مقابلة الضابط ترا فعجل بي إليه .

فقال بلمهجة الحائق المرتاب — ما ورايك ؟

فساءتني بلادته وما بدا عليه من سياء الغباء ، وعدم الاكتراث
بي الى هذا الحد الذي لا يتفق مع واجبه المنوط به . واندفعت افسح
الطريق لنفسى ، فوقف الجندي في طريقى وهو يزجر — مجنونه .

فصرخت في وجهه — أنت المجنون بأى حق تمنعني من الدخول ؟ وتجمهر
الجنود والناس حولى على أثر صراخى متسائلين ما الخبر ؟؟ ...

فأجاب الحارس : مجنونة ! وتبعه آخر يخاطبني في احتقار :
اذهي يا امرأه . فنظرت اليه في حقد قائلة بسخرية — غض
الطرف عن قذارتي وفقري . وقم بواجبك كما يتطلب منك العدل
والقانون ، فراح يردد — مجنونة ... مجنونة .. فلكرته بقدمي في ساقه
بحركة عصبية ليتخلى عني ... مغمغة — لا كن مجنونة كما تزعم ، فقال
لبعضهم سوقوها إلى الحجز ريثما ينظر الضابط في أمرها . وتقدم مني
آخر محاولاً ان يصحبني إلى الحجز في عنف . فامتنعت غير عابئة
بشتائمهم وسخطهم ، معاودة صراخي بأعلى صوتي . حتى جاء الضابط
مسرعاً متسائلاً — ماذا حدث ؟ ... قلت — جنود الأمن في
هذا البلد دعاة للفوضى .

فدهش الضابط ولم يكن أكثر منهم رحمة وكياسة ، فنظر إلى في
احتقار مخاطباً الجندي في كبرياء كأنه ينتزع الكلمات من نفسه
عصباً ، ما شأن هذه المرأة ؟

قال الجندي — ضربتني .

وقال آخر — أهانتني .

وقال الثالث — تريدان تهاجم نازر البوليس .

فاشتد غيظي من الضابط المتعلم الذي جعله القانون مصلحاً وحاكماً
عدلاً بين الناس ، ولكنتي تمالكت نفسي وقلت له بصوت حزين .
الا تنقذ الغريق ياسيدي ؟؟ ...

قال بحفاء يشوبه الجود وعدم الاكثرات بالناس - اى غريق ؟

قلت - انا تعبئة مما عانيت . اريد أن أقص عليك حكايتي على

انفراد لأنها خطيرة . فتردد مليا كأنه فى شك مما أقول ، ثم أشار

الى جندى وقال له فى كبرياء . خذها الى غرفة النوباتجى لىسمع

حكايتها ، وأشار الى بالدخول . فابيت وتوقفت قائلة - لا اريد أن

يسمعنى أحد الا أنت لتفهمنى جيدا .

فعجب لجرأتى بلا ريب ، وقال فى أنفه - تعالى

وسار أمامى بخطوات متتدة ليمثل الكبرياء باجلى معانيها . فضحكت

بينى وبين نفسى وقد فهمت أن بين الكبرياء والتواضع درجه .. ترتفع

أو تنخفض فى ترمومتر الحياة حسب الظروف والمطامع ، وبدل أن

أقص عليه حكايتى كما كان فى نيتى ، شئت أن العب دورا آخر لا مبط

بذاك الضابط من سماء كبريائه الى درك الذلة والخضوع . استبقنى

إلى مكتبه وأخذ مجلسه ، وقد أرتدى مسح الألفة والغرسة

والغرور . ولما وقفت بين يديه لم يحاول النظر الى وقال بلمجة لم

يظهر منها غير أواخر كلماته كأنها تخرج من أنفه لا من فمه كأن

به من الكبرياء مساً أو من فرط ما يعانيه من داء الكبرياء .

ويقينالولا صراخى وتمردى لما استجاب مطلبى . ودفعنى الى الحجز

زورا وبهتاناً وظلما وعدوانا وكان هذه النفوس التى تأمر بغير الحق

لا تحس ولا تتأثر، أى لا عواطف فيها ولا انسانية تدفعها الى الرحمة والعدل - وليس من صفات الحاكم أن يكون فاقد العاطفة والاحساس والشعور الطيب ، بل يجب أن يكون أكثر الناس حسا وشعورا وعاطفة ورحمة - لأنه متى قدر ذلك كان له ضمير يحاسبه فيعيش بانسانيته ولا يحيا بوحشيته وبعد أن شمع بانفه - قال :-
ما حكايتك ؟

قلت بصوت بطيء انظر الى .

فرفع نظره فى دهشة مبهوتا - فاردفت - تأملنى جيدا ، انظر الى ملابسى ، انظر الى شعرى ووجهى . فابتسم متهمكا وحرك شفتيه ليتكلم : وقبل أن يبدأ قلت - انتظر ، لست بجنونة كما تظنون ، وليست لدى القوة الكافية الآن لشرح قصتى . فاذن لى بالراحة حتى أستعيد قواى . فhez رأسه ومط شفتيه ثم تتم لا مانع . وأظنه وافق ليستريح منى ومن قصتى وثرثرنى . ثم أمر الجندى الواقف ان يأخذنى الى غرفة الحجز حتى الصباح . وساقنى الجندى الى الغرفة بتسوه .. وقبل أن ينصرف رجوته بخضوع طمعا ، ايحضر لى ماء يكفى لحاجتى طوال الليل لآتنى اشعر بظما قاتل . فخرج دون أن يجهد نفسه فى الرد على . وارسل الى قدرا كبيرا ، ولا شك أنه فعل ذلك لى لا أكرر طلبى ، فيضطر لرؤيتى وهى لا تسره .

فلما خلوت بنفسى واطمأنت ، خلعت ملابسى ، وغسلت وجهى ،
واستعدت هيئتى وطبيعتى ، وتجملت بعد أن ارتديت ملابسى
الأصيلة ، ونظرت من ثقب الباب بعد منتصف الليل ، فوجدت
حارسه قد اسند رأسه على حافة المقعد وقد أسدل الكرى على وجهه
ستارا . وخلت الردهة الآمنة ولما حركت الباب وجدته مفتوحا .
هنا فتحتته فى حذر وخرجت منه . ولما بلغت وسط الردهة ، تكلمت
الكبرياء ، الألفة لأجيد تمثيل الدور ، ونهبت الجندى بصوت خال
من الرقة ، قائلة أيتها الجندى . فذعر وانتبه وما كاد نظره يقع
على حتى انتصب مؤديا التحية فى احترام . أفندم — فتنفست
لنجاح باكورة عملى وقلت — أين مكتب الضابط ؟

قال — هنا يا سيدتى ، وأشار بيده فى احترام ، وسار خلفى فى
خضوع حنى دخلت على الضابط فى غير تهيب ، فوقف مبتسما مرحبا ،
ومد يده مصافحا ، وقدم الى الكرسي مرحبا . جلست محتفظة
بكبريائى — متكئة العظمة قائلة : — لقد حضرت فى هذا الميعاد
مستترة بالليل إذ لا يتاح لى الخروج فى النهار ، لأقف بنفسى على
ما حدث للمرأة التى حضرت منذ ساعات

فابتسم الضابط ونظر الى فى لطف ووداعة قائلا — المرأة هنا
يا سيدتى ، وكلنا تحت أمرك .

قلت — ماذا تم في أمرها ؟

قال أبت أن تقص على حكايتها الا في الصباح ريثما تستعيد قواه.

قلت — ولكن خادمي اخبرني أنكم اهنتموها .

قال — أبدأ — وهل تحدث الالهانة في دار الأمن ؟

قلت بنخبت — طبعاً هذا لا يمكن !! ...

فنظر الى في إغراء قائلاً — يسعدني أن أتشرف بمعرفة الهانم .

قلت — سوف تعرفني بعد حين .

قال — ولم لا يكون الآن ؟

قلت متلطفة — وهل لا بد أن تعرفني ؟ . .

قال — يسعدني أن أعرف البدر الذي أضاء افق المدلم .

قلت بصوت رقيق لازيده جراءة — أنت لطيف . . . لطيف

جدا ، فهل يمكن أن تحقق رغبتى ؟؟

قال في خضوع — بكل احترام حتى لو كان الأمر فوق مقدورى .

قلت — اذن دع المرأة تحضر الآن لنسمع حكايتها سوياً .

فاسرع يأمر جندياً باحضارها . . . وسرعان ما سمعنا ضجة هائلة

في ترديد . . . هربت المرأة . . . كان الجندي الحارس هو المستول

أمام الضابط فأمر بسجنه ريثما يكتب له مذكرة لرفعها الى المأمور .

يا للسخرية ... الأنسانبة بمهاز لها تلعب أدوارها على عتبة دار
الآمن أيضا . ولم بشأ الضابط أن يضع الوقت فى كمتابة المذكرة
أو البحث وراء المرأة الهاربة كى يخلو الى . وعاد يقول - سأعرف
كيف هربت المرأة وإذا كان أمرها يهيك ، سأحضرها اليك بنفسى مهما
كلفنى الأمر فاطمنى واعتمدى على . ؟

قلت - مر بسراح الجندى ، إذ لا ذنب له فى هروبها بالتأكيد .
فمز رأسه طائعا وأمر باطلاق سراحه . ونظرت الى ساعى ثم تصنعت
الذعر ووقفت مسرعة وأنا أقول - مضى الوقت يجب أن أعود توا
قبل أن يكشف الفجر خفايا الوجود .

قال - هكذا تذهبين على عجل .
قلت متماكرة - - سأراك فى فرصة أخرى

قال - أين ومتى ؟
قلت - كما تشاء .

فنظر الى طويلا ثم قال - ما أجملك ، وما الطفك . فصافحته
وأنا أقول - شكرا . . . شكرا .

وتأهبت للخروج ، وبينما كان الضابط ينحنى ليحيينى ، محاولا
أن يقبل يدى . كنت انظر اليه فى احتقار . ثم قلت بعد أن جلست

ثانية - اجلس يا سـ - بدى ، وضحكت طويلا وهو يتأملنى دهشا
ثم أردفت - أن الانتظار يضيع الفرصة . فظن أننى قد تواضعت
فاستسلمت فانتبه بكليته الى مستمعا فى شغف بقية كلامى .

قلت - كان من الضرورى أن تستمع الى حديث المرأة ،
لتنقذ انسانا غريقا . أما وأنهم - هربت ، فلا مانع من أن أقوم
بالمهمة التى أرسلتها من اجلها . فاسمع الحكاية لتقوم بواجبك الانسانى
بما يتطلبه منك القانون والعدل .

فتنفس الضابط كأنه كان يطمع فى حديث آخر ثم تتم - تفضلى
فاستطردت - خرجت لزيارة الآثار البارحة ، وكان فى صحبى
اعرابى نزل علينا ضيفا . وقد رافقنى كحارس بأمر من والدى .
وعند عودتنا كان الليل قد ارخى سدوله فهاجمنا « بشارى » محاولا
أن يختطف محفظتى فتجداه الأعرابى ليرده عنى . لكن البشارى
كان متوحشا فاشتبك معه فى شجار عنيف محاولا أن يقتله . فطاش
سهمه وردت الضربة الى رأسه فاصابته والقتته على الأرض صريعا
واتممت القصة كما حدثت تماما حتى جئت الى النهاية وكيف هربت .
وصارحته بما حدث وافهمته أننى أنا المرأة التى احتقرها وازدراها
منذ ساعة . واردة بصوت متزن ، ولعندك تعرف من الآن ان

الظواهر خداعة ، ويجب أن يحكم الانسان عقله وقلبه وان يتريث
في حكمه على الناس لكي لا يظلم أو يسيء فاذا كان صاحب معرفة
ومنطق استغل خبرته في تعرف الحقيقة -- وإن لم يكن -- فلينتظر
الحادث يعلن حقيقته في صمت أو ضجة حسب ما يتطلبه الأمر وهو
في الحالين لن يخسر شيئا .

والآن أريد انقاذ الأعرابي حالا - فنجعل الضابط من نفسه
واعذر آسفا وافهمني أنه لا يستطيع أن يلاطف كل الناس ،
إذ هناك تفاوت في المراكز والطبائع . وقد يستغل بعض الأفراد
اللفظ ويفسره بالضعف والوهن فيزداد غيا وشرودا .



الفصل السابع

اسرع الضابط في تنفيذ أوامري بدقة ، وأمر بعض الجند بمرافقتنا
ثم ركبنا جميعا السيارة واجتازنا الطريق بسرعة حتى بلغنا الصحراء
وارشدت السائق الى الطريق المؤدى الى محبسى وبدون عناء اهتدينا
اليه . فوجدنا الحارسين نائمين في سبات عميق . فلما رأينا الضابط
فانتبه . ولشد ما كان فزعهما عندما لحا الجند . وقد أمرني الضابط
أن أختبئ في السياوة لئتمكن من القيام بمهمته . ثم سمعته يسألهما
عنى ، فتبادلا النظر ، ولزما الصمت . دخل الضابط الكوخ وخرج
منه يتبعه الجند ثم خاطبهما . الفتاة ليست هنا . إذن اين هي ؟ فصعقا
واختلسا النظر ، وبدأت على وجهيهما صفرة الخوف متشعبة بنقاب
الدهشة . وقبل أن يتحركا من مكانهما فیدهما الجند بالسلاسل والأغلال
وصوب اليهما الضابط مسدسه قائلا . أين الأعراي ؟ . .

قال أحدهما — لاندري

قال الضابط — ستخترق هذه الرصاصة صدريكما في لحظة ، ان
كذبتما . أصدقاني وأنا أبرئكما ، واترك سراحكما ، ولن أصارح
أى انسان باعترافكما وسأحرص على راحتكما .

وظل يتلطف بهما ويحاورهما بذلكاء يشوبه مكر يتطلبه الموقف

حتى اعترفا أخيراً وقال — احدهما ولعله أقل عناء من صاحبه :
إنه يوجد في الجهة الشرقية خلف الجبل ولا بد من اجتياز الصجراء ،
ثلاث ساعات بالسيارة ثم ركوب الزورق ساعة على الأقل . وجىء
بهما إلى السيارة ، فصعقا عندما رأيا نى . وتخاذلت قواهما من هول
المفاجأة ، فارتميا على المعقد في سكون بغير حركة .

ومع وقت الضحى وصلنا الكوخ ، وقبل أن نطرق بابه ، ترمى
الينا شبه أنين متقطع مع غمغمة أصوات غامضة ، ولم أصبر حتى يلقي
الضابط أوامره . بل هربت أطرق الباب في عنف فانقطعت
الأصوات وسكنت الحركة . فلحق بى الضابط يجذبني برفق قائلاً —
استريح هناك ودعى الأمر لى . فنظرت إليه بمعنى لا أستطيع صبرا
وظللت واقفة بجانبه . دائبة على الطرق حتى كلت يدي . ولما اشتد
الطرق ، ولم يفتح أحد . أمر الضابط الجند بكسر الباب . وهنا سمعنا
صوتا يقول — من الطارق ؟

قال الضابط — افتح الباب .

ضعف اللفظ ، وسمعنا همساً وحركة غير عادية . فوضعت اذنى على
الباب اتسمع ما وراءه ، فسمعت شبه أنين يخفق ثم انقطع . فاندفع الدم في
وجهى وصرخت في وجه الضابط أنهم يقتلونه الآن أنتظر حتى يموت ؟
فثار الضابط وكسر الباب ، وهجم عليهم مع الجند . فاذا بالكوخ

خال من البشاريين عدا الأعرابي كان ممددا على الأرض كالميت تماما
وتد وضع على رأسه كمامة سوداء تخفى عينيه وتقيد فمه . فان الضابط
أنهم هربوا من فوهة بالكوخ يحتمل أن تكون مخصصة للهرب
في مثل هذه المواقف . فأمر الجند بتفتيش الجبل الملتصق بالكوخ
فقد يكون فيه مأوى لهم ، على أنى هرولت اليه مسدلة عليه معطاني لأستر
جسمه العارى الذى رسم الحديد الحمى عليه شارات الوحشية الطاغية
وسالت المادة الصديديّة من كل موضع محترق . حتى أن الضابط لم يحتمل
رؤيته فدمعت عيناه ، ولكنّه نفر منه وابتعد عنه نظراً الى هامسا
فى أذنى — ابتعدى عنه يا آنستى قلت — الواجب يحتم على تخفيف
مصابه بقدر المستطاع ثم مزقنا الكمامة بعد عناء وفككنا الأغلال
التي تقيد وناديت — سيدى ، تكلم اسمعى صوتك لأطمئن على
حياتك على الأقل .

فلما سمع صوتى فتح عيناه بعد جهد ولكنّه لم يستطع كلاما .
ففهمت أنه من فرط الجوع وبحث عن غذاء له فى الكوخ فاذا
بعض الخبز والفاكهة ملقاة على نضد صغير . فجلست بجانبه
والهلع يكاد يقتلنى اضع الطعام فى فمه عل ذلك يعيد اليه بعض
القوة . ولما لم يستطع أن يمضغ الطعام قطعت له قطعة صغيرة حتى
لا يكلفه المضغ عناء . ثم حاول أن ينظر الى فلم يتمكن وطفرت
دمعة واحدة من عينيه أحسست أنها ألهمت جسمى . ما أبشعه على

هذه الصورة ، زاغ بصره ، وبدت عظام وجهه بارزة ، واسودت
شفته وظهر جلد رأسه كأن النار أحرقت شعره . شرب وأكل وقد
رجوت الضابط ألا يخاطبه حتى يسترد يقظته وما يعينه على النطق ، من
قوته فخضع لمشيئتي . وبعد لحظات انطلق وجهه المتجهم وأشار بطرف
اصبعه الى زاوية الكوخ وتمتم ، هنا يختبئ اللاصوص . فأمر الضابط
الجند برفع مسدساتهم واقترب من الزاوية فوجد شبه شق بسيط
لا يمكن تمييزه . ولما مر بيده عليه وجده بابا صنع من بناء الكوخ
لكي لا يظهر ففتح الباب وهنا انكشف ما وراءه فاذا بأربعة رجال قد
استسلموا خاضعين لقوة الجند فقيدهم بالسلاسل وحملوهم إلى السيارة
وجاء دور الأعرابي . حاول أن يتكلم فلم يستطع ، وشاء أن يتحرك
فلم يتمكن . فأمر الضابط الجند بحمله ففعلوا ، ولما شئت أن أساعدهم
قال بعد جهد — ايمنك للحمامة ان تحمل نسرا .

فهمست في أذنه — بقوة روحها تحمل اكثر من نسر .
صعب عليه أن يتنسم فنظر الى صامتا . كانوا يحملونه وأنا أسير
بجانبه قابضة على يده ، ودموعي تنهمر بغزاره . وقد علق نظري به
حتى اكتشفت ما وراء مادة كيانه المشوهة فاذا بروحه أجل وأعظم
اذ تجلى الصبر وقوة الاحتمال كأنهما خلقا من أجله

وكأن وجودي قد بدد كل ما عانا ، فظهرت على وجهه رغم شحوبه
نضارة الرضى ، وفي عينيه بوارق الطمأنينة ، وعلى شفثيه ظلال البهجة

واحسست عندما سندت رأسه على كتفى لأول مرة فى حياتى بشعور
النفس الكبيرة — أجل خيل الى أنى أحمل عبء آلام الإنسانية
كلها بقلب أكبر من قلب الوجود ، لو كان له قلبا . واحسست بزعم
أكيد هو أشبه بالإيمان الذى يملأ قلب المؤمن عندما يعتقد أنه ادى
عملا خيرا لوجه الله ولغير غاية .



سيق الرجال البشاريون الى دار الشرطة ، وأودع المريض المستشفى
وعدت أنا بعد أن عاودنى الأطمئنان الى النزل غير آبهة بتهاويل
رفيقاتى معدة فى ذا كرتى لكل سؤال جواب . سألتنى أقربهن الى —
أين كنت طوال النهار والليل . اجبتها دون تلاثم — تعرفت الى
صديقة من بلدتى جاءت هنا مع والدها المريض ليستشفى بالدفء .
وسوف أكون مقيدة بها الى ان تسافر لأنها عزيزة على . ولا ادرى
ان كان ذلك قبل رحيلنا او بعده . قالت — كأنك لست معنا .

قلت — لاضير على كل حال ، فتناسين وجودى معكن الى حين
وتركتها وآويت الى مضجعى ، ومن فرط النصب نمت نوما عميقا
طال أمده حتى ايقظتنى صاحبتى قائلة — مضى النهار وجاء الليل
ياسناء . فقمتم مضطربة كأن أنفاس المريض رقت على . . . مضى
النهار ، وها هو الليل أقبل وسوف يمضى . ولا اعرف ماذا حل

بالمريض — وابلأه ، بلاه الحب بى ، وبليته أنا بالعذاب الأليم .
 ماذا أحمل للمسكين من ذخيرة غير حنانى ؟ وهل يرفه الحنان الآلهة ؟
 لا يمكن أن نقدر الواقع قبل حدوثه ، لطالما تخيلت الحب وتمنيته
 ولكن هل شعورى به وحياتى فى عالمه كتهخيلى إياه . آه — لو استطعت
 أن أبدل جحيم الحزون نعما ، وقلق اليأس أمنا ، وعذاب المحروم
 سعادته . وآه — لو أستطعت أن أرد لك المريض عافيته وهنائه ،
 وأبدل وحشته أنسا ويأسه أملا . لكن من ذا الذى يستطيع أن
 يؤدى رسالة السلام والحب وحده ؟ فى مقدورى أن ألهم وأخلق
 وأوجه . ولكن ليس فى مقدورى أن أوفق لايجاد ذلك الذى يستوعب
 الهامى ، ويحقق آمالى ، ويسمو إلى السماك على جناحى .
 هذا رجل أعرف أنه يمتاز على الرجال بما يتناسب مع آمالى الكبار
 ولكنه — آه — ما أشد ألمى حينما أتصور أن الذى أحبنى حبا صادقا
 اعظم من الرجال نفسا وأقلهم مادة . وأنا مقيدة بمادة الأرض ، ولا بد أن
 أخضع لأوضاعها . الحب كالقدر لا يعرف الأمن ولا الخطر . يحتاج
 الحب طريقه غير آبه بالأوضاع ، ولا يكثر للقانون . لو سألوني —
 أى رجل تبغينه — قلت على الفور دون تردد وأنا أنظر إلى السماء
 — هنا المعنى يا صاح — إنما الحب يفاجئنا على الصورة الذى يقدرها
 لنفسه لا الصورة التى ارتجيمها أنا لنفسى . فقد يجيئنى على صورة ملاك
 كما أرجو . وقد يلقانى على صورة وحش بغيض كرهت أو رضيت .
 ولا قدرة لى على التخلص منه ، مهما أوتيت من قوة وذكاء .

الفصل الثامن

في صبيحة اليوم التالي ذهبت لأعوده فقبل لي ليست الساعة ميعاد
الزيارة يا خيبة الرجاء. ولكن مثلي لا يضيع مسعاها سدى. لا بد من حيلة
طلبت زيارة طبيبة المستشفى ، فافسحوا لي الطريق . ولما لقيتها بدأتها
ابتحاجية ظريفة ثم قدمت لها نفسي . وكانت على شيء لا يستهان به من
الورقة واللفظ . فأنت بي وتناظفت معي لأها غريبة . الغريب دائما
يحنو على أبناء وطنه ويولييه من نفسه كل بر وحنان . سألتني عن
مصر بلدتها فحدثتها عنها حديثا مسهبيا فاقبلت علي وبالغت في الكرام
وفادتي . واخيرا قصصت عليها قصة الأعرابي المريض في ايجاز مقتصرة
على ما يهمها معرفته ، ورجوتها أن تساعدني على معاودته من أن لأن
لأطمئن أهله . فلم تمانع وتواضعت ووضعت نفسها تحت خدمتي في
كل آونة . ثم قادتنى الى غرفة المريض ، وتركتني لتقوم بمهمتها
الطبية ، معتذرة في لطف . ولعلمها تعمدت إمعانا في إكرامي

دخلت عليه فوجدته مضطجعا كأنه مسترسل في نوم عميق على أن
هيئته افزعتنى حيث لف كل جسمه بالأرطاة وكذلك رأسه . منظره يدر
الدمع من العينين غصبا ، لكنني نمالكت نفسي متكففة بسمة ، ودنوت منه
رابطة على خده برفق هامة — أنا ثم ففتح عينيه بسرعة كأنه
كان يرقب مجيئي ، ثم تهدوا عقب نهده باقتسامه عريضة وتمتم —

جئت — شكراً لك — فملت عليه في لطف واستنشام قائلة — اراك
اليوم احسن حالا —

قال — عاودنى الشفاء لما هللت.

فسأله — اتشعر بألم ؟ .

أجابنى — أبداً . . . زال عني كل ألم ، ولكنهم يحتمون على
أن التف بهذه الأشرطة البيضاء ، ثم ضحك ضحكة مريرة واعقب :
شكلى مخيف — مخيف جداً . أليس كذلك ؟؟

قلت — بالعكس — انك تبدو كملاك .

فعاد يضحك ضحكة متقطعة كأن ألمه يحبسها ثم اردف — تشبيه
جميل لأنه منك . انما الواقع غير ذلك .

قلت — أنت مخطيء إذا حسبت للظواهر سلطاناً ، ان روحك لم
يمسها الضر ، وقلبك كما كان على خير . فتطلع الى محققا في طريلا ثم
قال — لقد سميت لك العذاب يا سناء . لكن خبرينى كيف
تخلصت من الأشرار ؟؟

قلت — لم يحدث لى أى ضرر مطلقاً ، احمد الله ما زلت على خير
ثم أدركت من احتقان وجهه ، ان الكلام يجهد . فترفت به ورجوته
ان يكف عن الكلام ، واشرت بيدي علامة الصمت . وحاول أن
يتكلم . فاقسمت عليه بالله الا يفعل ، والا تركته وانصرفت .

فاضطر أن يصمت احتراماً للقسم وخوفاً من تنفيذ وعيدي . لأنه
يعرف أنني لا أنثني عن عزمي إذا انتويت أمراً ثم سحب
طرف خماری وقبله كما يقبل العابد غطاء الهيكل المقدس . وانغمض
عينيه في هدوء كأن القبلة بعثت إليه حلماً جميلاً . وخجلت إذ هذه
أول مرة يكون فيها جريئاً ولكنني تسامحت لمرضه وأخفيت خجلي
في إصلاح ما اختل نظامه من فرش سريره . وبدأت أنظم أدوات
غرفته حتى فاجأتني الطيبة قائلة في لطف — استحسن خروجك
الآن ، لأن الطبيب سيحضر لعيادته ، ولا أحب أن يراك احتراماً
لقوانين المستشفى . فاطعتها صاغرة شاكرة وودعتها بعد أن القيت
على المريض نظرة عابرة تحمل معاني العطف والحنان وقد جاوبني بمثلها .
ولما بلغت انشارع وجدتنى كالتائهة ، وأحسست أنني فقدت
قطعة من نفسي . اتراه هو ذلك الجزء المفقود ؟ . . . وضل تفكيري
إذ وثب احساسى من باطنى الى ناظرى في صورة مجسمة . كنت اسميها
قبلاً ، غرامى المحمولى . واليوم تلتمع أمامى كالنور راسمة غراماً
معلوماً . ورحت انتقل من مكان الى مكان باحثة عن شىء يسرى
عنى ، ويملا ذلك الفراغ الهائل فى قلبى ، الذى صار كطفل فى
حاجة الى من يراه . وقضيت النهار كالتائه الجوال ، استتر بالظلال
إذا فاضت حرارتى ، واستند الى الصخور ، إذا اشتيت الراحة .
أبدد الوقت بالقراءة فى مجلة أو صحيفة . وقد تذهى المجلة أو الصحيفة ،

و يمر الوقت دون أن أفهم من هذه أو تلك شيئاً . كنت كالضال
الذى يبدأ السير من شارع ليذتهى في بداءته - جاهل كيف بدأ وكيف عاد .
اجوب الآفان بخيالي فأرى صورة المريض تملا افق ذهني الواسع ،
متخذة قلبي لها مسرحاً تلعب فيه ادوارها بمهارة فائقة .

استطعت أن اجذب الطيبة الى ، واصل بيني وبين قلبها ،
فأحبتي وراحت تدعوني إذا غبت عنها بوسيلة خادمها . وهى فى
الواقع فتاة ظريفة تحب . لم أر غضاضة من صداقتها واستغلال
تعارفنا لخدمة المريض . فحرصت على راحته حرصاً شديداً ، وقامت
بخدمته ، ووضعت خادماً خاصاً تحت تصرفه ، وانست به هى الأخرى
بل اظنها احبته لأننى فاجأتها أكثر من مرة فى غرفته جالسة بالقرب
منه ، تسامرته فى لطف وتهيب به إلى مكالمتها . لكنه لم يخرج من صمته
ولم يحاول مرة أن يبادلها الحديث ، حتى أنا كان لا يحدثنى أمامها
إلا لماماً . وإن فعل فكلمات عابرة كنسائم الفجر ، تحمل معنى شذاه
فى قلبى . ولا تستقر على ذهن أحد سواى ، وما يؤكد لى أن الطيبة
احبته قولها لى مرة ، وكنا فى خلوة بعيدة عنه .

من هذا المريض ؟ . .

قلت لما — اعرابى صديق لوالدى ، جاء هنا لأمر يخصه ،
لا علم لى به . فمكتب اليه والدى ليرعاني .

قالت — أن نفسه أعظم من نفس أى انسان عادى ، كأنه امير .

فابتسمت وقالت — وهل يتواضع الامير الى هذا الحد ؟

قالت — يحتمل ، لقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه
أعظم الناس شأنا ، واوفرهم حرمانا .

قلت — لقد مضى زمن عمر يا صاحبتى ، ولن يأتى الا إذا
خرج عمر من قبره .

فعادت تقول — ثم انه يصرف باسراف وبذخ ، ولقد لاحظت
أنه يكافىء كل من يخدمه حتى تهافتت عليه الممرضات . والذى أعرفه أن
الغنى غالباً بخيل فكيف يتفق هذا الجاه العظيم مع ذلك السخاء الوفير .
فهززت رأسى لأخفى العاطفة التى ساورتنى وتمتمت — قد
يكون المرض عليه الرحمة .

فاردت — وهل تظنين المرض يولد الرحمة فى القلب الذى لم

يكن رحيماً من قبل ؟؟

قلت يحتمل !!

قالت — ابداً - كم من غنى مرض وتعذب ، فاذا عوفى لا يكون

أقل قسوة من قبل ولا جحودا .

فأعقبت عليها — لكل قاعدة شواذ .

فقاطعتنى — وقد سمعته أكثر من مرة أثناء نومه يحلم ممسا .
لكننى لم أتمكن من ادراك سره . كلامه لغز - لغز مبهم . انما
فهمت أنه يحب عابد . وهنا لاحظت أنها تتعمد ضياع الوقت قبل أن
أراه فاستأذنتها ، ودخلت عليه فوجدته جالسا فى سريره كأنه يترقب
مجئى . فلما لمحنى فادمه ابتسم فى بشر ، واستقبلنى مرحبا ثم صاحفنى
بحرارة . ، بادرنى . رأيتك منذ ساعة . هناك على الصخرة القريبة
من الشاطئ . ، وأشار بيده حيث كنت .

قلت — ولكن كيف رأيتنى والمسافة طويلة ؟؟

قال — بالمحمر .

قلت — افادتنا الصناعة كثيرا .

قال — وأيضا أفسدتنا .

قلت — كأنك ناغم عليها ، مع أنها اسدت اليك معروفا - على
الأقل - قربتنى اليك .

قال — يا ساذجة . . . الصناعة كسوة من الحرير يجعل بها الجسم
البض الناعم فتزيده بهرا ، وهى فى الواقع لا تسبغ على الجسم أى
فتنة . انما الجسم هو الذى يلبسها معناه .

قلت — صدقت — حقا الطبيعة هي التي تمنح الصناعة معناها
الجميل القوي — إنما في خفاء

قال — الجمال ، اسبغى عليه الذكاء والاحساس — فيبدو لك
أكثر روعة من جمال بغير ذكاء وشعور .

وبلغت الساعة السابعة ، فاستأذنت وانصرفت خوفا من الطيب .
وهناك على الصخرة التي رآني جالسة عليها ، جلست . وقد اتخذتها
منذ أيام مقرا لخلوتي ، ووطنا لوحدتي . ارقب من فوقها المستشفى
وغرفة المريض . وما كدت أن استقر عليها حتى رف على رأسي طيرا
كما يتساقط الندى على الزهر . فذكرني بالمريض ، وكأن الطير أدرك
ما جال بذهني . فخلق بعيدا ثم وقف على قمة الصخرة أمامي ، يرنو
إلى مرفرفا بجناحيه كأنه يسمعي لحنا خفيا — معناه — تعالى — ولما
حوم حوالى استنفز عواطفى ، ونبه وجدانى فغنيت .

يا حبيب القلب أقبلي	أسعد القلب الكسير
قدمنحنا الحب يرقل	في حمى الطهر الوفير
يا حبيبي خذ ودعني	ارشف الصفو الجميل
من حنان ليس يفنى	أصله نبع جليل
قد بلاك الحب قهرا	لم تنل منه ثوبا

فحسبت الحب شهدا فاذا بالشهد صابا
أيها الطير الأليف بلغ الألف هيامي
واحمل الحب العنيف في كنؤوس من غرامي

كان موعدنا عصر اليوم التالي ، فلما ذهبت إليه ، مررت كعادتي
على الطيبة لأحييها . فقأجأتني - عوفي المريض . وهو في الحديقة .
انتظري ريشما أحقن بعض المرضى لكي اصحبك - فلم أدعها تتمم
حديثها وهرولت مسرعة إليه . فلقيني طروبا قائلا - لقد عوفيت .
فصافحته مهنئة .

فاستطرد - لقد صرحوا لي بالخروج ، ولكنني انتظرت حتى
تحضرين ، فنخرج سويا ، والآن هيا نواجه الحياة من جديد .
قلت - الانتظر الطيبة ، فقد كانت تريد أن تصحبني !
(ونظرت إليه في خبت)

فقال - لا ضرورة إلى انتظارها - وجذبني لنخرج .
قلت - اللياقة تقضى بشكرها على الأقل .
قال - يا ساذجة - انني احتقرها .
قلت أنها فتاة طيبة .

فابتسم متمكما - هي مغرورة تحسب نفسها حواء النساء .
قلت - كل امرأة كذلك .

قال — المرأة الغبية فقط .

قلت — انك تظلم هذه الفتاة ، فهل اساءت اليك ؟

قال — بل أحسنت إلى .

قلت — ولم تنكر جميلها ؟ ؟

قال — لم أنكر ، ولكننى امقت المرأة التى ترتبى بين ذراعى
الرجل باسم الحب .

فهمت ما يعنيه وقلت فى خبث — قد تكون محبة .

قال — ياسناء ، وانت محبة ، فلم لاتندفعى كاندفاعها ؟

فعمدت ان ادافع عنها فقلت — انا لم أحب بعد .

قال — المرأة التى لا تحترم نفسها ، لا يمكن أن تحترم حبيبها ،
وإذا عجزت المرأة عن صيانة حبها فى قلبها صعب عليها صيانة حب الرجل
قلت — لكنهم يقولون إذا زاد الشعور وفاض لا يستطيع

الانسان كتمانها

قال — لا تخلطى بين حب الاضرار ، وبين الحب الاكيد .

يمكن تسمية الأول (الحب المصطنع) الذى تحتمه الضرورة أو الرغبة
لأمر ما ، وأما الثانى فهو (تقديس الحب) ، والسمو به الى أعلى عليين .

وهنا ملح الطبية تعدو نحونا ، فصمت متشجعا بنقاب الكبرياء .

فلما اقتربت منا . خاطبتنى أرجو ألا تنقطع زيارتك ، ثم نظرت اليه نظرة ؟
لمحت فيها التماع الحب وهى تقول . ويسرنا ان نطمئن دائما على صحة

السيد ، فشكرها في ايجاز وهم بالانصراف . فاستوقفته قائلة - لقد
انهيت عملي وفي مقدوري ان اجلس معكما ساعة .

فقال في جد - شكرا - يجب ان تنصرف توا لأمر هام
فهزت الفتاة رأسها في شبه حركة عصبية محاولة أن تخفي عواطفها
وقالت بصوت مخوف - مع السلامة . .

ومدت يدها لتصافحه . ولما صافحتني احسست باهتزاز أعصابها ،
فتألمت لها وازددت سخطا على القدر . لا يترفق بقلوب العذارى

• • •

سرنا متجانبين على مهل في الطريق المؤدى الى الحديقة العامة .
كل منا سارح في عالمه ، مسحور بأحلامه . ولما وصلنا المنتزة قادني
الى خيمة تشرف على النيل ، وأمرني بالجلوس على مقعد بحيث يرى
أحدنا الآخر ونرى النيل سويا ولا يرانا أحد . ولكنتي فضلت أن
نجلس في الهواء الطلق بعيدا عن الاشجار الكثيفة فأبى . ولما سألته
عن السبب قال - يراك كل من يدخل الحديقة .

قلت - لقد رأاني كل الناس في الطريق .
قال - نظرة خاطفة لا تضير ، لكن هنا الماء والخضرة وأنت .
قلت - وماذا يهمك ؟

قال — جردني من الحب ، ثم سليني هذا السؤال .
قلت — آه - لقد ذكرني بحدث الطبيعة .
فتجهم وجهه ، ولم يشأ ان استطرد ، فلم اكثرت وتابعت -
لقد سمعتك تهذي بمن تحب . !!

فانطلق وجهه وقال - وهل يخفى الزهر عطره ؟ أو يحبس البلبل
شجوه ؟ - واطرق . . وهنا حلق الطير أمامنا ، فنظر اليه مغمغما -
ذكرتني يا طير . . وكانت نغمته حارة . أيقظت مشاعري
قلت — ألك معه حكاية ؟

فانجبه نحوي قائلا - رف على مساء البارحة طير كهذا ، وأنا
غارق في أحلامي ، فايقظني بقبلة على جبيني ، واستطعت ان اقبض
عليه برفق ، فاشجاني - وأسمعني أعذب الأغاني .

فدهشت وقاطعته - عله طائري نقل اليك خواطري ، ولكنه
طائر جرى ، وأنت تذكر الجراءة في الحب كما تقول .

فقال بصوت الفيلسوف المتزن - الطبيعة لا تعرف الجراءة ولا
الحياة ، انما التقاليد هي التي خلقت الغضاضة ، أو الشرائع كما يقولون
الحمام يقبل بعضه بمضا على الدوح ، والموج يقبل الموج وتعلق القطرة
بالقطرة كأن بينهما صلة لا انفصام لها . ولا حرج على هذا ،
ولا عيب في ذلك . انما نحن نحرم على أنفسنا كل شيء بامم الشريعة ،

والشريعة فى الواقع لا إثم فيها لأنها تنزلت من السماء إنما الناس هم الذين شوهوا العقائد والشرائع ونسبوا اليها الأباطيل واسموها حقاً مشروعا. خذى مثلاً - الشريعة لم تحرم زواج الغنى بامرأة فقيرة - أو تبيح زواج امرأة جميلة من رجل دميم من أجل المال. بل بالعكس أهابت بالناس الى الحكمة والعدل والرحمة والحب والبر والولاء. ومعنى ذلك انه لا فارق بين غنى وفقير، وجميل ودميم، وعظيم وحقير. وإنما الفارق فيما يؤديه كل فرد من عمل خير أو شرير. نعرف ذلك وننكره لتعيش كما يرومون. ثم رفع صوته فى جد مردفاً - لقد علمتني الحياة بعد هذه التجارب، التى دفعت ثمنها من دمي. انه ليس هناك قوة يفاخر بها الانسان، ليست هناك قوة فرديه مطلقة. القوة للجماعة دائماً - ولو كنت مشرعاً، لكونت من كل فرد جماعة قائمة فى نفسه. عندما داهمنى البشاريون، استسلمت لهم لأننى فرد أعزل. ولو اننى كنت على استعداد لهذه المواجهة، لما أصابنى ضرر، وقوة الفرد الحرص والحذر والمسكر والقوة والشجاعة فقطاعته - أيمكن معرفة الغيب؟

قال - لا تفكرى فى هذه التحذرات، احذرى من كل شيء، حتى من نفسك. الغيب لا يخطر بلاء ولا شقاء. نحن الذين نعبد له الطريق، ونهيه له الحياة. كان يجب أن افكر قبل أن نجتاز

الصخراء . انه يحتمل ان نضل الطريق ، ويحتمل أن يداهمنا
الصوص ، ويحتمل ان يسىء بك الظن مجنون غبي ، ويسىء بي الظن
جاهل امي . فلو اننى أعددت العدة لمواجهة كل المآسى ، لما
أصابنا مكروه . كان يجب أن نفكر في النتيجة قبل أن نقدم .

قلت - اوه - لو كان الأمر كذلك ، لما مس الضر انسانا .
فاجابني - ورغم ذلك فلست بحزين إذ تعلمت ما لم اكن أعلمه
وهكذا ياسناء . من الآلام نتعلم الحكمة والفلسفة ، ونخرج من
المصائب والمحن ، بقلوب رحيمة أبية ، وأرواح خيرة .
وهنا توقفت عن المسير قائلة - حاذر أن يمتد بنا المسير الى
الصحراء المجهولة .

فضحك قائلا - وهي ذلك - فلن يحدث اكثر مما حدث .

قلت في الواقع نحن نجونا بمعجزة .

فقاطعني قائلا - لأن في الأجل بقية ، فأمنى بالله أشد الإيمان ،
واعلمى أن الله يحمينا اذا شاء ولو تألبت علينا قوى العالمين . ونظر
الى الأفق الواسع ثم تنهد بحرارة واستطرد . لطالما تمنيت وأنا أسير
بجانبك في الصحراء ان يمتد بنا الطريق الى الأبد . وان نفقد أنفسنا
فيه فنتحول من ماديتنا المحدودة الى الشفافية اللامحدودة . فضحكت
وقلت - اوه - لو كان للانسان ان يكون كما يريد أن يكون - لتغير

الكون في كل يوم ملايين المرات بعدد الرغبات . ولكن اتحسب
اننا نكون أجمل من ذلك ، لو انفصلنا عن عالمنا الانساني ،
وتلاشنا في ذلك التيه اللانهائي .

ومرت بخاطري أحلامى فاردفت - اسمع تمنيت مرة ، أن أكون
نسمة أو نجمة أو زهرة . واليوم لا أتمنى الآن أكون أنا ، وعلى هذه
الصورة التي جعلت انسا نا يحبنى ويضحى بحياته في سبيلي . وها قد تغيرت
عقيدتى من الشك والحيرة الى الايمان والاطمئنان ولم أشأ أن أصارحه
مع أنه كان في مقدورى ان اتحدث له عن عاطفتى . ولكننى
خجلت وأستحيت ورايت حبنى اجل من أن يصوره منطقى وبصوغه عقلى
ثم أطرقت رأسى لأخفى مدامعى ، ففهم وتجاهل وحارل الا يخرج
حياتى ، فلزمت الصمت برهة .

فقال - حسبك - حسبك - اخشى عليك من فلسفة حسبك -
قلت - وهاى للحس فلسفة ؟ انهم يقولون ان العقل هو الذى
يستخرج الخفايا من باطن الحياة ويسمىها فلسفة .

قال - تلك هى الفلاسفة الجافة . أما الفلسفة الحية الشاعرة ،
فهى من آثار الروح يا سناء . وانا أو من بان الانسان هو قلب
الحياة أعنى هو الفلسفة الضالة التي يبحث عقل الحياة عنها وقد
يتقمص هذا العقل في ذات الانسان فيبحث عن نفسه في نفس غيره .

فعدت أقول بلمجة الطفلة الساذجة - انك تعلمنى من حيث
لا تدري فزدنى - ثم استوقفته ونظرت اليه نظرة عجيلى مردفة -
حدثنى عن الفلسفة طويلا .

فضحك وقال - الفلسفة لاتعام ياسناء ، انها الحقيقة التى يختطفها
القلب الحساس من وراء اللامدرك .

قلت فى بلاهة - وماذا الذى أسميته اللامدرك ؟
قال - هو ما نسميه السر المجهول . ويقول الدين انه علم الله
أو الغيب ، فهزرت رأسى كمأنتى لم أفهم ، وأطلعت الى الأفق انظر اليه
كمأنتى ، استوضحه جلاء هذا الأمر .

ولم يدعنى أفكر طويلا فقال - التفتى بمائة رداء ان شئت - فانى
اراك بهم جميعا عارية - فحملت فيه دهشة قائلة - وكيف ترانى
عارية وأنا ملتفة فى مائة دثار ؟ ١ . . انك تخيفنى ١١ .

قال يا صغيرتى .. ان الصناعة لا تغلب الطبيعة ابدا : ابدا . . .
فالفيزيان اذا طغى - دم الجسور . لكل شىء طبيعته ، وطبيعة
الإنسان لا يمكن ان يخفى طبيعته . قد يكون من السهل عليك ، ان
تلبسى مسوح الكبرياء والأثفة والبلاهة والغباء وكل ما تتطلبه
مواقفك فى الحياة : ولكن ليس فى مقدورك ان تخفى انوثتك
وتستري عاطفتك أعنى حقيقةتك .

فسرحت بذهنى أفكر فيما قاله وهو ينظر الى ليرى تأثير كلامه على
وأخيرا قلت .. ان الانسان لا يكون عارى النفس الا امام شيتين
لا ثالث لهما - الموت - والحب .

فابتسم قائلا .. أعرفت الآن اننى اراك عارية النفس، أنا أعرف
نفسك ، فحدثني عن نفسى ، انك ترينها اكثر مما اراها . فنظرت
بعيدا كالحالة استعيد صورة بعيدة المدى عميقة الأثر لها فى صدرى
تمثال . ثم تملكت وغمغمت بلمحة اليأس .. اذا عجزت عن تصوير
شعورى الذى أحس بحرارته تسرى فى شرايينى .. ايمكن ان اتحدث
عن شعورك أو نفسك على حد تعبيرك ؟ واستوقفته لسمعنى جيدا ،
كأننى أريد أن اسمع العالم كله صوتى . فأردفت .. ان تصورى يؤكد ان
صدق الحب اسمى من جميع اللغات ، وأجل من كل التصويرات .
والانسان مهما أوتى من الفطنة والمعرفة ، لا يمكن تصوير عاطفة
صادقة شغلت قلبه ، وملكت ذهنه ، الا بذلك المنطق القاصر المحدود
الذى لا يمس غير القشور ، ولا يمكن ان يدرك ما وراء اللباب . ولعل
السبب يرجع الى أن الانسان فى حالة الحب الصادق يكون فى شبه
غفوة حسية . يسمع ويرى ويحس ولكن لا يدرك تماما الوقائع .
الا بعد أن يقننه من غفوته . لقد قرأت عشرات المرات ، أجمل ما
كتب عن الحب فى رسائل غرامية كتبت إلى ، واشهد اننى أخذت بها .

أخيراً يتمخض الواقع فيما بعد عن أنها كانت صورة للاخيلة الرائعة
التي يتسلى بها ذهن السكاتب طائعا واحيانا تكون أحبولة من حبائل
الخداع والتغدير .

فقاطعنى — ان الحب ياسناء يؤدى رسالته فى الخفاء . ثم يعلن
حكمه فى ضجة غير هباب بالأغلال والسيوف ، ولا بالقدر لو تحداه .
وهنا مر بنا جماعة ، فنظروا إلينا فى ربة . فخرجت واحجمت
عن المسير كأن هذه النظرة ردتنى الى صوابى ثم قلت : يا عجباً -
هل فى مشيتنا ما يريب ؟؟

فابنسم قائلاً — رجل وامرأة .

قلت — الا يتسرب الى الذهن انك أخى - وخجلت فصمت .
ولست أدري كيف مر بى ذلك الخيال . فليس من المعقول حقا ، أن
يكون أخى أو زوجى ، فهو بملابس رجل بدوى فقير ، وأنا بملابس
فتاة مصرية متحضرة . على انى تنبت الى هذه الحقيقة فاستطردت -
عد بنا ، إذ يجب ان أعود الى النزل توا ، وسوف أخيط لى رداء
كملايس نسائكم كى ارتديه كلما جئتكم . ثم تركته وهرولت أعدو
وحدى غير آبهة بنداؤه ، فلحق بى قائلاً بصوت خفيض ماذا دماك ؟؟
قلت بصوت مرتجف — لانى أخاف

قال — ان الفرد الذى يعرف كيف يغالب جماعة بذكائه ،
لا يخاف الحياة ابدا . انك اقوى منى ، فكيف تخافين مما هم دونى .

قلت — لا أستطيع ان احتمل نظرة ريبية من مخلوق . ولا أحب أن يشوه طهرى بسوء الظن .

قال بحنان اكيد - ياسناء لابد في الطريق من شوائب وتعثرات ، فغضى الطرف وسيرى في طريقك آمنة .

وترقب كلامى ، فلم افعل . ولزمت السكوت حتى وصلنا شارع البحر العام ، فأخذت طريقى الى النزل دون أن أحياه ، على انى سمعته يقول لى فى شبه همس . با كر صباحا عند الخزان .

صبح عزمى على ألا ألقاه ابداء ، لقد انتهت رسالتى إذعوفى والحمد لله . تشوّهت اخيائى ، وخبا ضوء احلامي طوال الليل . النظرة المريبة تتجسم امامى ، فتبعث الرعب فى كيائى . مر الليل بخواطره وهو اجسه ودلف النهار من وراء الأفق بأماله الحسان . ولم يكد يطالع النهار وجهى حتى مستنى كهرباء الرغبة العنيفة ، فاندفعت ارتدى ملابسى بسرعة كأنتى على سفر ، واخشى ان يقوم القطار .

ولما شعرت بوجودى فى الطريق ، هاجم عقلى قلبى وعاد بى الى الأحجام ، واستبدت بى الحيرة . مضى على الميعاد ساعة ويزيد ، إذن لاشك انه ينتظرنى . لا القلب يهجع ، ولا العين تدمع ، والعقل شارد حيران . يافتاة الخلو رويدك . سمعت هذا النداء يجاوبه

الفضاء . أى صوت انبعث من الغيب فاشجانى . وأى حنين انسكب
فى القلب فطواني .
أنت .

بغير وعى قلتها عند ما فاجأنى الأعرابى .
فقال — لا أسألك ، لم أخلفت وعدك . إنما أسألك ، لم تحاربين
قلبك فلم اجب من فرط ما دهانى من اضطراب وخوف . وتحفز
الحب يطالعه من عيني والألم يطفر على شفتى . فتركنى وغاب عن
نظري دون أن يتكلم .

حمدت الله الذى خلصنى منه ، وايقنت أنه لم يعد يحتمل جودى .
وتابعت خطاى بقلب ثائر وعقل شارد وجسم محموم . ولم تكذ تمر
بضع ثوان حتى عاد فى سيارة . ولما اقترب منى ترجل وامرنى بالصعود .
فارتبككت وترددت ثم انتهى ترددى بأن احجمت . واشد ما أدهشنى
أنه هو الذى يسوق السيارة .

قال بجد — اعتمدى على الله .
فزلت كلمته بردا وسلاما على قلبى ، واشعرتنى بالطمأنينة الهادئة .
قلت — اسأئق أنت ؟ ...
(ودار بخلقى أنه اكتسب هذه الصنعة بعد تمرين طويل ، لأنه

يسوق كما رأيته بمهارة سائق ممتاز — إذن لابد أنه احترف هذه
المهنة فيما مضى)

ثم ابتسم في مرارة وقال — أجل —

قلت — ومن أين أتيت بها .

قال استأجرتها .

قلت — وهل يعتمد الناس هنا على أمانة مجهول مثلك ، فانت
كما أعرف لست من هنا .

قال — دفعت لصاحبها تأمينا ريشما أعيدها له .

قلت — قيمة هائلة بلا ريب ؟

فعاد يقول — اركبي .

قلت — اعتذر .

قال — لم اشأ أن احضر سائقها ، لكي لا تحجمين بدعوى الخوف

الذي يعتريك كلما واجهت غريبا . فراودني الشك وتوجست خيفة

منه ثم نفرت منه قائلة — لن اذهب معك ، ودرت على عقبى ميممة

وجهي شطر المدينة مبتعدة عنه ، فاقترب مني واستوقفني قائلاً —

الشرف لا يهكمته غير صاحبه . فاذا كنت مؤمنة بطهارتك واثقة

من عفئك ، تعالى معي . اما إذا كنت تلبسين، مسوح الفضيلة كذبا

ورياء ، فاذهبي في طريقك (كالسهم صوب الى صدرى هذا القول .
فان اقدمت انتصرت لقوتي وشرفى وارادتى ، وان احجمت اتهمت
نفسى باللائم والبهتان والضعف

ولما اخذ مجلسه فى السيارة فى هدوء وكبرياء صعدت على اثره قائلة -
اذهب الى الجنة أو جهنم . لتكن مشيئة الله . وجالت بخاطرى شتى
الاحاسيس . وتصورت مستقبلى وما يمكن أن يكون فى بردى الغيب
وبدأت افكر من جديد فى ما لى بعد أن قطعت السيارة بنا شوطا
بعيدا حتى بلغنا الخزان .

* * *

وقفنا على سطح الخزان نتأمل الموج ، وهو يعانق بعضه بعضا
فى ثورة وحنان . ثم تمشيت فى تهيّب اتأمل بدائع الطبيعة الفاتنة ،
وهو يتبعنى فى سكون . وكأّنه بصمته بعث فى ذهنى سوانح الحاضر
ومخاوف المستقبل . فارتميت على الصخور المنبسطة بقرب العيون
التي تتدفق منها المياه . واشرت اليه بالجلوس ففعل ثم قلت - صمتك
اصبحت أخافه إذ ينقلنى إلى عالم غريب !

فقال بفتور — احمد الله .

فاغتظت ولذنتى تكلفت عدم الا كتراث وقلت - تبالك -

فقال دون أن ينظر الى - بدأنا !!!

قالت - نتناكر - لنفترق .

فلم يحب وسحب طرف ردائي القريب منه ، واخفى به وجهه ليقبله . فاحسست أنه لم يقبل الرداء ، بل قبل فؤادي فانتعش وارتعش على اننى تمالكك نفسى ، وتحصنت بقوتي مستمعة اليه وهو يقول - اجادة أنت ؟ ...

قلت - كل الجد - هذه النهاية المحتومة ، أولم أقل لك أنه حلم نهايته فى بدايته .

فقاطعنى - لا يا حبيبتي .

وكانت هذه أول مرة يدعونى بها هكذا . فاضطربت واندفع الدم الحار فى وجهى . لقد قرأتها مسطورة الوف المرات وسمعتها منغومة مئات المرات ، ولكىنى لم اسمعها ابدا كما سمعتها الآن . ولم يدفع الدم فى وجهى أى نداء محجب سمعته أو قرأته . فما بال كلمته تدفع الحياة كلها الى جسمى . ايقنت أن الكلمات لا تؤدى رسالتها الا إذا صحبتها حرارة قلب خافق .

واستمر يقول - ليس هذا التاربخ حلما كما تظنين ، أنه حقيقة واقعة صادقة ، لن تنتهى ابدا . لأن الله رسم عليها علامة البقاء

الأزلى - فقاطعته والدموع تجول فى ماسقى، ومختلج بتأثير حرارتها
شفتى - أنت واهم -

فاحتد قائلا - لا أعرف الوهم غير القلوب المريضة ، وأنا قلبى
سلم مؤمن صريح لا يعرف غير الصدق لأنه لا يقنع إلا بالواقع .
فوثب اعتدالى بنفسى من مكانه فى قوة ، وما كنتى غرور
الصبا وكبرياء الاستنارة

فقلت - كن مريض القلب أو سليمه ، ولكن هذا لا يمنعنى من
التصريح لك . باننى انتهيت من تأدية رسائلى . لقد تعذبت بسببى
لا أنكر ذلك ... ولكننى رددتك الى نفسك كما تروم .

فصرخ فى وجهى - أنت تحببىنى -

فضحكت ساخرة قائلة - أنا أحبك أنت - وهل يمكن أن يحدث
هذا ، ثم لزممت الجذ واعقبت - أبدا - محال -

فضحك طويلادون انقطاع ثم وثبت كرامته ، وها جمعتنى رجولته
وشاع من عينيه بريق غريب ، رد الى عواطفى المكبوتة . فبرزت
ملتزمة وضامة جذبتنى فى عنف الى مكان سحيق لا قرار له .

فانتصبت نائرة متممة .. ويحى .. دعى .. وداعا ...

فلم يتحرك من مكانه وظل يرقبى ، وأنا اخطوفى تعشر حتى بلغت

النتزه الصغير الذى اعد للراحة بالقرب من سطح الخزان. ثم اتميت
على العشب الأخضر - ابكى وضحك .. كالمجنون ... ابكى على
القوة التى اباهى بها ولا وجود لها . وضحك من فرط الاسى .
اليس مضحكا أن يتعلق قلبى برجل لا يليق بى - وكانت رنة ضحكى
احر من البكاء وكنت انتظر أن يلحق الرجل بى ، يرجو ويتوسل
ويبكى . ولكنه لم يفعل وظل فى مكانه يغالب عواطفه ليحترم
رجولته - لشدما يعجبني هذا... وان كنت أحب أيضا رجاء الرجل،
وتوسله وحنينه وبكائه ليشعرنى برقة حساسيته .

المسافة طويلة لا يمكننى اجتيازها على قدمى وليست هناك
وسائل للنقل . اضطررت أن اذهب اليه لأقل له - قم لتردنى الى
مكاني فلم يتحرك ولم يتكلم وحلق فى -

قلت - - الا تحقق رجائى ؟؟ ..

قال - لم ننته من الكلام بعد .

قلت - لقد انتهينا .

وكنت خادعة لأن شوقى الى حديثه فى هذه اللحظة ، كان اشد
من أى شوق مضى .

قال - اجلسى لنتفاهم

قلت - لا فائدة من هذا التفاهم .

فاردف - أنت مخطئة اذا حسبت ان تاريخ هذه الايام سوف
ينتهى بتمزيق الووفة من نتيجة الحساب - فتكلفت التلطف لأغريه
على تنفيذ أمرى لكى يعيدنى الى مكانى .

وجلس بجواره على صورة محتشمة قائلة - هيه تكلم .
قال - وقد أدرك اننى أخاف الدنو منه - فى مقدورى ان
أجعلك طوع أمرى ولـكننى رجل .

قلت فى جد - ولولا ثقى فى رجولتك لما سايرتك .
قال - وكان فى مقدورى أن أغريك بأعذب الأمانى -
فقاطعته - لست من الغوانى ياسيدى .

فتابعنى - المهم - ستسافرين غدا إلى الأفصر .
فتعمدت ان اكذب علّ ذلك يبرر موقفى فقلت - لقد عدلنا .
وسوف نعود توا ، حيث جاءتنى رسالة من خطيبي يحتم على السفر
با كر لعقد القران يوم الخميس المقبل .
وبدل أن يغضب أو يحزن أو يتكلفهما معا - ضحك فى طلاقة
وقال - لن يتم هذا الزواج .

قلت متكلفة الجد - اتهدى ؟ .
قال - أنا واثق مما أقول وسوف ترين - روحك خلقت
صنوا لروحي .

قلت — هب ذلك فما الفائدة وأنا مقيدة بغيرك .
قال — غدا تمزق يديك هذا القيد وتزنيه تحت موطيء السعال .
فاغرقت في الضحك متهمكة قائلة — من أدراك يا كاهن — فعاد
يقول — أفهم أن الزوج في نظر المرأة كحلية منتقاة تتجمل وتزهو
بها وقد تعثر وهي عذراء كل يوم على حلية تروقها وتتمناها — وهي
واجدة الحلي على طول الطريق كما تعلمين . انما المهم هل توافق الحلية
صاحبتها لو نأوشكلا وقيمة حتى تظهر محاسنها ومفاتنها ؟ . . .

قلت نزلت بمستوى الرجل الرفيع إلى المادة القانية
قال — أحيانا تكون الحلية جوهرًا لا تعادله أموال
الوجود كله .

قلت — وأخيرا ؟
قال — الحلية التي أخذتها لنفسك . ان سلمنا جدلا بأنك اخترتها
طوعا ، ستستغنى عنها .

فقاطعت — ابدا لقد تم التوافق ، (قلت ذلك وأنا اعرف أنه
صادق وانتي كاذبة ، ولكن موقفي يحتم على الكذب)
فقال — ياسناء . أنت تخاطبين انسانا لا حيوانا .
قلت — أعرف ذلك .

فاردف — لو كان هناك تفاهم أ كيد بينك وبين خطيبك ،

لأحجمت عن التطلع إلى النسيم العابر .

قلت بحدة — أنا لا أسمح لك ، ان تهيننى ، وهل ترانى خنته ؟

قال — ان مجرد التفاتك إلى أى رجل فى الحياة — معناه

خيانة للزوج أو الحبيب .

قلت إذا التفت بقلبي — أما مجرد التطلع بالعين البريئة فلا جرم

فيه فهد رأسه ، ومط شفتيه ، كأنه فى شك من قولى ثم قال — وفى

تغريرك بالناس خيانة بلاريب .

فثارت كرامتى وعادنى كبريائى فى ثورة فقلت — لم أأزملك

إلا رحمة بك ، وشفقة عليك . ثم أنى لم أحاول التغرير بك ، ولست

أنت الرجل الذى أسعى إليه .

فضحك حتى كاد يستلقى على ظهره ثم قال — سواء أهدأ

أم ذاك — فقد أحبتك وانتهيت .

قلت — وقد تعمدت أن أهينه لانتقم منه — ومن أنت حتى

تحبنى — ان حبك يقلل من قيمتى فعاد ضحك وقال — أتراك سلعة .

فما كنى الغيظ وقمت حانقة صاخبة قائلة بلهجة متوترة الألفاظ

الذنب ذنبى — إذ احترم رجلا دونى .

فلم تهدأ ثائرة ضحكة المتتابع كأنه يريد أن يفرغ كل ما به من

تركته وذهبت أبحث عن زورق أو سيارة تقانى إلى اسوان .
 أخيرا اتفقت مع نوبى أن يحماني في زورقه لقاء اجر رضى به ،
 وقد لمحت الأعراى يعدو مسرعا ثم اختفى وراء جدار الخزان ولم
 أعد أراه . ثم سار بنا الزورق ، وقد ركب معنا جماعة من النوبيين ،
 والى أهرب من شجونى قلت لهم غنوا — فابتسموا في وداعة
 يمتاز بها النوبى الملاح في أسوان . وراحوا يهزجون بالحنان البربرية
 الساذجة . وأنا أصفق معهم حسب إيقاع الأنغام ، وأغنى بغير كلام
 وكان وجودى معهم أوحى إليهم بأعذب الألحان . فارتفعت أصواتهم
 وجاوبها الموج والنسيم في شبه رنين حمل إلى أغنية الخلود . وقد
 نسيت الأعراى ، بل ونسيت نفسى بما غمرت به من شعور حلو
 طروب بعث الهجة في قلبى والدمع في عينى .

وفى منتصف المسافة التى تصل بين الشلال وأسوان فى النهر ،
 لمحت قاربا يدفعه صاحبه فوق اللجة ليلحق بنا . ثم سمعت صوتا
 يخاطب ملاح زورقى بلهجة نوبية . فأجابه النوبى بكلمة واحدة نوبية
 أيضا ثم أوقف المجذاف عن الحركة ، وكان القارب قد وصلنا ،
 فربطه بزورقنا بوسيلة حبل ، ثم دلف هو والأعراى فى زورقنا .
 لم ينقطع الغناء فى هذه البرهة ، لأن الطرب أسكرهم ، فانتشوا

بغير خمر . غصضت الطرف عن الأعراى كأتى لا أعرفه ، فلم يهاجم
صمتى وظل ساكتا حتى انتهى الغناء . وشملنا جميعا رهبة الجو
الساحر . وبعد حين اتجه نحوى الأعراى قائلا فى لطف وبلهجة
الرجاء — أيعجبك هذا الطرب الساذج الصافى .

قلت — بالتأ كيد لأنه نشيد القلب البرىء . وياحبذا
لو غنيتنا .

قال — شجنا أم شجرا .

قلت — هذا أو ذاك ، كلاهما له معناه السحرى . فقل ماتوجه
إليك هذه الطبيعة الساجية .

قال — كل ما حوالى يبعث الشجن فى نفسى .

قلت — يا عجباً - مع انه يهز أوتار النفس فتبعث شجوا طروبا
قال — أيمكن للببل الحبيس أن يترنم بغير الحان الشجن .

فضحكت متخابئة قائلة - اطلق نفسك - وحلق . كن مثلى طليقا
ثم انتصبت فى خفة مداعبة هذا ، مخاطبة ذاك . مبتعدة عنه بدون أن
يشعر . ثم ارتكزت على حافة الزورق ورحلت أغنى .

أيها الفنان أقبل	هاك دنيا وجمال
واستشف الستر من	بين آيات الجمال
وتأمل فى الصخور	الجائيات على الرمال

تلثم الأمواج أنا ثم أنا لانبال

♦ ♦ ♦

أيها الفنان أقبيل	هاك أرضا وسما
وجبال ورمال	وبها ورواء
ومياه ترتجينا	للغناق بلا مرء
وفؤاد مستهام	شفه طول الغناء

♦ ♦ ♦

وهنا أبت شاعريتي أن تتنفس ، فسكت على لوعة حارة .
قال — أتمنى .

فتصامت .

فعاد يقول — للشعر بقيه .

قات — في نفسي .

قال — أظنها .

وهب الحب هنا ... لك ياسر الهناء

فنسيت وجومي وابتسمت قائلة - هيه ها أنت انطلقت ...
إذن غنا . فقام من مجلسه وأخذ المجداف من الملاح وراح يحذف
ويغنى . وما كاد يحمل الاثير صوته إلى قلبي حتى شاع الحب في كل

جوانحي . وبدأت عاطفتي تهاجمني في عنف ، مطة من عيني في شبه
دموع فاطرت برأسي لأخفي اضطرابي ناظرة إلى الموج أداعبه
باطراف أنا ملي . كأنتي أنزف على قيثار أوتار من قطرات الماء . .

في الموج الحاني

بادية

في الأفق انغامي

رانية

البدر يزهو بغرامي

والكون يحلم بهيامي

النسائم لما رقت — داعبتني

والطيور لما غنت — جاوبتني

إلا أنت ياسناء

أنت لي كل الرجاء

ضقت بعاطفتي ذرعا ، وأحسست بالبرودة تتمشي في جسمي ،
كأنه صب ثلجا فوق رأسي . ثم شعرت بدوار في رأسي اسلمني
إلى شبه إغماء حتى تلبهت بعد لحظة ، وقد تبدلت البرودة إلى سخونة
غمرتني واكسبتني حرارة الحمى .

ولما بلغنا شاطئ أسوان ، لم أستطع حراكا ، إذ ثقلت أطرافي ،
واعترتني رعشة حادة انتفضت معها أوصالي . فوضع الأعرابي عباءته
على جسمي ، وأمر نوبيا باحضار سيارة . ثم حملني ووضعني في السيارة

بحنو ورفق ، وأمر السائق أن يذهب بنا إلى أشهر طبيب — فاعترضت
قائلة — لا ان ما بي من نتيجة الجهد الذي كابدته وقليل من
الراحة يكتفى لإعادة العافية الى .

قال — لاضير على كل حال من استشارة الطبيب .
قلت — أنا أعرف بنفسى من الطبيب ، وتصنعت القوة قائلة .
انا أحسن الآن وأمرت السائق أن يذهب إلى نزل (سان جيمس)
وحاول أن يخضعنى لمشيئته ، فازددت اصرارا حتى اضطر لمرضاى
ولما وصلنا الفندق ، ترجلت قبل أن يساعدنى على النزول . ولقد
كنت فى أشد حالات الخى ، ولكننى غالبتها لىكى لا يحملنى . فابتسم
على مضض وقال بصوت خفيض — سأرسل اليك طبيبا ليطمئننى ،
وتركنى دون أن ينتظر جوابا .

الفصل التاسع

الله اكبر ، الله اكبر ، الله اكبر . بدأ المؤذن يسبح الله وكل من
في السماء والارض يسبح معه حتى النور في الكون يجاوب صداه ،
في كل حي يسبح جهرًا وخفية ويدعو الله في خشوع ورهبة أن
يحقق آماله ، ويبعد عنه شيطانه ، ويكتبه في سجل المؤمنين المهتدين .
لم ينفعني دواء الطبيب كما نفعني ايماني بالله . فكنت أحس عقب
كل صلاة ان يدا خفية تمسح عن صدري آلام علتى ، وتبدد
حرارة الحمى باعثة في نفسى أمنا وصحة . وكأن المرض خلق في
نفسى قوة روحية عجيبة ، قهرت كل المطامع المادية ، واحتفظت
بأمانى الروحانية ، فرحت اطلع الى المثل العليا كأننى خلقت مبعوته
من قبل الله لؤدى رسالة عالمية . رسالة الحب والرحمة والسلام .
لم اترك الفندق حسب تعليمات الطبيب الذى كان يعاودنى كل
يوم ، وقد فهمت من حديثه ان الأعرابى موصى على من جهة
والدى ، وانه يدفع الأجر وثمان الدوا على حساب والدى . وقد خفت
ان اكذبه فيفتضح امرى ، لذا ارتضيت بالأمر الواقع مرغمة خوفاً

على من رفيقاتى . بعد ثلاثة أيام من تاريخ مرضى
فى طريق الأقصر

عندما كان المؤذن ينشد لحن الفجر ، ويشارك الملائكة فى تسبيحهم .
كننا فى طريقنا الى الأقصر ، والمسافة لا تبعد كثيرا ولا تزيد عن
ساعتين ونصف ساعة تقريبا . ولما هبطنا الأقصر لجأنا الى الفندق
لغير ملابسنا ونحجز أما كننا .

ولما كنت فى دور النقااة اضطررت أن أأزم مضجعى فى هذا
اليوم ، حيث شعرت بتعب . على أن رفيقاتى خرجن إلا صاحبتى
لازمتنى رغم ممانتى .

وثانى يوم شعرت بتحسنى فى صحتى ، وقدرتى على الخروج
فصحبت صاحبتى وخرجنا نتعشى على مهل . وسألنا مرشدا فى
الطريق عن دار الآثار ، فقال أنها على مسافة بعيدة ، فركبنا سيارة
لأن صحتى لا تساعدنى على المشى الطويل .

زرنا الكرنك وفيه يتجسم نبوغ العقل البشرى الصانع ، وقدرته
على أن يخلق من الحجر فنا خالدا على مر الأجيال والدهور .
وعرجنا على بعض الآثار وفجأة عاودنى الدوار ، فرجوت صاحبتى
أن نعود توا قبل أن تداهمنى الحمى . فتأبطت ذراعى وحرصت على
راحتى . وعندما تحركت لأركب السيارة لحمت الأعرابى واقفا عن
بعد ينظر إلى من طرف خفى ، لكى لا يشعرنا بوجوده . ولما سارت
بنا السيارة رأيته يجلس على صخرة يحاول أن يتأملنى فرفعت يدي

إلى رأسى فى حذر أحبيه وثالث يوم عاودتنى الحمى فلزمت الفراش
وفجأة طرق بابى طبيب من الأقصر ليعاودنى وأفهمنى ما أفهمنى إياه
طبيب اسوان .

وكان هذا الطبيب لطيفا وديعا ، اعتنى بى عناية اثبتت لى اهتمامه
بى أكثر من اللازم ، وتردد على فى اليوم ثلاث مرات ، وكثيرا
ما غير الدواء كلها وجده لم يجد نفعا ، وبعد أيام زالت عنى الحمى .
وأمرنى أن اعتكف بعض أيام آخر لا كون تحت رعايته ، فانزويت
فى غرفتى مرغمة أفكر فى مرضى راجية من الله أن يردنى الى بلدى
سالمة من أجل والدى . ثم يشرد ذهنى رغما عنى وراء الأعرابى ،
فاشعر أنه اقترب من نفسى أكثر من ذى قبل . ولا يخرجنى من
صومعة أحلامى الا صوت الطبيب وهو يسألنى كيف حالى وبعد أن
تحسنت صحتى جاءنى الطبيب مبكرا وحدثنى عن نفسه طويلا ، حديثا
صريحا لا تنميق فيه ولا رياء ، وكشف لى عما آسى فى حياته من
مصائب ومحن ، مما جعل قلبه يشيب قبل أن يشيب شعر رأسه .

وكان من الطبيعى ان أرفه عنه وأعزيه ، وعجيب ان يفتح لى
الرجل صدره فى لحظات كائناتى عاشرة منذ سنين . استغرقت هذه
الزيارة أكثر من ثلاث ساعات ، عرفت فيها حياة الرجل وأمانه ،
وعرف فيها أنتى فتاة حاملة أسعى الى المثل العليا . وانصرف أخيرا
وهو يقول — يخيّل لى أنتى ولدت اليوم من جديد وان الغيب بدأ

يتفتح عن أمل بهيج ، وهأنذا الملح نجم حظى يلتهم . كل شيء في
هذا الطبيب جميل ومغري ، قسماته وأخلاقه ، عدا شيء واحد . .
إحاده — انه مسلم بالوراثه ولكنه لا يؤمن بالله أيمانا مطلقا يظن
أن الطبيعة هي القوة الخالقة . وما الله الا الطبيعة ، اقترب من نفسه
بدمائة خلقه ، ولكنه لما أفصح عن آرائه الدينية . نفرت منه وتلاشى
عطف عليه وأخيرا انمحي ما كنت اطمع ان يكون بيننا من تعارف
اكيد واقام الخوف منه حاجزا منيعا بيننا لا يمكن اجتيازه
وعاودني ظهرا وكانت حلتى قد زادت تحسنا ، فلما اطمأن على
فاجأني — الا تزوجين؟؟

قلت — لا افكر في الزواج الآن مطلقا .
كانت جرأة غريبة منه ، لو حدثت من رجل أحبه لرحبت بها ، علقت
عليها أكبر الآمال ، ووضعت يدي في يده لأحققها ولو صار حنى
بها هو قبل أن أعرف إحاده لاجبته جوابا يبعث الأمل الى نفسه .
أما الآن فيخيل إلى أن دينه غير ديني — فحال إذن ان تتفق مادام
الفكر لم يؤلف بيننا

وعاد الطبيب يقول — ما رأيك في —
قلت وأنا أشد أطراف ملامة السرير بأسناني في شبه اضطراب ،
فليس أصعب على الفتاة من موقف كهذا . تتمنى الرجل وتراه
كفؤا لها ، ولكنه ترفضه لعيب فيه لا يمكن اقتلاعه ، ثم قلت
بصرامة — رجل ناضج ينقصك الايمان لتكون كاملا .

قال — إنك كالناس ، تفهمون جميعا الدين عن خطأ ، تفهمونه بالوراثة ولا تدركونه بالعقل .

قلت — وانت مخطيء . اذا اعتمدت على العقل في اثبات الله .
انه القلب ياسيدى . ان قدماء المصريين ثبتوا بفنونهم أن لهم عقولا كبيرة مفتنة قادرة . وقد كانوا لا يؤمنون بالله ، فهل هدتهم عقولهم الجبارة النابهة على تعرف الله . وأنت اذا لم تحس بنور الله يضيء قلبك ، ويدفعك إلى الإيمان به والخضوع له مرغما . فانك بعيد عن اليقين بعد السماء عن الأرض !!

قال — هذه مسألة شخصية لا تتعلق بالحياة الزوجية .
قلت — . وهل تطيب الحياة بغير الإيمان ؟ انك إذا كفرت بالله فأنت كافر بكل شيء ، تفهم كل شيء بعقلك مؤمن بتضليله ، وأنا مثلا أفهم كل شيء بقلبي مؤمنة بإيمانه .

قال — وكيف إذن يتفق المسلم والمسيحية في تزوجان ولكل منهما دينه وعقيدته .

قلت — هكذا يبدو للناس ، انما الواقع غير هذا .

ان رب المسلم هو رب المسيحي وان اختلف الاتجاه الفكرى الذى يرتفع بصاحبه إلى الله . والخالق الواحد الذى جمعهم هو الذى بعث النور فى قلوبهما من قبسه والعالى ، فتحابا دون أن يفكرا فى

الدين. لقد ألفت الحب بينهما فارتفع بالإنسانيتهم من قواعد الأرض
المألوفة إلى مراسيم السماء المحققة. وأصبح دينهما الحب والحب هو
إدراك معنى من معاني الله. وعندما هم بالكلام دخلت صاحبتي تتبعهما
الرفيقات، فانتقل إلى الحديث عن صحتي ثم حيائي وخرج.

بالغربة الحياة ؟ ! . . .

تمنح وتمنع !! . . .

الأعرابي مؤمن ولا يلائمني . . والطبيب ملحد ويلائمني .
نمت نوما عميقا على أثر تناول الدواء كأن به شبه مخدر . ولم أصبح
في صباح اليوم التالي ، سألت عن الطبيب فوجدته لم يحضر ،
ونارلني الخادم رسالة باسمي .

« سناء . . .

أحتمل كل شيء إلا هذا . . .

مكث الطبيب في عيادتك حوالي اثلاثة ساعات . . أكاد أختنق
أمرته بعدم معاودتك بدعوى أنك لست في حاجة إليه . وإذا جاءك
اعتذري ولا تقابليه وسأرسل إليك غيره . .
أنا أعرف كيف تقضي أوقاتك من بعيد
واقلي اعطر تمنياتي

الهامي

يا عجبا أجالس بالمرصاد أمام نافذتي؟ أم تراه ساحرا! لقد أطلت أكثر
من مرة فلم أجده ولم أره . أتراه في مكان لا أراه منه! لشد ما يدهشني
أمره . يتمقبنى مع أنني حريصة متكتمة لم أخبره بعزمي على السفر إلى
الأقصر . فكيف عرف؟ تذكر الطبيب فتأملت لهتك كرامته ،
وانتويت أن أقابله إذا حضر ، وقد انتظرت ميعاد عيادته بصبر حتى
حان فسمعت حركة غير عادية أمام باب غرفتي ، ودخلت الخادم
تناولني بطاقة باسم الطبيب الأول وأخرى باسم الطبيب الثاني .
ملكني الفزع وانتابتني الهواجس وفكرت طويلا - فما عساي
أفعل . وأخيرا قلت للخادم أدخلهما معا ، وليكن ما يكون .
قالا بصوت واحد - (قومسيون) يا آنسة ، ثم ابتسما .
فضحككت بغير صوت قائلة - لقد مللت المضجع ، ولقد جئت
للرياضة . أريد أن تعاودني صحتي ، كما كانت لانطلق كالطير في الخلاء
فكشفت كل منهما على بمفرده ، واتفقا على أن حالتي غير خطره وأن
ما بي من حمى قد زال عني وאתني في دور النقاهة . واستأذن الطبيب الثاني
ناظرا لرفيقه لكي يخرج معه ، ولكنه قال بالفرنسية أنه سيعطيني
حقنه تحت الجلد فصدق الطبيب وخرج ، ولما خلا بي الأول أحر
وجهه وقال بلمهجة العاتب ، لم رفضت عيادتي - هل أسأت إليك؟

قلت — معاذ الله ، بل أحسنت . وقبل ان أتمم حديثي دخلت
الخادم مخاطبة الطبيب — رجل بالباب يريد أن يلقاك على عجل .
فأجابها بفتور — من قبل مريض ولا شك ، دعيه ينتظر .
فخرجت الخادم ثم عادت توا تقول له — الرجل ثائر ويلح .
فقال في حنق — ليذهب الى غيرى — قولى له ذلك .

لكنها لم تخرج وتلكأت وأظنها تعمدت أن تظل في الغرفة
متعمدة ترتيب النضد ، مع أنها ليست في حاجة الى الترتيب — وأعاد
عليها الطبيب أمره — قولى له ينصرف أن كان عجلاً
فقالت — ان الرجل ثائر ولا يرده الى صوابه إلا أنت —

فهمز الطبيب رأسه كالمغيط وتمتم . . لحظة . . وخرج يعدو . .
مرت اللحظة وتبعها لحظات ولم يعد — قلت للخادم بعد أن داخلى الشك
من هذا الرجل ؟

قالت — اعرابى يقول ان مريضة في خطر .

كان ذلك يكفى لأن أفهم ما حدث ، وليكننى لم اشأ أن أجزم
حتى أتبين الحقيقة . لم يعد الطبيب في ميعاده ، وعاد الآخر فتناومت
لأننى مللت تتابع الحوادث — فخرج بعد أن أخبر الخادم أنه سيعود
في صباح اليوم التالى . قضيت الليلة على أسوأ حال ، بما انتابنى من
وساوس وأوهام ، وفي الصباح تعمدت أن أخرج قبل أن يعاودنى

الطيب - فقد كان رجلاً ثقیلاً الظل خلا حديثه من اللطف الذى
يبعث الطمأنينة فى نفس مكالمه .

استقلت سيارة وحدى وذهبت لزيارة الهياكل . وهناك فى
الأفصر مملكة لمعابد القماماء فيها الآلهة والملوك والملكات
والحاشية . وكل ما يحتاج اليه سكان المملكة من نوازم الحياة ومطالب
العيش وكمالياته

وبينا اتأمل تاريخ الانسانية القديم المسجل بحروف صخرية
خالدة سمعت حركة المحاذير قتلقت واذا بالأعرابي . كانت مفاجأة
لم أتهيأ لها ، وأظنه عرف ذلك عندما حاولت الكلام . فصعب على
فلم يحاول أن يرهقنى ومد يده فى سكون ليصافحنى فبادلتـه التحية
دون كلام . وتابعت خطاى فاستوقفنى قائلاً - سناء - اجلسى
هنا - وقد أشار الى قاعدة تمثال رمسيس فمززت كتنى بمعى - لا .
فقال بلمهجة الأمر كأن له على حقاً مشروعاً - هذا آخر لقاء .
فقاطعتـه - الحمد لله .

قال - هنا أعنى ، لأراك ستسافرين غدا عائداً الى بلدك .
على أننى سألقاك عما قريب .

فأدهشتنى لهجته الأكيدة ، فتحديثه قائلة - اتطأنى فى بلدى حرة -
لا سيدى . الى هنا - وينتهى ما كان بيننا من تعارف .

فضحك طويلا ثم أعقب بضحكة جافة عميقة أكتسحت الأمن
من نفسى وحل مكانه الخوف ، وتلفت حوالى أرى من منجدى لو أساء
الى — فلم أجد الا نفسى : فارتيمت على حافة التمثال مستسلما للقدر
معتمدة على الله

فقال — أنا أعرف ما يحول بذهنك . اسمعى أنت مغرورة .

فغضبت لاهاتى وقلت له فى ثورة ، كيف تجرؤ على اهانتى .
فجلس أمامى متكئا على عصاه قائلا — ومخطئة أيضا ، إذا حسبتنى
دونك . قد أكون فقيرا ، ولكننى لست حثيرا . وقد أكون متواضعا
ولكننى لست ندلا ولا جبانارا ولا ضعيفا ، وقد أكون جبارا ولكننى
لست ظالما ولا قاسيا . وقد أكون أنايا ولكننى لست بخيلا . وقد
أكون متهاونا فى حقوقى ولكننى لست كافرا ولا ملحدا .

لقد جئت الآن لأرسم معك الحياة التى ترضيك فماذا تأمرين ..
ولزم الصمت ليرقب كلامى . فسكت لأن قوة خفية أطلت من عيفيه .
فارهبتنى وأفزعتنى وردتنى إلى نفسى ، وقد بلغ بى الضنى منتهاه ، فتخاذلت
وقهرتنى دموعى . أخيرا قلت بشفتين مرتعشتين قبللهم دموعى —
لا تضع وقتى سدى ياسيدى . . . لا فائدة ، فاستأنف حديثه قائلا —
ماذا يخيفك ؟ . . . ستكونين أميرة . .

فاغتصبت ضحكة وتمتمت بلمحة بطيئة على النغم .

فنظر إلى في جدوكبرياء حتى تخيلت عظمة الأثارة توجته لكن
سرعان ما تلاشى ذاك الخيال على عجل عندما تأملت الجسم السقيم
الجالس أمامي والملابس البسيطة التي لا يرتديها غير فقراء البيد .
وعدت أضحك وأنا أقول — فلتفسح يانفسى مكانا لذك الحلم
قال — لا تراوغى ، الحب فى عينيك يتكلم .

فأرخت جفونى متممة — حى — هه — ربما — إذا كان فم وخطيبى ،
ثم تلعثمت فاختمت الكلمات فى حلقى . وكشف الاضطراب عن سرى .
وشئت ان انهى ما قلته

فأردف وقد تجسم الجذ فى الفاظه — ياسناء — أنا لا أغريك
لألهو بك فلست أخا اغراء ، ولاكننى أدعوك لتكون زوجة خيرة
حبة محبوبة .

كانت لمجته حارة تفيض بالصدق والحنان يلزمها الأمل والرجاء .
ما أسخف الأحلام — لطالما تمنيت أن اتزوج بقلب غير آبه
بظواهر الجاه .

وهاهو القلب بين يدى فالى أردته فى جفاء ؟ : .
ولطالما تمنيت الكوخ والقلب . . وهاهو القاب والكوخ ، فقال
ارتد عنهما الى مطامع الحياة . عظمت قيمتى فى ناظرى وأيقنت أن
الوهم بلانى بما يشبه الأحلام . وشئت أن أكون أكثر صراحة عل
الصراحة تحدد موقفنا فقلت — إذا كنت أنا مغرورة كما تقول ،

فأنت أيضا مغرور في ؟ فلست أنا الفتاة النابهة القوية التي يمكنها أن
تضحى بالأوضاع والتقاليد في سبيل زوج لا يمت لأسرتها بصلة
القومية — مركزك وعملك يتطلبان فتاة بريئة حلوة ساذجة من
بنات البيد ، تحملت لنفح الشمس منذ الصغر ، والمعيشة في الأرض
الجرداء المقفرة . أما أنا فلا يمكن أن أعيش في واديك الموحش !!

فمز رأسه قائلا — آه — فهمت مركزى كرجل فقير وعمل
كجمال لا يتناسبان مع الأنسة المحترمة — هه — هذا ما يشغل
خاطرك — أليس كذلك ؟ وهل في العمل حقارة ياسناء .
كل عمل شريف في حد ذاته له قيمته في المجتمع وتأثيره في الانسانية .
ثم تكلف ضحكة قصيرة ، واستطرد — على أنه في مقدورى أن
أزاول أى عمل يروقك . أناجر في أى بضاعة مثلا — وكأنه بذلك
الأعتراف انتشأنى من هوة سحيقة كدت أتردى فيها فقلت على
الفور — وهل معك من المال ما يكفى ؟؟

قال — لا تخافى ، فلن أمد لك يدا ، فأنتى حريص على احترام
رجولتى وكرامتى . فقول ليها كلمة واحدة — ولن تندمى عليها فأنت
الرايحة الحياة جميعها .

تنهدت في حرارة قائلة — ياسيدى .

فقاطعنى — لست بسيدك ، ولـسـكنى صنوك ولا أقول عبدك
كما يقول العامة • فانه ليس من المعقول أن أبيع حياتى لك لقاء قلب
فى وسعى أن أملكه عاجلا أو آجلا .

فزادت قيمته فى ناظرى بهذا الكبرياء المشفوع بالقوة اللطيفة
وقلت — ليست المشكلة فى أن أقبل أم أرفض ، أو أحب أم لا ...
انما الأمر ليس فى يدى . فكر فى التقاليد التى يحترمها أهلى وقومى
ولا بد أن أوفق بين رغبتى ورغبة أهلى ، حتى لا يتهمونى بالعقوق
والفجور — وعليك أن تفهم اننى مخطوبة .

قال — دعنى أقوم بتحقيق الغاية وحدى . انما افوضى على من
سناك قبسا يضىء لى ظلمة الطريق ، ثم سحب يدى برفق قائلا —
سنا قولى التحميدنى أم لا - واقسم لك ، اننى على الحالين صابر .

لم يعد فى امكانى مطلقا ان اكنم هواى ، غاب عقلى وتنبه قلبى ،
فقلت بصوت تجمعت فيه أنغام عواطفى الماثرة الحية - أجل
أحبك ... ثم أطرقت استحياء وخيل إلى أن عاطفتى اذابتنى
وحولتنى الى الدموع التى انهمرت من عيني فنجلت من ضعفى
وقت مسرعة لأخفى اضطرابى متوارية خلف إحدى الهياكل —
أما هو فقد ظل فى مجلسه ساكنا لا يتحرك كأن كامتى أسكرته ،
ثم دار برأسه يبحث عني فلم يجدنى ، فانتصب واقفا ثم تمشى باحثا

عنى . ولما اقترب من المسلة وقف يتأملها مليا ثم استند عليها
وراح يغنى .

ياملا كى لست إلا شمسى العليـا تنير
اهرق الأشجان ظلا لها وانا والسعير

وأرى الأموات تظمر من وراء الصخر تبسم
ترقب الأفلاك تسكر من شراب الحب تنعم

يا فتاتى عانقنى عانقنى القلب الولوع
من شرابك أسكرينى جففى نار الدموع

...

أنت تجرين بقلبي
مثل نور و يقين
قربى اليوم فؤادى
يتزود من معـين

أيها الأموات قوموا وهاشم يدرا عهد الخلود
هشونى . . . هشونى لاح نجمى للوجود

وما كاد ينتهي حتى ظهرت أمامه كالطيف الحالم قائلة بصوت
هاديء متكسر كأنه آت من وراء القبور :

أخرجتني أيها الشادي من قبري .

قال — من أجل ذلك ناديتك ، فتعالى . . .

وفتح ذراعيه وضمهما في عنف كأنه يعانق جسما محسوسا .

قلت بلمحة صارمة كأنني ملكة جئت من وراء المعابد أيها الرجل .
اتد وإلا دفناك في أعماق بؤره ، ونظرت إليه بجذو وكبرياء ، فلم
يتحرك وظل في مكانه مبتسما ، يضم ذراعيه على صدره كأنه يخشى
أن يفتحهما ، فيفر منه إنسانه . وانتهزت الفرصة وعدوت بسرعة
ثم استقلت سيارة عائدة الى الفندق .

في مضجعي هاجمني ملاك الحب ، فصور لي التضحية في رسوم
وضاءة أنارت لي ظلمات الحياة ، وسهل أمامي كل عسير ، وأيقنت
أن الحياة بدونها لا تطاق ، ولكن ما عساي أفعل . اتخاف من
رفيقاتي وأعيش في كنفه وتحت حمايته . سيعقب ذلك ضجة هائلة بلا
ريب وأكون في عرف القانون والمجتمع مجرمة . هل أذهب الى أهلي -
وأتركه يتقدم لهم ، سيكون الرفض حليفه . وإذا قررت معه
كأنني خرجت على دينهم :

لا القلب يقلع عن هواه - ولا العقل يرشدني الى سلواه - ويلاه .

لا أنا ضعيفة فأستسلم وأخضع ، ولا أنا قوية فأتمرد وأنجح
ثم اتجهت بفكرى نحو مشا كلنا الاجتماعية وما أسينا الحيوية. فرأيت
أنه من العبث أن أتمرد وأثور . إذ التمرد فى بلادنا جنون والثورة
عقوق . والرجل الذى أضحى من أجله لا سلطان له يحمينى ، ولا
جاء له يرد عنا السنة المتقولين . إذن لا مندوحة لى من رفضه ،
وتجسم ذاك الخيال حتى أفزعنى وردنى الى كبريائى وتحصنى ،
فتلاشى ذلك التيار الكهربائى الذى مسنى منذ لحظة . وحل محله
اليقين الثابت والعقل الراسخ .

أعددت حوائجى فى صمت على أمل أن أنساه . ولما حان ميعاد
الرحيل طاب لى أن أشتري بعض الهدايا الاثرية لصديقاتى . وفى
منتصف الطريق استوقفتنى قائلاً — صونى نفسك لى حتى اجيئك
واذكرينى . وتركنى وهرول مسرعاً — يا الله — كيف هان عليه أن
يتركنى دون تحية . وهمس خيالى فى ذهنى بأسلوب الحكمة ، أنه
يحرص على كرامتك فلم يشأ أن يستوقفك لىكى لا يلفت اليك أنظار
المارة . حكمة صحيحة معقولة واستساغ قلبى هذه الحكمة ، وبان فى
ناظرى من جديد تحوطه هالة من النور جذبتنى اليه طائعة ، وصور
لى القلب حبه الهائل المشبوب فى صورة ملتمة سحرتنى وقيدتنى
به . كان فى مقدوره أن يخططنى ويقيدنى بالأغلال لأعيش عبدة

له ، وكان في مقدوره أن يستغل وداعتي ولطفى ويغرينى على الحياة بقربه - ولكنه يريد أن يأخذنى موفورة الكرامة محفوفة بالطهر والكبرياء . أليس معنى هذا أن الرجل نبيل . وأى شيء أحب إلى المرأة من نبيل الرجل . . . حسب .

صح عزمى على تنفيذ أمر خامرنى فسرت فى الطريق الذى اجتازه باحثة عنه حتى وجدته جالسا تحت ظل شجرة باسقة . وانمحي من ذا كرتى كل ما كان يحول فيها منذ لحظات . اعتدل فى مجلسه ثم وقف وعلى وجهه معنى الرغبة إلى سماع حديثى . فلم أقو على النطق ولم أقدر على الكلام .

قال - أظنك جئت لوداعى ، لم تكافئ نفسك هذه المشقة . فطربت لهذا المخرج من مأزقى وقلت - أليس من الواجب أن أودعك . قال - لا . . . ولن . أقبل هذا الوداع - ومد يده مصافحا الى اللقاء .

ولو أنه جذبنى اليه فى هذه اللحظة ، لما ترددت مطلقا ولو قال لى ابق بجانبى لما خالفته . ولكنه لم يفعل هذا ولم يقل ذاك ، فصعب على أن أكون أنا البائدة ، وأن أهبط من ارتفاع كرامة الانوثة إلى جراءة غير مشروعة . وان اسفك دم كبريائى فى سبيل حب لا اعلم نتيجةه . وعندما تحركت لا نصرف استوقفتنى قائلا - كنت أتمنى أن

استبقيك ولكنني أخشى : وكأنه انقذني من نار شجوني . ودفع
الجرأة كلها في روحي

فقلت على الفور — مم تخشى ؟؟
قال — تظنين رغبتى اغلوطة آثمة .
فنظرت اليه في حنان قائلة - ابدا . . . ابدا . . . انك ملك ،
وبدأت أسبر على مهل في تعثر . لكنني عدت اليه قائلة - سأملك
نجانبك الى الأبد - انتظرنى هنا .

صعق الرجل أطرق برأسه ليخفي اضطرابه كأن صراحتي ألهمت
وجدانه بينما أسرعت الخطى لكي أبلغ الفندق بعد دقائق معدودات ،
متصورة الزمن يعدو بأقصى سرعته لكي لا يترك لي وقتا لاقتناص
فرصتي السعيدة .

أخذت حاجياتي وسلبتها لجمال ، وأمرته أن يتبعنى ، ووطدت
العزم على التخلف والبقاء بجانبه راضية به زوجا حبيبا قانعة بكوخ
وقلب ، وقبل أن أمشط الدرج اعترضتني رفيقتي قائلة —
لم تأت السيارة بعد .

قلت — أعرف ولكنني مضطرة للخروج لكي اشترى مانسيته
من هدايا . وإذا حضرت السيارة اسبقننى وسوف الحق بكن هناك .
وكنت انكأ لاهثة بصوت متعب وانفاس متقطعة . ثم هبطت
الدرج قفزا متخيلة أن يدا خفية ستقبض على لتحول بينى وبين
تحقيق أمنيى . وبعد أن قطعت مسافة لا يستهان بها في الطريق .

هالنى أن الرجل ترك مكانه . يا لضيعة الحب . . . هل فر لما وجد
نفسه أمام الأمر الواقع . تلاشت هذه المكرة الخاطئة من فرط
ثقتى فيه فتابعته خطاى ، ولمحتة عن بعد واقفا بالقرب من سيارة .
فأطمانت وأيقنت أنه أحد العدة لفرارى . وقبل ان أصله سمعت
صوتا ينادينى ، وتكرر النداء ، ثم سمعت حركة انسان يجرى .
فظننت ان بعض رفيقاتى تبعتنى فتوجست خفية ، وتلفت خلفى فاذا
بخدام الفندق يتادينى . ولما توقفت عن المسير سألته ما الخبر ؟
فماولنى تلغرافا وهو يقول . . جاء ثواب . لقد لحقت بك على عجل
لكى أبلغك ولقد اجهدنى الجرى المتواصل .

زاع بصرى واضطرب قلبى وارتعشت يدى ، وبالهول الخيال
عندما يسمع كلمة تلغراف حتى ولو كنا تغرف أنه تهته
لاحالة اضطرب . وقد يؤدى الاضطراب إلى مالا محمد عقباه
« احضرى على عجل والدك فى خطر »

أخوك

وكان ذلك يكفى لأن يردنى الى صوابى . صرخة واحدة
خرجت منى - أبى - خرج معها كل ما فى قلبى من حب وأمل ورجاء .
نكصت على عقبى وعدت من حيث أتيت . وأنا أغغم بصوت
مخنوق محزون . . .
أبى . . . أبى . . .

لفضل العاشر

بعد العودة

ثم مت فراشى عقب عودتى مباشرة غير عليمه بما فى — أهى حمى
الجسم أو حمى القلب . لم يحدث لوالدى أى خطر ، ولكن الوالدة
اشتاقتنى فطلبتنى على هذه الصورة . ومع إحساسى العميق بأن
الأعرابى ملاء خواطرى وشعورى يسامرنى خياله فى وحدتى وخلوتى
ويلازمنى فى غفوتى وصحوى . لكننى حمدت الله الذى خلاصنى منه وأهاب
بى عقلى من جديد إلى التأسى والتناسى . واستنكرت تصرفى الخاطىء
الذى كاد يدفعنى إلى الجحيم . وبقينا أن حياة الإنسان كلها نتيجة
فكرة فى ساعة جنون ، ولما حدثت والدنى بشأن الأعرابى دون أن أشعرها
بالحقيقة الرهيبة ، ومن غير أن أتهم نفسى بحبه . ريعت وخالجهما
الشك قائلة — حذار يا بنتى أن يكون قد عرف اسمك ، وبلدك ،
ومقرك . انهم يقولون أن العرب تتمسك بالحب كما يتمسك المؤمن
بعقيدته ، وفى سبيل الحب يضحون بحياتهم ، وأخوف ما أخافه أن
يسعى الرجل إليك ، ويختطفك بتأثير مخدر الحب الجنونى .

قلت — اتى أعفیه من الجنون یا أماء . . فان نفسه أظمر من
ماء الوضوء . فهزت رأسها مرتابة فی قولى وغمغمت — على كل
حال سيكون زفافك قریبا . ثم تركتني وذهبت لشأنها سيكون زفافی
قریبا . . . سهم سموم صوب إلى صدرى ، فاضطربت ارتجف من
هو الخيال . ثم دخل أخى یبئى إلى مقدم الخطيب فاعتذرت بأننى
متعبة وشبهه مریضة . فزجرنى وصمم على لقیاه ، وبعد دقائق
لفیته ، فتلقانى طلق الحیا فاتحا زراعیه فی لفقة یکاد یلتهمنى بنظراته
النهى ، ولما انتهینا من التسلیات والتعایقات قال — حدیثى عن
رحلتك .

قلت بصوت خفيض علیه مسحة التعب — أخى یحدثك .

فقاطعنى أخى قائلا — ولكنه یرید أن یسمع منك .

تابعه لخطيب مبتسما فی خبث — إذا كنت متعبة الیوم ، فلنرجئه
إلى الغد .

قلت — ان تکرار الحدیث یضجرنى .

فقاطعنى أخى — أنت قدیره على إعاداته بأسلوب آخر كأنه

جديد .

فاغتظت منه وقلت یحرق — لاتضایقنى ، یکفى أنك أسأت إلى

وحملتني على الحجيء مرهقة الأعصاب مكدودة ، فاقدة الوعي ولولا
عناية ربي لفقدتوني .

فمال على أخى يقباني وهو يقول — أفى لطفة الحب ضرر ؟
لقد أشته ناك . وأدار الخطيب وجهه وقد تورد ناظرا إلى خلسة
مخاطبا أخى ، أنسيت وجودى . فضحك أخى طويلا وهو يربت
على خدى فى لطف ، لا بأس من جودك ، ثم تركنا وخرج .
وشملنا السكون برهة حتى التفت الى وقال بصوت مرتعش —
سنا . فنشرت اليه صامته ، فسكت وقلت فى جد — ماذا تريد
ياسيدى ؟ ؟

قال — سيدك — متى كنت سيدك ؟ . أنا عبدك .
فصدمنى هذا الخضوع وحز فى نفسى وكأنه أقام حاجزا من الاحتقار
بينى وبينه ، وأطل الأعرابى من وراء سحمت خيالى بكبريائه واعتداده
برجو . فازدريت الخطيب ونسيت وجوده ، وتلهمت بالقراءة فى
مجلة وجدت بها مقالة بحانئ . فقال — سنا ، ما هذا الجفاء ... قال
ذلك بلمحة حارة عميقة ، وثرة ، ودءوعه تتساقط كالكمات المعبرة
عن حب عميق محتجز يصحبه ألم دفين .

فتألمت له ورقت عواطفى ووثب قلبى رويدا ، وتحفز لملاقاته .
قلت بلطف — سيدى كلمة اعزاز أنادى بها الرجل .

قال في هدوء — عذر أهون منه صمتك ، وهل أنا في مستوى
الرجال عندك . فابتسمت في بشر قائلة — أيعجبك . . عزبزي .

فابتسم على مضض قائلا - ولا هذا ؟ . . .

قلت — في الحق أنا لأستسيغ مطلقا تكرار النداءات المعتادة
كحببي وملاكي وروحي الى آخر — تلك الاستعارات التي بمنهجها
الرياء سخيا ، لطالما نادت المرأة الرجل بأحب الأسماء التي تحمل
خلاصة الحب العاوى ثم يتمخض الواقع ، فاذا به لايساوى فعل
حذاء في ناظريها . وقل ذلك في الرجل أيضا . . . هل جف معين
المعاني الجميلة حتى نلجأ إلى تخدير الأعصاب بالألفاظ المعسولة ،
فمليك الغضب على ما أظن ولكنه حجب ثورته بمهارة — قائلا —
ولم لاتقولينها أنت طاهرة كطهارتك وأقولها أنا صادقا كصدقى .
أنت مستنيرة وأنا مستنير فلماذا لا يكون حبنا أيضا مستنيرا .

فقاطعته — الحب هو الحب ، ملك قلب أمير أو خفير ، ولا تظن
للاستنارة سلطانا عليه . إنما قل بقدر تفاهمنا نتناجى ، وليخلع التفاهم
على حديثنا رداء البهجة أو رداء الحداد . فتجهم متألما قائلا —
أعوذ بالله ، لقد شوهت قصيدك في نهايته .
قلت — لاضير من الصراحة مطلقا .
فقال — أنى أكره التشاؤم .

قلت — وأنا أحبه كالتفاؤل تماما ، أدين للأول بفلسفة الحرص
والسخرية كما أدين للثاني بفلسفة القوة والتضحية .
قال — لقد عدت من رحلتك كغريبة عنى
قلت — اتشعر بذلك ؟

قال : اكذب ظنى ؟
قلت — حسنا بدأت أفهم ، فشعورك بأننى غريبة عنك ، يؤكد
لى انك لم تحبنى ، لأن التفاهم هو الحب عندى . فاعتدل فى جلسته
وراح يهز ساقيه فى شبه حركة عصبية ، وحلق فى طويلا ثم وقف
واقرب منى رابتا على كتفى فى لطف قائلا بلمحة متواضعة — هل
هذه تحية لقاء خطيبين أو على الأصح حبيبين .
فقاطعته — خطيبين لا حبيبين .

فصعق ولزم الجدو قال — وما الفارق بينهما — ألا تعترفين
بحبنا ..

قلت الحب يولد فى قلبينا قبل أن تسجله الشريعة فى كتاب الحياة
والخطبة اتفاق مشروع قابل للخسارة أو الربح . ثم أكسبت لهجتى
قوة لم يعهد لها فى وأردفت — الحب يبقى رغم أنف القدر .
فقال — لقد جئت من رحلتك بغير قلبك ، بدأت أشك
فضحكت متخابثة قائلة — بل بدأت تفهم .

فدعر وأنشع وجهه بنقاب حزين قائلا — مامعنى هذا ؟

قلت — ما فهمته .

قال — لا نتعنتي . . اننى الآن ثائر .

قلت — خير وراء الفكر الحائر .

فزاد غيظه واندفع نحوى مهددا بيده . سأعرف كيف أرد
لك عقلك فعاودت الضحك قائلة — تحسن لو رددت لى قلبي .

قال — لا . . انه ملكى استفظ به بين جانحتى .

فابتسمت متهمكة وأعقبت ، يا ضيعة الأمل وهنا دخل أبى ،
فتراجع للوراء وحياء فى أدب . ثم أخذ مجلسه بجانبه ، وراحا
يتحدثان فى السياسة ، هذا متشائم يرى العالم مقبل على خيلر داهم .
وذاك متفائل يلمس الواقع من طرف عينيه ، والحقيقة ضالة بين هذا وذاك .
انسحبت متثاقلة وهرعت الى غرفتى أحمل من الهم ما الله به عليم
وابلائى من نفسى لا أريد هذا ولا أريد ذاك ، ولا ادفع هذا
غية فى ذاك ، رغم شعورى الأكيد بحب الأعرابى لا أريده ،
ورغم إيمانى بحب الخطيب لا أريده . لكن ما ذنب الخطيب ، وقد
ارتضيت به معتقدة ان وراء الرضا حبا سيتمخض عن يقين اكيد .
كبر ألى عليه حتى رق قلبى له ، وبدأت الوم نفسى على ما فرط
منى راجية ان اوفق الى مرضاته عما قريب . وابتعد الأعرابى عن
ذهنى ولححت حاجزا من الضباب بينه وبينى .
يا عجباً ! ! . . التغير العواطف كالآجواء تماماً .

لم اكن كاذبة في حبي له مطلقا، فما معنى هذا التهميد الذي يحجبه عنى ؟ اهو شعور الخوف من الخيبة ؟ ام شعور الرهبة من الحب ؟ . وعجيب أيضا ان اشعر بعواطفى تجتاز سباح ارادتى محالمة ، حتى تلتف حول ذلك الخطيب لتشعرنى انه حبيب ، اترأى احبه هو الآخر . . . بين نارين . . انا . . هل امنح الأول وادفع الثانى ام استبدل هذا بذاك . لم أجد مناصا من الترويح عن نفسى تاركة قلبى فى حى الغيب .

اسندت رأسى على حافة النافذة ، اتأمل الطبيعة الساجية ، وقد انسحبت روحى فى عالمها الزاهر حتى لمحت طائرا ، يرف ويخلق كالطائر . فذكرنى بالطائر والأعرابى :

طائر	غنى	للألف	حننا
يبعث	الشجنا	فى دجى	الليل

...

ارسل	الاحانا	واسكب	الاشجانا
واذرع	الافنانا	فى دجى	الليل

...

الهم	الحائر	وانصر	العائر
وارث	للساهر	فى دجى	الليل

كنت أغنى والدموع تغمرني وولست أدري هل كنت أناجى
الغريب أم الخطيب ، ثم أصبحت أفر من نفسى الى الحديقة ، أناجى
الزهر ، وأناغى الطير ، واتأمل الحرارة تسرى فى شرايين النبات
فتحبوه بالحوية الوسنانة وأنا فى حاجة ماسة الى من يحبونى بالحنان
وفى يوم صافى الاديم ، دخل على الخطيب ، وانا مضطجعة فوق
العشب فى حديقة منزلنا . مسترسلة فى أحلامى . فهرع الى مبتسما
مقبلا يدي ، ولقد عودنى منذ خطبى ان يقبل يدي . ولكن ما لهذه
القبلة مليئة بالحرارة كأنها تدفقت من منول فيه نار ولهب . وماله
خف الى اليوم كالطائر الرفيف . . هو الذى يحرس على النانى فى
مشيته والرزانة فى حركاته . اراه هو الآخر يتضافر مع القدر على .
مرت هذه الخواطر فى ذهنى كالبرق الخاطف على اننى استطعت ان
استعيد ثباتى لأرحب به فى غير كافة ولا جمود .

ولما استقر بجانبى قال - مررت البارحة من هنا ، فسمعت
شدوك . فلم اشأ ان ادخل فاعكر صفواك تمشيت حول السور ، حتى
انتهيت من نشيدك - كم كان رائعا ، فكان داود يرتل مزاميره .
فاطرقت برأسمى محاولة ان أرد عنى كل خيال لا كون له وحده ثم
قلت - انك تبالغ يا كامل . وكانت هذه أول مرة فى حياتى اناديه
فيها باسمه المجرد ، فانتعش وشاع البشر فى كل ملامحه وقال - أعيدى

اسمى وكرريه . لم يعد اسمى الذى اعرفه . . انه نغم . . اكان يحمل
اسمى فى خفائاه هذه الموسيقى السحرية وانا لا ادرى . وكأنه سحر
حقا ، فبان أمام ناظرى متشحا بغلالة شفيفة من النور . ولم اشأ ان
اخرج به من محراب هذه السعادة ، وحرصت على ان ادعه فيها
طويلا ريشما يقضى الله امرا كان مفعولا - فقلت - الطبيعة تفيض
سنى وبهاء .

قال بنعمة الحالم - لآنك متربعة على عرشها العالى . ثم نظر الى
فى لهفة جاححة واستطرد - لقد احترت بين الطبيعة وروحيك - فهل اسلمت
عليها جمال فك ؟

قلت - اتشبهنى بألم العجائب - ليتنى مثلها - إذن لما ترددت
ان اكون كما اريد فى كل لحظة . فسحب يدي فى رفق وضغط عليها
فى لطف وهو يقول . وهل يمكن ان تكونى افتن منك الآن .

قلت - كنت اؤدى رسالة الحب العالمى ، بما يشمله من بر
وعفاف وحنان وأمن وسلام ، دون ان يحول بينى وبين
ما اريد حائل .

قال - انت قادرة على تحقيق ذلك .

قلت - اره ليتنى . . الآمال شىء . . وتحقيقها شىء آخر . . فى
مقدورى ان احلم والواقع غير الحلم .

قال — انعمى بالأحلام كما شئت ، فالواقع لا مرد له .

قلت — هذه ارجوزة الاستسلام ، وأنا أميل الى التمرد .

قال — وأنا احذرك لأن التمرد طابع الجنون .

قلت — لقد صدق الرجل الذى قال لى مرة ان الجنون أول

مراحل الإيمان فحملك فى قائلًا - أى رجل هذا الفيلسوف ؟

قلت — اعرابى . . عرفته فى رحلتى .

قال — فى نفور - لاشك انه مجنون .

فبهت لهذا الرد الفاتر وثرث . . انه مؤمن ، ولقد حببني وفى الإيمان

أكثر من ذى قبل ، فلم يأبه وهز رأسه فانظر إلى فى شراهة . وكأن

بلاهة خرجت من مكنها تورا ، فبدلت وداعتي إلى جحود ، ونهيتني

إلى شيء لطالما بحثت عنه فى نفسه . لم يشعرنى مرة بأنه يغار على وكن

ذلك يحيط عاطفته بغمام يحول بينه وبين . وهما هو الآن يمر بعاطفتي

الملتهبة التى تمخض عنها منطقى حينما ذكرت الاعرابى باردا كالثلج .

وكأنه بهذا البرود نبه فى ميت احساسى . فتحولت شعلة من ضرام -

انما لأدع روحى تعاق روح الغريب . وتمعنت فى اختبار

فقلت - لقد احببني الرجل كل الحب . فظل محتفظا بثباته قائلًا -

وماذا يهم مادمت لى وحدى .

قلت — الا تخشى ان يتحول قلب ، إليه بتأثير إيمانه
وحبه القوى النزيه .

قال — بصوت بطيء خال من حرارة الغيرة — لا أخاف عليك
إلا من نفسك .

قلت — نفس — كنفس كل بشرى جبل من صلصال مهيمن ،
لحقها الحياة بغزائرها ، فأنا أحب وامقت . أعف واشتهى ، أريد
واستحي . أضعف واجبن .

قال — هذا صحيح ، ولكن الطبيعة حققتك بمصل الحذر .

وهنا لفت نظري نحلة رفت على الزهرة ، وبعد أن امتصت
رحيقها انتقلت إلى أخرى بحمقها ونشاطها ورغبتها . فغمغمت كأنني
أناجى نفسى ليس الرجل هو الذى يرجو ويشتهى ، وليست المرأة
هى التى تغرى وتستسلم إنما هى الطبيعة ، عندما تنقص الذكر أو
الأنثى على أى صورة كان . كل جسم حى ، الطبيعة تستقر فيه عابثة
وتخرج منه لاهية . تلهيت بمداعبه الزهر لاستغرق فى خواطرى .
يا للفارق الهائل بين حرارة الغريب وبرودة الخطيب لكأن الحياة
بحيويتها استقرت فى قلب الأول والموت ببرودته كمن فى قلب الثانى .
هبط من السماء التى رمقته إليها بخيالى الأرض التى تجذبني إليها بحنان
وشتان بين خياله وخيالى ، انه يرى الدنيا كلها فى سجن

سجانه عقله وأنا اراها في التيه اللامحدود الذي يضيئه قلبي . استأذنته
لا نصرف بدعوى اننى أشعر بدوار وفي حاجة إلى الراحة ثم تركته
وسرت متعثرة وما كدت أصل غرفتي حتى آويت إلى مضجعي
مستسلمة له واجس القلب المحزون الحائر .

بعد أيام أصبحت سجينه حب الغريب وقد صار شاغلي وملازمي
باعثا في ألم اليأس ومرارة الحب ، وسهدا لا يطمئن مع نهم لا تنقع
خلته - فسروا شحوبي بالمرض ، وجاءوا بالطبيب يكشف عن دائي
يا الله - ما ابسطنا . ماذا يعرف الطبيب . بل ماذا يعرف الطب كله
عن ذلك المرض المجهول ، ذلك السر الذي نحاول تفسيره بما أوتينا
من ذكاء وفراسه فيزداد غموضا وتعقيدا .

فلا هو بحسم فنحدده ولا هو ملبوس فنذكره ولا هو فكرة
فتصورها .

إنما هو إحساس عميق فيه مرارة وحلاوة يحمل في ثناياه خلاصة
اليأس والرجاء . . له تأثيره على النفوس الضعيفة وعلى القوية
ويأخذ طريقه في سبيل غايته بغير هوادة في لين وعنف

ابتسمت في مرارة أشد من مرارة القنوط عند ما قال الطبيب
بسم تشعر الآنسة ؟ ؟ . .
إنه يسألني يا عجباً

قلت : هنا (مشيرة إلى موضع قلبي)
قال بعد أن وضع (مسمعته) على صدوى : ضعف في القلب
فما كرت قائله : وهنا (مشيرة إلى الجهة اليمنى) فضغط بأصابعه
ثم قال : الكبد

فريعت أمى وغمغمت .. القلب والكبد .. خذ كل ما أملك
« يادكتور » لقاء عافية ابنتى

قابتسم الطبيب على مضض وقال : سأكتب لها على الدواء اللازم -
وإن شاء الله تتعافى قريباً ثم أتى أوامره الطيبة وإنصرف في هدوء
وهو واثق بالتأكد أنه أدى مهمته على أكمل وجه ممكن وأنه
حور المرض وظلت أمى في موقفها تحفف مداها في صمت وترقبى
في حزن كأن شبح الموت يرف على

لم تفارق البسمة شفتى بل استطعت أن أضحك طويلاً
وأقول : أنا مريضة بالقلب والكبد ..

فارتمت أمى في حنان على صدرى تقبلنى في حرارة مبلة وجهى
بدموعها في حنان كاد يذيقنى

على اتنى استطعت بعد جهد أن أوكد لها بأن الطبيب لم يصب
وأنتى بخير وكل ما عندى شبه ضعف سوف يزول قريباً . وقد
صدقت لآتى تكلفت البشر فاندفع الدم في وجهى

ولكننى لم استطع أن أرتدى لباس المقاومة فتخاذلت وعادنى
الدوار فى شبه غيبوبة أعادت إلى أمى قلقها وخوفها فاستدعت طبيباً
آخر قام بعمله كما قام الأول وخرج مطمئناً إلى ما قدم من نصيح .
واضطرت أن أذعن للأوامر مرضاة للوالدة فاستسلمت للعلاج
ودائى لأدواء له إلا قرب الحبيب

آه - ليتهم يعلمون أن الدواء بين أيديهم فلو تلاشى الظلام الذى
يحجب بين تفكيرهم وتفكيرى وبين رغائهم ورغائى . .
لو استطعت أن أبدد هذا الظلام . لكشفت لهم عن الواقع فى
النور غير هيابة .

ولو تحررت عقائدهم من نير العبودية وزال عنى الخوف
والاستسلام لأمكننى مصارحتهم بما فى نفسى لأوفر عليهم تكاليف الداء
الموهوم ويزول عنى الضنى الذى يبدو فى شحوب وجهى وهزال بدنى
وبكلمة واحدة أقولها فى غير نلعم تخرج من قلبى طاهرة متطهرة
من كل إثم مبين .

— أحب —

كلمة واحدة ولكنى تحمل معها دائى ودوائى آه لو لم أخف
اتهمهم إياى بالطيش والمجون لقلتها لأستريح ، ولكنهم يقيمون
بخالتم حاجزاً منيعاً بين عقلى وعقولهم وقلبى وقلوبهم .

الآن فقط يتفتح عقلي على آفاق جديدة وأرى كل شيء يتمخض
عن فلسفة أمام ناظري فلم أعد تلك الانسانه التي تنظر للسطحيات
نظرة عابرة .

بل أصبحت أتغلغل في أعماق كل مرئي لأخرج منه سرأ . .
ولا شك أن كل شيء في الوجود يحمل سرأ .

حتى حديث صاحبي اللاني جئن ليمدني لم أعد أمر به عابثة
أو لامية بل أثبت بكل لفظ. واتعاق بكل كلمة باحثه دارسة عن
باعثها ونتيجتها .

وفي هذه اللحظة كنت أحس أنني قادرة على أن أدرك أكثر
من ذي قبل . لكن ادراكي - بتطاب الصمت لأفهم .
وصديقاتي يتحدثن في ثرثرة تخاط بين الجد والدعاة وبين العلم
والجمالة وبين الشك والايمان !

لما لا يعلو الحديث من فلسفة لمن يتفهمها

تقول إحداهن : أحب الشتاء لأتو أميل للنوم مبكرة

وتقول أخرى : لقد شقيت سعاد في زواجها لأنها فضلت
الزوج المعجوز الثري .

وتقول ثالثة : منذ شاهدت « فلم » البارحة وأنا متأثرة الأعصاب،

مناظر الاستسلام والتمرد ثم الأمن والحرب يتقاتلان في
سبيل المادة ..

وتعقب الرابعة : لقد أجهـدنى البحث اليوم عن لون قماش
يناسب غرفة نومى الحديثة لتروق فى ناظرى زوجى .

هذا حوار صديقتائى نفثات كأوراق الزهر المنشور قد يبدو
ذاك الحديث سخيفاً ولكنه طابع التفكير الخاص بالمرأة - كل كلمة
تحمل معها خلاصة حياة المرأة ..

ولم يكن لدى ما أقوله فى ذلك الوقت ، وما عسـاى أقول !! ..

وهل يمكن أن يدركن ما وراء حديثى لو كنت تكلمت - انهن
يتجدثن عن الجو والمسرح والزى والتجميل فى كل لحظة ويملأن
فراغ أذهانهن بهذا الحديث كأن حياتهن خلت من مهام الحياة
وشئون البيت ومطالب الانسانية وهن لا يستطعن أن يفكرن بعقلى
لأن فى عرفهن شاذ ولا بدلى أن أسايرهن وأجاملن واتحدث
بحديثهن لأشعرهن بوجودى على الأقل مضطره - رغم ما أعانى من ألم
وضيق - لكيلا يتهمونى بالصلف والكبرياء والجنون ..

وهكذا نضحى براحتنا ولذتنا فى سبيل الغير طمعا فى الرضى والتقدير
حتى الذين يعرفون حقائق الحياة يخادعون أيضاً كأن الخداع
هو الأصل فى الانسان

لم أتمكن من مسيرتهم لضيق نفسى وتجهم ذهنى فاضطرت
أن أخدر أعصابهن بالغناء لأروح عن أساى وأخفى عنهن
خواطرى وشجونى .

آه لو كن يفهمن ما أقول ..
لألقيت عليهن محاضرة صريحة فى تربية الجيل الجديد وكيف
يعود الطفل منذ الصغر على الصراحة والجرأة والاقدام وتربية قلبه
بجانب عقله لينشأ صاحب قلب كبير يحمل رسالة الحب الانسانى .
كانت تراودنى هذه الخواطر عندما قالت إحدى صاحباتى ..
غتنا ياسناء ..

فلم أتردد لأتى كنت فى حاجة ماسه إلى الترفيه عن نفسى وتناولات
القيثار اداعب أوتاره لينبه شجونى

وأعقبت أخرى : — بدأت عينك تغنى

قلت : إذن حسبك ! ..

فارتفعت الأصوات .. اسمعينا لحن الحبيب الغائب وكان ذلك
نغمه مشاعرى فبدأت .

فشخصك مائل بين الضلوع	حبيب القلب إن غيبت عنى
فحسبى ذكرى ماضى البديع	ولإن ابدلت ودى بالتجنى

و نوراك حوله جم السطوع
ايبت الليل في سهد مروع
وحبك واجب هذا طبعي

وطيفك مائل في كل مرأى
يا أليفى تعال إلى
فلا ليل يرق ولا سمير
أشجاني هواى فأبكاني

وملاكنى الشجن فأنساني وجودى
وانهمرت دموع صاحباني كأننى وقعت على أوتار قلوبهن فخرج
شجنهن دمعاً يعبر عن الحنين
وانصرفن توا كأن كل واحدة شامت أن تحمل معها حناني
لتأنس به اذا اختلت إلى نفسها .

الفصل الحادى عشر

لما خلوت بنفسى دخلت على الخادم تعلن مقدم رجل غريب يطلب مقالة والدى وتبعها الوالدة قائلة : سناء . . . ضيف جاء لوالدك فرحني به ربنا يحضر

قلت — وليكننى متعبة ، فاذخيره الخادم بأن والدى ليس هنا ليحضر له بعد ساعة .

قالت — أخبرته فقال أنه جاء من سفر لأمر هام وطلب أن ينبعث اليه رسولا يتعجله .

فأطرقت مفكرة إذ انتابنى اضطراب وخوف لم استطع تفسير باعثها .

ومن غير وعى نظرت من النافذة واشدما كانت دهشتى حينما رأيت الأعرابى .

لا أذكر ما إذا قلت للوالدة ولا أدرى كيف ارتدت ملابسى ، صعدت لفرط المباغنه فارتدت القميص وظلمت عارية لآخير الجلباب وكأن كل الملابس غير لائقة فى نظرى فتركها لأمشط شعرى وبصعب على تصفيته إذ يحتل نظامه كأنه هو الآخر مضطرب فأعود إلى تسريحه ولم اكده منه حتى تنهدل ملابسى . .

كم من الوقت مر على — لا أدري !! ..
دخلت عليه وأنا بين الشك واليقين ، إذ لم يكن في حسابي
مطلقاً أن يجرؤ ويحيى لمقابلة والدي
وصرخت بغير صوت مشدوهة — إلهامى .. فوقف في هدوء
باسماً محتفظاً بشباته — ولم أره أبداً جيلاً ذا هيبة ورقار كما رأيته
في هذه اللحظة .

كان وجهه محاطاً بهالة من النور فيها وقار ظاهر واضمثنان أكيد
قال - وهو يمد يده لمصافحتي بصوت بطيء - سناء .
قلت بصوت مرتعش كأن حرارة روحى تمتزج بالآلفاظ فتجعلها
كتموج الأثير في السحر — لم جئت ؟ ..

وكم كان رائعا حينما نظر في هدوء إلى كأنه يعلن رغبته في إيمان
حتى أنني حولت نظري من وجهه من شدة الخجل لأنظر إلى هيكله
فاذا به تغير تغيراً كلياً حتى في زيه . . . استبدل بالث القديم ملابس
نظيفة غير رخيصة كأنه من سراة العرب ، ولعله لاحظ دهشتي فأدرك
ماخا مرني قائلاً . . . عل هذا الذى يروقك ؟ . . .

فخجلت ولم أشأ أن استطرد في مثل هذا الحديث ورغبت في
مواجهة الواقع قبل مجئ أبى فقلت على الفور : قل لى لم جئت ؟
فاعتدل في جلسته وقال برصانه : لا تزوجك .

فلا يمكنى الوجوم وتصلبت مفاصلي وقد احسست بالحرارة في
وجهي باعثة فيه حمرة الخجل والامل وتعبها برودة تحمل صفرة
اليأس والالم وانا بين الحالتين ذاهلة مغمورة بالشجن .

وتتممت أخيراً بعد جهد في سبيل مغالبة اضطرابي : قائلة
بصوت محرم - انك تخاطر .

قال — لا خطر فيما هو مقدور .

فتلعثمت ثم استجمعت قواي قائلة :

لقد زوجوني وانتهى الامر ، ولم أقل ذلك تخلصاً منه لأنني كنت
ابتغيه وأتمناه ولكنني كنت على يقين من أن والدي سيرده
فابتسم على مضض وقال بلمحة الواصل من فوزه قائلاً : —

هكذا على عجل ؟؟ لا أظن . . .

قلت بلمحة التأكيد المغتصب : انتهى الامر .

فلم يتحرك وقال بصوت الجاد . . . جئت لأقابل ولي أمرك
وله الأمر .

قلت — إلهامي — احتفظ بماء وجهك .

قال بلمحة المهكم : شكراً ، أعرف كيف أصونه .

قلت بجدة — لا فائدة ، لا فائدة . .

فقال بصوت بطيء رزين : لقد سبقت كلمة الله

فتململت وتأففت وبعد أن صمت قليلاً قلت : آه لو استطعت أن
تقدر خطورة تصرفك فلم يعبأ وهرز رأسه ساخراً في صمت ...
وهنا دخل والدى .

فاصفر وجهى على ما أظن لأنى أحسست بالعرشة الباردة تتمشى
فى شرايئى وانسحبت فى عدو و أنا أنظر فى وجههما بالتعاقب ولم
استطع صبراً ريثما يخرج الضيف فوقفت خلف الباب استرق السمع
فسمعتة يبادر والدى فى جرأه وشجاعة لا أعرف أنساناً يحامهما معاً
فى نفسه : طبعاً حضرتك لا تعرفنى ؟

فنظر والدى إليه باسم (كما رأيته من ثقب الباب) ثم قال :
يسرنى أن أتشرف الآن بمعرفتك .

أنا إلهامى عبد العزيز من بلاد اليمن .
فرحب به الوالد فى لطف لم أعده فيه وصافحه قائلاً : أهلاً وسهلاً
بسيد الأعراب :

فقال الأعرابى : المفروض أن أسهب وأطيل ولكن حسبك أن
تعرف أننى رجل لا يحمل فى برديه أى رذيلة ، جئت أطلب يد ابنتك
فابسم الوالد قائلاً . ابنتى أنا ؟

قال الأعرابى — أجل ابنتك : سناء .
فدهش الوالد قائلاً : وتعرف اسمها أيضاً . أمر غريب !!

الجابة - وأي غرابة في ذلك ؟.. لقد رأيت ابنتك عندما كانت
في الصعيد فأعجبني احتشامها وادبها ولقد استطعت ان اعرف من
احدى رفيقاتها انها من هنا ، فصيح عزمي على الاقتران بها إذا ثبت
إلى انها من اسرة كريمة فلما جئت علمت ما طمأننتي حيث أنها على خير
ما يتمنى الرجل لزوجته بفضل عنايتك ورعايتك

وهنا أطرق الوالد برأسه مفكرا ولعله كان يفكر فيما يقول :
فاستطرد الاعرابي - يبدو لك الامر غريب كغرابتي في ناظريك ..
أليس كذلك ؟ ..

فقاطعه الوالد لمهجة المجاملة - أبدا معاذ الله .

فعاد الاعرابي يقول - هذا رجل غريب مجهول لا تعرف
عنه اكثر من اسمه يطلب يد ابنتك - انما الامر بسيط - أنت
مسلم مؤمن وأنا مسلم مؤمن فاجعل الايمان الحلقة التي تربط بيننا
واعتمد على الله .

كانت لهجته كافية لبعث الاطمأنينة في الوالد لكنه قال :
لشد ما كان بزهني أن أزف اليك ابنتي ولكنك جئت متأخرا ..
يا ولدي .. حيث أن انتي مخطوبة .
قال الاعرابي - أشرف ذلك .

فضحك الوالد طويلا ثم قال - وهل تتزوج المرأة برجلين ؟
فأجابه - تخطب لرجلين أو أكثر والأصلح تتزوجه
فلزم الوالد الجد وقال : لقد انتهى كل شيء يا ولدى آسف
جد الأسف .

فقال الاعرابي بصوت متهدج - سأترك لك فرصة للتفكير
ثم انتصب واقفا في كبرياء وصافحه في هدوء وعلى ثغره بسمه
الاحترام . .

هنا فررت لأختفى من طريقه ورحلت أرقبه من وراء نافذتي
فلمحته يسير صوب شاطئ النيل مرفوع الرأس في اتزان ظاهر كأنه
لم يخذل وقبل أن يختفى عن نظري تسلط على شيطاني يوسوس
في صدري بما لم يدرب بخلد من ملحظات ثم وجدتني في الطريق بعد أن همست
للخادم سرا أن يخبرهم إذا سألوا عني بأنني خرجت قبل خروج الزائر
لزيارة صديقة مريضة - لكي لا يرتابوا في -

وهذا تذهبت إلى نفسي ففكرت في الغاية التي أسعى اليها ومن أجلها
خرجت، فلم أدرك كمنها تماما .

إنما أحسست بأن حب الاعرابي طغى على وملا فراغ قلبي
كله - إذن - فأنا خرجت من أجله ولكي ان ألقاه ، وما كدت
أتمسك بأذيال هذا الأمل حتى تمرد ضميري في عنف ووقف حائلا

بين حبي وكرامتي وبين رغبتي وسمعتي . ؟ وبدأ لي تمردي جرماً
 لانهاية لفظاعته ، فنكصت على عقبي خجلة من نفسي ، وتراجعت
 متخاذلة القوى شاردة اللب حائرة بين أمل أرجوه وشرف أرواه
 وبدن ان أعود إلى المنزل هرعت إلى جزيرة من جزائر النيل تختال
 برملها وسط الماء الصافي كأنه يشملها بخنانه الرزين والموج الهاديء
 ينعكس عليه ظلال السماء الملوثة بأضواء اللوعة والرجاء ولما دلفت
 اليها شغلتنى خواطر الاعرابي في حرارة اشعلت وجداني فاقام الحب
 ستارا حجب عن قلبي عنف ضيري وراق لي الشجو فبدأت اهزج
 بصوت الطائر الحبيس .

من ذا يبدد وحشتي	الآلم يؤنس وحدتي
وهواه بين حشاشتي	ولائي الياف مسرتي
قد كان نبعا للصفاء	قد كان رمزا للوفاء
عشما ارد له الرجاء	واليوم ينشدني الهناء

• • •

بالجهل راحت غابرات	كم من امان هائثات
بالخوف امست ضائعات	كم من خواطر مائثات

• • •

في دنا الأحلام
قد ملكنا الأنام
في حمى الأنام
قد حفظنا الغرام

أحبته دون الأنام فهو الحبيب على الدرام
يا حسرتي عفت المنام يا ويح قلبي من السقام

ما كدت أنتهي من ترجيع شجني حتى سمعت همسا موسيقيا
يمتزج بآثير المساء فيكسبه روعة وسحرا ثم لحت طيفنا بدنو مني
رويدا رويدا - فخنفت ان يكون جريثا وقحا استتر بالظلام واستعان
بوحشة المكان إذ كان الليل اسدل ستاره السوداء الشفيفة على
الكون ليخفي في عالمه جرائم الآدميين وما آسى الوجود ومسررات
الضمائر وهتافات الأرواح .

وعندما عدوت هاربه قفز الرجل في سرعة ليواجهني فلما وقع
نظري عليه انتفضت واضطربت وتلاشى كل خاطر في ذهني عدا
فكرة الوفاء لذلك الأعرابي الحبيب إنما الرهبة أخرستنا فصعّب علينا
الكلام وطال بنا الصمت .

هو في مكانه يتأملني في صمت
وأنا في مكاني مطرقة في وجوم

كلانا شارد اللب مسحور . .

يحمل النسيم أنفاسه إلى فيجاوبه شعري المتطاير في شبه ثورة
ساعة رهبة ، تلك التي تترادف فيها الأفكار ويعجز عنها اللسان
وبقدر حرارة العواطف يضعف البيان .

وأخيرا قال . . وأنت . . أترفضين ؟؟ . .

فاندفع حبي إلى الكلام رغبا عني وكأنه جذبني في عنف من
حصن تحفظني إلى سماء الحب الطليق .

فقلت على الفور — كيف أرد روحى .

قال بلحمة التهم — والدك على حق لأننى فقير لا أملك غير
قوت يومى فماذا ترين ؟؟ . .

قلت — الأمر لك فماذا ترى ؟؟ . .

وكانت لهجتى تعبر عن صادق عزمى فى تنفيذ كل ما يأمر به مهما
تطلب منى التنفيذ من جهد وتضحية ، إذ عظم الحب حتى بان فى ناظرى
أعظم من الوجود فلزم الصمت مليا ثم قال : — سناء الحب والمال
لا يتفقان فاذهبى على جناحى الثروة التى تنتظرك إلى النعم الذى

يتمناه لك أملك فقاطعته بصوت حزين متكسر كنت أحس بالفاظه
تتحول إلى حرارة تلهب قلبي : إلهامي - لست من طلاب النعيم المادى
حسبي الحب مغنا .

وهنا ملككتنى قوة الحب ووثبة الهوى فاقتربت منه فى حنان
وأنا أقبض على يده فى عنف لأبشه كل حرارتى ووجدانى قائلة : لأمت
إن لم أكن لك !! .

فلم يتكلم وحول وجهه بعيدا عني ليخفى اضطرام عواطفه ثم عاد
وأطرق مفكرا وأخيرا قال : كل شئ تحمله المرأة ياسناء عدا الفقر
فقاطعته بلمحة اليقين - كل شئ تستغنى عنه المرأة غير الحب ،
إنها خلعت منه وله .

وترامى الى شبه أصوات خافتة فتلفت كالطبيب المذعور
واتقطعت عن الكلام .

فاغتصب ضحكة وقال - عودى الآن الى دارك آمنة ولتكن
مشيئة الله . .

قلت وأنا ابتعد عنه خوفا ملتفتة يمنة ويسرة ذعرا . .

وماذا أنت فاعل ؟ ؟

قال - لم أفكر بعد - ثم صافحنى كأنه يقول اذهبنى . .
فصافحته وقد انحس دمعى من فرط الشجن وذابت الكلمات فى
نفى فلم أقل شيئا وصرت صامتة شاعرة بأننى ذرة ضائعة فى
العالم اللامحدود .

الفصل الثاني عشر

عندما آويت إلى مضجعي تركتني روحى وحلقت هناك حيث هو
حينما تقمص عقلى ضميرى واسمعنى بصوت الناصح آية المجد الذى يشيد
على دعائهم الثراء والجاه ثم تجسم ذلك الصوت حتى صار أشبه بيد ناريه
ترسم بحروف ملتهبه أشباح المخاوف والأسوال والبؤس والشقاء الذى
يجره الفقر فى ذيله حتى أننى لم استطع كبح جماح عواطفى فصرخت
من هول المشهد ولم أعد أرى ضوء آمالى الحسان وكأن كل أحلامى
اختفت وراء العدم .

تمنيت لو أموت قبل أن أعيش على هذه الصورة المريعة وبدأت
أفكر فى طريقة للإخلاص من هذه الحياة النكداء وقبل أن استسلم
للإياس القاتل تمثل قلبى فى صورة ملاك رف على من السماء باسم
بسمه أعادت الطمأنينة والبشر والقناعة والأمن والرضا إلى نفسى
فأنعشتنى ونهتني إلى مفاتن الحياة وسمعنى أناشيد الفرح العالى
وأحسست بأن شعور الطمأنينة مع الرضا الوديع هو الذى بعث النور فى
الوجود فاكسبه روعة الخلود .

وعانقني الملاك وقبلني قبلة لم يعرفها تاريخ المحبين ، ولعله
استودع قلبي نور السماوات وطهر السني لأنني شعرت أني بدلت
من حالتي العادية إلى حالة ما عرفها خيالي الخصب ..

ولما تأكدت من أنني تنهت إليه وتعلقت به أغمض جفوني
بأصابعه السحرية وحلق بعد أن همس في أذني ... استودعك
ذكريات الحب لترفه عنك ما سى الحياة ..

عانقني الحب ومضى ، ليته ظل بجاني في رضى .
صورتان متناقضتان يسيران جنباً إلى جنب كأنهما اليفاق
حبيبان .. يا عجباً .. الحب والفقر .

كلمتان يحملان أسرار الكون بأفراحه وأتراحه .
أزاح ذاك الخيال الستر الكشيف عن عيني ، فلمحت الأعرابي
يطل على من وراء الأفق ، يضحك ويبيكي .
والكن لضحكمة رنين منوم عجب

ولدمعته حرارة نقية طاهرة .
وفتح باب الغيب فظهر لي ما وراءه .. ولكنني لم استطع تمييز
كل شيء ..

وأظنه لاحظ على الغباء فقال : هذه دنا الفقر تأملوها جيدا
فعجبت كيف يكون فيها ذاك الضوء الباهر وسألته : أيحمل الفقر ذاك
الشعاع الأخاذ ؟

قال — انه نور الحب يأبى أن يتخذ مكانه إلا في دنيا القناعة
قلت — لكأنيك تقول أن لا مكان للحب إلا في القلب الخلى الذى
لا تشغله مطامع الحياة

قال — أجل . . جردى النفس من نزعات الدوء والطيش
والكذب والغش . . وأتركها في الطبيعة . . تطامن إلى الحياة . .
فارتبت فيما زعم وتصورتني فقيرة معدمة لا أملك ما أفتات به .
فبكيت . . وما كانت مدامى تنهمر حتى أحسست بيد ناعمة تمر على
صدرى في حنان ورفق بدلت وحشتى إلى أنس أسلنى لحلو الأمانى . .
فصرخت . . الآن فهمت . . إذ احس بالحب ينساب في سحر
كالنور في روحى وبدأت احلم وأنا هاجعة في استسلام .

...

قلت لوالدى عندما رأيته طلق الحيا صافى المزاج : — أبى —
أريد أن اتحدث معك قليلا .

فنظار إلى عيني كأنه يستوضحهما الخبر قبل أن يحدث إليه ثم ابتسم
وقال : ليس أحب إلى من حديثك ثم قادني إلى غرفة مكتبه
وأجلسني في حنان بجواره قائلا . هيه — تكلمي ..

ولا أنكر أنني كنت مزمنة على أن أظهر أمامه بمظهر المرأة
الناضجة القوية . ولكن الطبيعة خذلتني فعادت بي إلى الطفولة
الساذجة الضعيفة ، وبعد جهد استطعت أن أتمالك نفسي قائلة : لقد
وعدتني أن ترفض الخطيب إذا لم تتفق ميوله مع ميولي فتجهم وجهه
واربد وحدثني قائلا : طبعاً إذا كنت على حق .

قلت — أنت تعرف أنني أحكم عقلي دائماً .

قال — أحياناً يضل العقل تحت تأثير خاص .

قلت — أبي — ثم غلبني الخجل فبكيت .

فقاطبني . . أفصحني : هل حدث منه ما آلمك .

قلت بصوت نحيبه العبرات ، لا أريد أن أتزوجه مطلقاً . . مطلقاً
فضحك طويلاً ثم ربت على خدي في عطف وهو يقول
وما السبب ؟

قلت — لا أحبه ولا يمكنني أن أحبه .

قل — يا ابنتي لم تدركك السن التي تؤهلك إلى تحكم عقلك

وقلبك معا . . فاعتمدى على في توطيد حياتك على دعائم السعادة
والهناء وايس في خطيبك ما يعيبه مطلقا . .

وهنا نسيت رهبتى وقلت بلمجة متزنة : يا أبى لست طفلة -
أنتى أفهم حياتى جيدا وفى مقدورى أن أشيد مستقبلى على أساس
تفكيرى وعاطفتى .

فقاطعتى محاولا ان يلطف من حديثه : ماذا يقول الناس عنك
إذا علموا بانقصام خطبتك إنهم لا يصدقون بأنك انت التى تخليت
عنه بل يظنون أنه هو الذى تركك لنقص فك - وأنا - لا يمكننى
احتمال الاقارب الباطله التى يتخذها كل جاهل سبيلا إلى الزور والبهتان
فقاطعته : ان الناس لا تسعدنا إذا شقينا فلماذا لا نكون
أحرارا فى حياتنا حسب ما يرسمه لنا الدين الحنيف والشرعة العادلة ،
فقاطعتى : وهل تظنين المستقبل يقدم لك رجلا أفضل منه ،
أبدا . . أبدا . . ولكى أثبت لك صحة ما أقول اذكر لك أنه منذ
يومين جاءنى رجلا أعرايا يطلب يدك - ولو رأيتهم اعرفت
قيمة خطيبك .

فكظمت غيظى واخفيت عواطفى قائلة : وما الفارق بينهما .
قال بحدة - فى كل شىء - فرق عظيم جدا .
قلت - ألان هذا مصرى وذاك أعرايى ؟

قال - هذا لا يضير إنما هذا ثرى وذاك فقير ، أعنى المصرى
يكفل السعادة التى تليق بفتاه مثلك .

فابتسمت على مضض قائلة ، وهل تظن السعادة فى الثراء .
قال - بالتأكيد .

قلت - ألا يحتمل ان يخفى ذاك الثرى وراء برديه كل مفاسد
الوجود والآخر يحمل فى نفسه خلاصة فضائل الدنيا
قال - أنا اعرف الرجال .

قلت - لم يخلق الله انسيا يعرف ما وراء النفوس . . . إن هذا
علم ربى - وصمت مليا - ثم نظرت اليه مردفة : أبى ، ماذا تقول
إذا قلت لك اننى لا أعرف السعادة إلا فى اطمئنان النفس وبهجة
القلب وبقظة الروح ، وهذه الخواص لا ترتبط مطلقا بالمادة كما
تظن . . . أنا على عكسك تماما أرى الحياة أقل تعاسة وشقاء كلما
ابتعد الناس عن سلطة المادة التى تجذب النفوس بهيئتها وهى فى
الواقع كالسراب

فمز رأسه علامة الشك ثم وضع يده على كتفى وهو يقول :
انك لا تعرفين مكان الرغبة فيك - أنا اعرفها - انها لا تشد غير
المادة ولا تحيا إلا بالمادة .

فتمهلت بحرارة وتمتمت . . . رباه لم خلقتنى أخالف أبى ، كان
يجب ان اكون مثله انظر للحياة بمنظار المادة او هو شئ ينظر

للحياة بعين الروح - ثم انقطعت عن الحديث لأن الخادم دخلت
فعلن للوالد مقدم سكرتيره الخاص . . فانتصب مسرعا وتركني وهو
يقول : اعتمدى على الله وعلى

سأفنى مجيء السكرتير في هذه اللحظة إذ كان في نيتي أن أتوسل
إليه بأية راحة - لأن أبى قلما يستقر في الدار حيث أن ظروفه
تحول دائما بينه وبين الاجتماع بنا إلا نادرا وقد لا يكون إلا في المواسم
والأعياد إذ يقضى طوال نهاره وشطرا من ليله في محل تجارته مضجيا
براحته في سبيل زيادة ربحه وهو يحرص على سعادتنا البيتية دون
أن يشعرنا بخنائه القلبي عن كسب لا اعتقاده أن تحقيق رغباتنا المادية
هي كل مطمح لنا في الحياة . .

ولست أدري لم خلقت أنا على هذه الصورة فإن أخوتي كأيهم
لا يشغلهم في الحياة غير المأكل والملبس وما يتفق مع أمزجتهم من
مطالب وحاجات . .

وأنا لا يهمنى أكلت أحسن الأغذية أو ارتديت أحسن اللباس
أو ذهبت إلى السينما لمشاهدة فلم جديد أو للترفيه في حديقة
عامة للتسلية . .

كل ما يشغلنى القراءة في كتاب أو تسجيل خواطرى بأسلوبى
الساذج وما يحول بنفسى الغامضة أو العزف على القيثارة أو التفكير

في ظواهر الحياة لتعرف أسرارها أو مساعدة من يعوزه المساعدة
من الجيران والمعارف والأقارب بما أملك من دراهم معدودات أو
بما أوتيت من قوة — كائنتي لم أكن إلا ابنة أمي فهي التي تمألني
تماما . . في الحنو ورقة الاحساس وعمق التفكير ، ومن أجل ذلك
أتمنى ان تكون كل أم على جانب عظيم من الذكاء والفطنة ، كبيرة
القلب ، عظيمة النفس ، تحمل في صدرها خلاصة المثل العليا . . لأنها
المعين الذي يغذى بنيتها وبناتها في رفق وقوة .
أجل ، الأم هي الطابع الأكد الذي يرسم على جبين المملوكة
التي ترعاها . .

. . .

لطفت أمي بخنائها ثورتى النفسية عندما دخلت على ورائتي
مطرقة ، ولما سألتني ماذا بك ؟ . . ارتيمت على صدرها لأستمد
من قلبها ما يعوزني من صبر واحتمال ، نظرت اليها بعيني الدامعتين
وفتحت في لأصوورها ما أعاني وقبل أن اتكلم سمعنا صوت الوالد
كالرعد المجلجل فاهتزت له أركان البيت .

وهرعت اليه الوالدة وأنا اتبعها .
وما كدنا نقترّب منه حتى رأينا على صورة مفزعة كأن صاعقه
مفاجئة أو كارثة كبرى تنزلت عليه .

واقترب أخى الكبير من أمى وقد كان واقفا مشدوها مصدوقا
وهمس فى أذنها بعض كلمات عندما سألته بصوت خفيض، ما الخبر؟
فصرخت هى الأخرى : وامصيبة
لم استطع مخاطبة والدى الذى أطرق صامتا كالمدحول وكذلك
أمى التى أعقبت الصراخ بالبكاء .
على أنى تمكنت فى حذر أن اقتراب من السكرتير الذى وقف
بعيدا وسأله ماذا حدث ؟ . .

فأجبنى — السفينة الى تحمل بضاعتنا حطمتها رياح أمس
العاصفة . . لم أدعه يتم حديثه وهرعت إلى والدى أعانقه وأقبله . .
وفى الواقع كانت الصدمة أشد من أن تقاوم لأن والدى استدان فى
سبيل هذه البضاعة ظنا منه أن ثمنها سيرتفع بعد شهر :

...

سأت حالتنا المالية إلى أقصى حدود تبدلت مـيشتنا من اليسر إلى
العسر وقنعنا بطعام واحد بدل عدة أطعمة واستغنينا عن الكماليات
واكتفينا بالضروريات ولم نعد نظهر فى المجتمعات .

ولو لم تكن أمى مقتصدة فى حكمة لكانت حياتنا لا نطاق
باع والذى كل ما يملك لسداد ديونه ثم باع أخيرا المنزل الذى
الذى نقطن فيه أيضا . . وراح يتعد عن الناس كأَن الفقر جرم

لأنها لفظا عته وفقد صبره وتحول من الرصانة إلى حالة تصبى مريضة .
وعلمنى هذا الحادث أن الانسان يموت اكثر من مرة فى حياته
وما العدم إلا انتهاء مرحلة الموت المتقطع .

أليس هذه الحالة صورة مصغرة للموت الذى فى
نظر أقربيه وعارفيه .. ألم تمت عثلتنا فى نظر العائلات الراقية
والمنحطة على السواء .

وما هى الكارثة تسحب فى ذيلها الخطيب الذى اعتذر بأنه
سيسافر إلى الخارج وسيظل هناك طويلا لاستئناف دراسته العالية
على أننى لم أحزن مطلقا لأننى كنت أوقن من قبل أنه طلب يدى
طمعا فى ثروة أبى .

يا عجباً .. . يبتسم لى الدهر وأنا على حافة القصر .. . يذهب
الخطيب بعد أن تضيع فرصة لقاء الحبيب وما أنذا الخجل من لقاءه -
حتى فى الطريق - لما انتابنى من سوء الحال

أنا التى كنت أذل ملابسى فى اليوم ثلاث مرات أو يزيد وقد
يمر العام ولا ارتدى فيه الرداء غير مرة واحدة من كثرة مالى ..
أصبحت لا أغادر البيت منزوية فى غرفة متواضعة لا أحاول
أن اتطلع إلى شئ بعد أن بعنا كل اثاث البيت لنقنات بئس وكما
تمزق الرداء رقعته إذ ليس فى مقدورى أن اشترى غيره ، وكذلك
أبى وأخوتى .. .

أما والدى فقد تلاشى ما كان باقيا في جسمه من قوة واعتكف
الناس ولازمه المرض القاتل فاستسلم له وراح ينتظر منيته في
صبر القانط المترقب ساعة الموت في صمت واحتمال .
لم يبق لدينا سبيل إلى الذود عن حياتنا إلا أن تعمل أمى أى
عمل وأشاطرها أنا الجهاد على أى صورة . .
انما أى عمل تمله أمى !! . .
هذه هى المشكلة . .

أيمكن أن تنحط الى مصاف العاملات وقد كانت بالأمس القريب
ملكة السيدات المحصنات .

انها يتيمة لاعم لها ولاخال ولاأى قريب تعتمد عليه كأن الحياة
أخرجتها من باطن الأرض وحيدة غريبة - وأبى - حتى فى هذه
الأيام السوداء - يحتفظ بكبريائه . . لا يذوق الطعام إلا لما و يتظاهر
أمام الناس بأنه يأكل أحسن ما يشتميه إنسان ويأبى أن يمد يده
لأخيه أو عمه .

يريد أن يموت على هذه الصورة موفور الكرامة . . ويقعد به
الكبرياء عن العمل فى المصالح والمصانع لأنه يأبى ان يكون حاضعا
لامرى . كان فى الامس يحترمه ويخشاه . . . وكان من الطبيعى ان يتجههم
وجه الحياة ولم نعد نتلمس الرحمة فى أى إنسان .

كان الثرى يحترم أبى والفقير يقدسه فأصبح لوجيه يتجاشأ
والفقير يتجاهله .

ضل الصديق العظيم طريق دارنا وقد كان يهرع اليه فى كل مناسبة
وغير مناسبة يتباهى بزيارتنا ويفاخر .

ولم يعد الفقير يتهافت على بابنا متمنيا لنا كل خير لقاء المنح
حيث راحت أسباب الرفاهية والمجاملة ساجدة فى ذيلها صداقة الوجيه
ومجاملة الكريم وثقة العظيم .

وزال السخاء لأن الممين نضب فتلاشى معه تمنيات الفقراء
وخنوعهم وأصبح الجار الفقير كالسيد بعد أن كان عبدا .

° ° °

الفصل الثالث عشر

مرت الشهور تباعا وحالتنا تزداد ضنكا وضيقا حتى غمرنا العوز
والحاجة ولم يعد هناك ما نتوسم فيه الخير فنرجو

فلا عمّ يواسينا كأنه يحمل ما ألم بنا ولا الحياة تبث فى أوصال
أخى الكبير قوة تعينه على مغالبة الفقر بل مرض حتى صعب عليه أن
يكون أول فرقته ليستأنف دراسته مجاناً والحكومة فلما تصف فى
هذه الأحوال وإن انصفت فبعد عناء كبير ونحن اعجز عن القيام بأى مسعى
وأنا لا أحمل شهادة تؤهلنى للعمل فى أى مصلحة ولا أجد فنا استغله
لسد مطالبنا الضرورية على الأقل . . .

في مثل هذه الأحوال يعرف الانسان قيمة التعاليم والفن فلو
علموني لاستطعت أن أدفع عنهم ذاك الفقر المدقع ولا مكنتني أن
أعزل اخوتي فأخرجهم من ظلام اليأس إلى نور الأمل والحياة
أشعر أنتي أعرف بفطرتي كثيرا من العلوم والفنون بمواهيبي
التي تشعرني دائما بأن الله يلهمني ولـكن هل تقيم الحكومة وزنا
لذلك... وهل يفضل العامل النابه الذي اكتسب باطلاعه علما وفنا
فأصبح عبقريا، عمن يحمل شهادة أجازتها له المناهج الحكومية...
ما عرفت انسانا عبقريا نال حظه في الوظائف الحكومية...
الحظ الجميل لحامل انورقة ذات الأرقام والتوقيعات — آه —
لو كان هناك قانون يمنح النابه العامل حقه الذي يكفل له حياة تلائم
نبوغه — لو كان — لاستطعت أن أؤدي عملا يتناسب مع قواي
ومداركي يفيد المجتمع ويحمي يتي من اوجاع الفقر والسقام...
ولو لم يصب والدي بالعمى التي أرحمت اليه أن تعلم
البت مجلبة للفساد وأن عملها في الحياة الخارجية إثم وبهتان...
لو لم يصب بذاك الفكر السخيف لاستعنت على أنوثتي بقوتي
وغالبت مطامعي المادية بمواهيبي الروحية لأؤدي عملي كامرأة ممتازة
لها في بناء هيكل الجيل الجديد يد قوية وفكر خصب وعاطفة نبيلة،
أما وانتى نشأت كما يروم ابني فلا تحمل على مضر ذلك البلاء
ولنحتمل تدبجة الغرور والجهالة وظلم المجتمع في صبر حتى
يقضى الله أمرا كان مفعولا.

لم يبق أمامنا سبيل إلى الخلاص من الموت الذي يقترب منا
رويدا - رويدا - وأخيرا عارده ابن أخيه الطبيب متأفقا متذمرا
من المتاعب التي كابدها في طريقه، إذ كان منزلنا في حي الفقراء،
وبعد أن فحصه، وشخص الداء، وكتب له على الدواء، انصرف متمنيا
له الشفاء في جمود لا يقل عن قسوة العزباء، وكان في مقدوره أن يتكرم
علينا بشمن الدواء ومظهر نايدر الدمع من العين الجامدة لكنه ككل الناس
لا يعنيه إلا أمر نفسه

ترك لنا اسم الدواء، فمن أين لنا بشمنه؟؟ . نفذ كل ما كان
لدينا من حلى ومتاع ولم يكن معي غير هدية ماسية كان أهداها
الخطيب ولم يشأ أن يستردها وقد ابت أرى أن تباعها من أجل . .
وقد اضطرت أن آخذها دون علمها وأخرج خفية متسللة لأبيعها
في السوق . .

لا شك أنني كنت على أسوأ حال ولا شك أن منظري بشير
رحمة من استطاع أن يعرفني ولشد ما كان يفزعني مواجهة أي إنسان
اعرفه وإن كنت أخفيت ذاتي بردائي الرث
أخيرا باعت الحلية بشمن بخس واشتريت لأبي الدواء وعند خروجي من
الصيدلة فاجأني الأعرابي وله له كان يتبعني من حيث لا أدري على
أنتي لم التفات اليه مطلقا وتجاهلته، إلا أنه استوقفني قائلا . . اتبعيني . .
فنظرت إليه شزرا كأتى أخافه وأجهله وتابعت خطاي . .
فتقدم مني هامسا قائلا . . سناء . . أريد أن اتحدث اليك لحظة

ققلت بصوت جاف - لست الفتاة التي تمنىها بها السيد .
قال - عشا تحاولين اخفاء نفسك . . لا تضيعي الوقت .
وهنا أحسست برحمته الكبرى تشملى فتابعته في صمت . .
قال - لقد اجهدنى البحث عن منزل لكم فأين مقرر كم الآن ؟
قلت - حسبك ياسيدى مامر . . لقد ماتت سناء التي أحببتها . .
سناء الجميلة الثرية . .

قال . . ما أحببت هذه ابدا . . لقد أحببت سناء النابهة الحساسة
وهي مارالت بين يدي .
قلت - أرجوك . . حسي ما أعانى . .

فدمعت عيناه وقل : غدا ينقشع الضباب وتشرق شمسك فاطمىنى
فهرزت رأسى فى يأس قاتل وجففت مدامعى فقال . . سيرى
الى منزلك الآن . . فحاولت ساقى فى طريقى دون أن أخاطبه . .
وأظنه تبعنى من بعيد ليعرف دارى ولقد حاولت أكثر من مرة
أن أضلله فى الطريق فلم أفلح لأنه كان جد حريص على متابعتى
وقد اجهدنى السير المتواصل لضعف بنيتى حيث لم اذق الطعام
إلا القليل النافه منذ أيام

ويعلم الله أننى كنت أريد أن أموت فى هذه اللحظة قبل أن يرى
منزلنا الحقير الذى يتم عن بؤسنا وشقائنا وظلمت طوال اليوم اترقبه
وأنا أرجو الله أن يعوقه وأن يرحمنى فيقبض روحى قبل أن يحضر
ويرانا على أسوأ حال من الفقر والبؤس والشقاء - لطف نفسى على
مامر من أيامنا السعيدة

مضى اليرم وتلاه الثاني وعلة ابي تزداد إلى حد افزعنا وبيننا
نحن سغمورون في الأسى والحزن جاءنا الأعرابي وبصحبته خمسة من
أشهر الأطباء . فأدركت انه فهم بذكائه لما اشتريت الدواء ان ابي
مريض او لعله انصل بالصيدلى او قد يكون سمع بذلك من المدينة
حيث كان حديث الناس في ذاك الحين . مأساة ابي وما حل بها

لم يكذب من قال ، في الشدائد تعرف الاخوان لكم اسدى ابي
الى الناس معروفًا ولكم بذل من نفسه وماله في سبيل راحة غيره واليوم
ينكره الناس حتى الذين انتشلهم من الفقر والفاقة تناسوه وتجاهلوه
دخل الأعرابي على ابي وعلى ثغره انسامة العطف الا كيد ولم
يكذ ابي يراه ويسمع صوته حتى دمعت عيناه وبعد ان حياه استأذنه
لكى تفحصه الأطباء فلم يستطع ان يشكره لان اللوعة عظمت
فأخبرت لسانه .

وتقدم كل طبيب يفحصه في دقة وعناية وبعد ان انتهى
الجميع من تشخيص الداء .. اجمعوا على أنه ضعف القلب وحمى في المخ
ثم خرجوا وقد خرج معهم الأعرابي ولم يمر بعض لحظات حتى
عاد ومعه حقيبة فيها كل ما أشاروا به من دواء وغذاء وأدوات
لا يستغنى عنها المريض

لا يمكننى مطلقا ان أصور ما انتابنى من ألم ومرارة فى ذلك الوقت .

حزنت وفرحت !! .

حزنت لأنني كنت ابتغى ألا يحتاج أبي لأي مخلوق مهما كان
عزيزا علي ، وفرحت لأن القدر بدأ يؤلف بين الأعرابي وبينه . .
إذ صلة الملمات اقوى وامتن جميع الصلات .

ومن يدري لعل الله فعل ذلك ليخضع أبي لمشيئته السامية فيجمعنا
على أن أبي لم يكن في حالة تمكنه من ادراك ما يحيط به إذ قد فقد
ادراكه منذ أيام وأصبح أشبه بالاعمى والأصم لا يتكلم ولا يتحرك
ولم يحاول الأعرابي أن يتكلم معي بل حبس نفسه في غرفة والدي
وقام على رعايته ليل نهار وقد تولى هو تمريضه ونظام تناول
الدواء والغذاء .

ولقد منعنا جميعا من تأدية أي عمل خاص به ولما حاولت أن
أشاطره وحدي - على الأقل - قال : - حسبه أنا والله معي
فاطمتي . وحاولي أن تشعرى والدتك دائما أنه في طريق التحسن
ورفهي عنها أساها وساعديها على بث الطمأنينة في نفوس الصغار
ولا تنكري أنني نسيت مرض والدي به وتحولت عنايتي بأبي إلى
العناية به فرحت انظم له الأكل واحاول جهد المستطاع أن أهيم
له أسباب الراحة . .

إنما شغاني وفرة المال الذي يصرفه إذ انه بذل من المال في سبيل
مداواة أبي وفي جاب الحاجات لنا مالا يبذله غير الأغنياء
وهو كما اعرف جمال بسيط فكيف تحصل على هذه الثروة الطائلة
اخيراً بعد تفكير طويل ظننت انه لا بد قد ادخر في ماضيه
مالاً وفيراً من عمله

شملنا جميعاً الفرح وزال عنا الترح وحل الأمل مكان البأس
والآلم - إذ تحسنت حالة أبي ولم يكدر اليمر الشهر حتى تماثل الى الشفاء
واستعاد قوته ونشاطه وكان وجه الأعراي أول وجه رآه وصوته
أول صوت سمعته . . ولما عرف والدي منى الجهود العنيفة الذي
عاناه الأعراي والمال الكثير الذي بذله في سخاء . دمعت عيناه
واحتضنه كبأنه يعلن له شكره الحار بحرارة قلبه في دموعه بدل
الكلمات المألوفة .

وكأن الأعراي ادى مهمته وانتهى منها بشفاء أبي فانقطع عن
زيارتنا دون انذار بعد ان ترك تحت وسادته صكاً مالياً بمبلغ الألف
جنيه ومعه رسالة رقيقة يقول فيها .

والدي العزيز . .

ارجو ان تعتبر هذا المبلغ هدية كتحية بشفائك وان أبيت
فليكن ديناً عليك تعيده إلى بعد ان تستعيد مركزك التجاري

لا تبحث عني فاني في طريقى الى وطنى ..
سأذكرك واذا ذكر اهلك فأذكرنى بسناء

ابنك
إلهامى

يا وبيح قلبى لم تركنى هكذا وشيكاً ..
وهل يمكن ان اطيع الحياة بدونه بعد أن احببته . وها هو أبى ايضا
يقبض على الصك بيد مرتعشة متسائلاً .. ايمكن ان يكون فى الحياة
انسان كهذا ..

وتقول امى .. عله جبريل تنزل عليك من أجلا فى هيك انسان .
ونحار جميعا فى تفهم حقيقة ذاك الرجل العجيب الطاهر
وما يحمله من قلب كبير رحيم مليء بالبر والحنان ..

اسرع أبى وذهب يبحث عنه فى كل مكان .. حتى اهتدى اليه
فعانقه بحنان أكيد وحب وفير وكأن اعترافه بجميله تجسم فى ذاك
العناق فلم يدعه إلا ليقول له : —
العود إلى وطنك دون سناء ؟؟ .

قال — عزيز على ان أتركها ولكننى ارجو ان تعيش على
الصورة التى ترضاها انت ..
الوالد — واذا وهبتك إياها

الأعرابي - لو لم أحبها لرفضتها ، إذ أخشى ان تظن اننى
اخلصت لك الود من اجلها . . وصمتا ليتكلم قلب كل منهما فى
سكون وروعة

* * *

الفصل الرابع عشر

عقد قرانى فى حفل متواضع لأن الحادث علم أبى السخرية
بمظاهر الحياة وأبهات الجاه ثم صبحنى زوجى (إلهامى) الى العرابة
بدعوى انه مضطر الى السفر هناك لقضاء بعض مآرب له على امل
ان نعود الى بلدتنا ليستغل بالتجارة مع أبى

وبعد ايام كنا فى صحراء العرابة وفى المكان الذى رآنى فيه
اول مرة ثم ابتنى لنا كوخا متواضعا بيديه بعد أن جمع مطالبه من حصى
الجبل ورمل الصحراء وسعف النخيل

وكان يخرج فى الصباح ويعود ظهرا لتناول الغداء وهو الذى
يحضر بنفسه كل مطالبنا ولا يبيع لى الخروج من الكوخ ابدأ إلا
بصحبه وقلما فعل

وقد لاحظت انه بدأ يقتتر فى معيشتنا تدريجيا ولكننى فسرت
ذلك إلى انه يقتصد لكنى تتمكن من الحياة الرغدة اذا عدنا الى

وطننا لذلك لم ار غضاضة في ذلك التقدير واستعنت بحبي على
توطيد حياتنا العائلية وبث روح الطمأنينة والمسرة في معيشتنا ولقد
استطعت ان اجعل من الكوخ شبه فردوس ارضى .

واذ كر اننى مرضت وايقنت ان مرضى نتج من عدم وجود
اسباب العيش الذى الفتته بجوارى فى دار ابى بعد زواجى وفى ليلة
هادئة عاتبه برفق وحنان قائلة : لم نحرم انفسنا من متاعنا الا تشعر
بالتعب وانت تنام على هذا السرير الخشن (اقصد سريرنا الذى كنا
ننام عليه وقد صنع من سعف النخيل ملتحفين بغطاء من وبر
الماعز والابل)

فقال — لقد تعمدت ان اترك متاعنا لانه سيحتاج الى منزل
يلائمه ولا اكتمك اننى انفقت كل ما لدى من مال ولم يعد معى
اى درهم .

فصعقت ونلت — وكيف نعيش ؟؟ :

قال — جئت بك الى هنا لانك غير معروفة ولكى لا تتألمين
لحرمانك من حياة الترف الذى يحوط بك . . وليس فى مقدورى
مطلقا ان احقق رغباتك هناك — اما هنا — فيمكننا ان نقنع
بالكفاف ونتحمل حياة التقشف والحرمان . .

فلم أحزن لعلنى أنه بذله فى سبيلنا وقلت : لطالما تمنيت يا حبيبى -
كوخا وقلبا - وها هى امنيتى تتحقق اذن حسبى قلبك وهر كفىلى

قال — ولكنتى أخشى ان تنبه غريزة المرأة فيك فتطمعين فيما
تطمع فيه كل النساء من ألوان الرفاهية والنعيم فاسندت رأسى على
صدره ونظرت اليه بعينين دامعتين من فرط الحب وقلت بشفتين
مرتعتين بحرارة الوجدان لنعش بالحب يا إلهامى لنثبت للعالم ان
قوة الروح أجل من قوة البدن

فنظر إلى فى حنان قائلاً : لتكن تجربة فان نجحنا أديننا رسالة
الحب كاملة وإن فشلنا حسبنا المحاولة وطمأنينة الضمير
وبدأت منذ ذلك اليوم افكر فى تجديد حياتنا كل يوم فجعلت
الكوخ بالزهر والأغصان حتى جعلته كخميلة ناضرة أشبه بوكر
طائر ين اليفين

ووطنت النفس على الكفاح بجانبه الى نهاية حياتى غير عابئة
بالتقاليد المرعية وحاولت جهدى ان أثبت الطمأنينة فى صدر أبى
ليطمئن أمى من آن لآن مصورة له فى حياتى كأنها مليئة بالرفاهية
والسعادة والمتعة والنعيم

لكنه لم يشأ ان اخرج معه للعمل بجانبه بعد ان أفهمنى انه يشتغل فى
الغابة مع القرويين وقال لى عندما رجوته — مكانك فى الدار —
فان صعب عليك احتمال حياة الحرمان . . اذهبي الى أهلك لتنعمين
بحياة الحرية والسعادة المرجوة . .

ومع إيلامي من حرمانى مشاركته الكفاح . . أسعدنى حرصه
على كرامتى وانوثتى وغيرته على . . فازددت حبا وتعلقا به واعتقد
انه لو سمح لى بالسعى معه طلبا الى الرزق . لفقدت لذة لا يعوضها
رخاء الحياة . . تلك اللذة شعورى بأنى فى حاجة إلى حمايته ورعايته
وانه اقوى منى وأشد سلطانا

وقد دفعنى تفكيرى لاسعادته إلى العمل فى دارى حريصة على
تنفيذ أمره . فاتفقت مع جارة لى ان اشاركها فى صناعة السلات
والأسرة مقابل اجر بسيط وتفدت ذلك بمهارة وحذر وكأما تجمع
لدى مقدار من المال اشتريت به بعض الطيور والفواكه وردداه له
وأخر لى واذا سألتى من اين المال صارحته بالواقع فكان يغضب
ويشور ثم استرضيه فيهدأ ويستكن ويستحلفنى ألا اعود إلى مثل
هذا العمل فأذعن ثم تدفعنى الحاجة الماسة الى العمل فأفعل فاذا
اكتشف الأمر خاصمنى ، وخصامه أشد من القتل ، لأنه يحرمنى
تدليلى وبث حبه وهو احب لى من الحياة . على انه كان سريع الرضى
إذا ناغيته واسترضيته

وكثيرا ما كان يوسوس الشيطان فى صدرى ويصور لى هذه
الحياة جعها لا يطاق فكنت أجتأ الى الصلاة حتى اذا عاد من
الخارج ارتيمت بين ذراعيه لأدفن خواطرى فى صدره واستمد قوة
القناعة والاكتفاء من معين حبه .

وفي الواقع كان حبه عزائي الوحيد — وأقسم — اني لم افكر
مطلقا في اى امنية مادية ولم تطمع نفسى في اى شىء حتى الاشياء
التي كنت احبها عفتها وكأنتى زهدت الحياة بما فيها . وكنت احس
دائما ان قوة معنوية تسمو بى على جناحيه الى السماء فأرى الأمن
والقناعة والرضا فى شبه جواهر رصعت فى تاج وضع على رأسى
يشيع ضوءه على وجهه فى صورة رائعة باهرة احبها فى من اجله واحبها
فيه من اجلى

وقد علمتني هذه الحياة المتواضعة فلسفة جديدة انا التي لم ادرس
الفلسفة (فى معهد او جامعة) فعرفت ان المادة ليست قيمتها فى
الأرقام إنما فى استخدام هذه الأرقام فاذا استطعنا ان نكيف الحياة
بأقل رقم ممكن . كانت الحياة فى ناظرينا رضية سعيدة واذا لم نستطع
تكييف الحياة بأعظم مبلغ من المال — ضاقت الدنيا بنا وصعب
علينا الحياة فيها

وأيقنت ايضا انه يمكن الاستغناء عن كل شىء فى الحياة ، عدا
الماء والغذاء وما يستر العورة وهذه الضروريات اللازمة موجودة
فى كل مكان ، لأن الله يكفل الحياة للجميع

قلت له ذات مساء ونحن نتسامر فى هدوء ونشوة حدثني عن

بلاد (اليمن) كيف حال المرأة هناك وحال الرجل .. فأجابني
في إيجاز أنا صورة صحيحة لكل رجل عربي ، والمرأة هناك عربية
صميمة خلقت لبيتها وزوجها وأولادها

قلت — أحب ان تقص على أقصوصة من أقاصيص هذه البلاد
قال — ايهمك هذا ؟

قلت — كيف لا يهمني معرفة وطن روحي .. فمسح شعري
بأطراف انامله في رفق وشغف وحنان ونظر إلى في بشر واطمئنان
ثم قال : سأقص عليك قصة واقعية فانتبهت بكليتي اليه وترقبت
حديثه في لهفة

فبدأ يقول — منذ عام اعترم أمير من أمراء اليمن ان يزوج
ابنه الوحيد على ابنة عمه (صهباء) وذلك الأمير يتولى حكم إحدى
جزائر العرب . في اليمن وهو أعظم الأمراء شأنًا وأوفرهم عزا ..
وكان المفروض ان يفرح النبيل بذلك الزواج لما تمتاز به العروس
من الجمال الباهر والذكاء النادر ولكنه اعرض ورفض ، ولما كانت
مشيئة الأمير نافذة وأمره مطاع فقد حتم على ابنة بالاكراه تنفيذ
رغبته . فأذعن النبيل غصبا خضوعا لمشيئة والده ومرت الايام
والجزيرة تتأهب للعرس حتى تمت المعدادات وبدأت الزينات في كل
بيت ومتجر ومعهد وطريق .

وجيء بالعروس في حفلة شائقة لم تشهد الجزيرة مثلاً بين الحان
الموسيقى حتى ملأت جنبات الوادي بأعذب أنغامها وذهب الرسول
يدعو النبيل لاستقبال العروس كما تقضى المراسيم الملكية فلم يجده
حيث كان مقرر أن يكون وبحث عنه في كل مكان ولكن عبثاً فر
النبيل الى حيث لا يعلم والده او أهل قومه وبينما كان الأمير يفكر
في ذاك الأمر الجمال الخطير إذ سمع أزيز طائرة قريبة من نافذة
غرفته فأطل برأسه يتأملها . . وقبل ان يرفع بصره سقطت عليه
ورقة فتناولها وإذ بها رسالة من ولده يقول فيها

أبي العزيز

بدى افدى امرك . . ولكنني اخاف ان أقتل نفسي فلا تجد
لك في الحياة عزاء ولا خلفاً يذكرك ويترحم عليك . .
لا يمكنني مطلقاً ان اتزوج بفتاة لا احبها . تركت البلاد قانعا
بحياة الكفاف في صحراء مجهولة وأدعو ربى ان يبارك في حياتك
بقدر ما أرجوه لك من خير وهناء

لا تحزن على . فسأكون اول جنـدى يهرع الى جيشك اذا
احتجت الى المعونة ، وزوج الفتاة بمن يحبها لتسعد . اما انا فسأكون
بلاء عليها . أبى اركع تحت أقدامك طالبا العفو والرضا

ابنك

الهامى عبدالعزیز

وما كاد ينتهي من قصته حتى غمرتني الدموع فقلت .. وارحمته
للعروس المنكودة الحظ. وارحمته له
قال — اتراه على حق فيما فعل ؟
قلت — اجل .. خير له ان يعيش محروما من ان يزوجه
بفتاة لا يحبها ويحس بالعذاب في قريبا ..
فأطرق برأسه مليا ثم تميم : . لاشك انه سعيد
قلت — والعروس ماذا فعلت ؟ ؟ .
قال — علمت انها انتحرت لأنها كانت تحبه
فقلت — كأنك تعرفها
قال — قرأت عنها .

قلت وانا اخني وجهي بيدي من هول الخيال .. رحمها الله ماتت
شهيدة .. جمعها الله به في فردوس الآخرة
وهنا قام في هدوء وخرج لشأن له فاضطجعت ورحلت أخيل
مواقف هذه القصة . كأنها لمحة من لمحات حقيقة تليستها ، ولا اذكر
ان خيالي تعلق بحديث ورسمه في وضوح كما فعل بهذه القصة
ومرت الأيام دون ان انسى هذه الرواية وكثيرا ما عدت اليها
كلما خلوت به فكان ينتقل بي الى حديث آخر في لباقة وكياسه ..

...

نسيت كل متعة في الوجود اشتيتها المرأة المادية ولم أعد أفكر
إلا فيما يعود علينا بربح روى جليل حتى دخل على يوما منطلق
الوجه يغنى بصوت هادىء جميل

يا حبيب القلب اقبل نشكر المولى القدير
قد منجنا الحب يرقل فى حى السعد الوفير

♦ ♦ ♦

يا حبيبى خذ ودعنى أرشف الصفو الجميل
من حنان ليس يفنى أصاله نبع جليل

♦ ♦ ♦

قد بلانا الفقر قسرا فسقافا الحب عطرا
وحسبنا اليوم دهرا فاذا بالدهر شهرا

♦ ♦ ♦

كان يغنى وهو يعانقنى ثم يضع أواخر أنغامه بغمى فى قبلة . ولما
لمح الدهشة بادية على وجهى أجلسنى على ركبتيه وابتم وهو يقول :
لقد جئت إليك بهدية عظيمة ثم ترك الغرفة وعاد توا يحمل
صندوقا كبيرا قائلا : افتحى هذا بيدك لترى حظك !! .

نخفت أن تكون العوبة فترددت واحجمت . . فأقسم بحبي أنه
لا يوجد بداخله ما يخيف و تقدم يساعدننى على فتحه
بهرت لما رأيت ، وكذبت نظرى . . ولكى اتأ كدمن أن هذه
الأشياء حقيقة تحسستها . . إذ ظننتى فى حلم عميق خلاب

من أين له هذه الحلى النفيسة التى تقدر بألاف الجنيهات . .
ونظرت إليه فى شك فلم يتكلم وتركنى لحظة ثم عاد يحمل معه
صندوقاً آخر قائلاً فى هدوء واتزان ، افتحى هذا أيضاً . . فاختلجت
أنفاسى واضطربت أعصابى وتاه بصرى فيها أرى . . ولما فتحه
وعرض على ما بداخله ازددت ريبة وقلقا وخوفا .

ملا بس ثمينة فاخرة كأنها صبغت من أجلى أنا إذ كانت تناسب جسمى
لذا انتابنى شعور عميق خليط من الخوف والقلق والفرح وفى
الواقع الشعور لا يتغير ولا يتبدل ، إنما نحن الذى نكيفية حسب
تفكيرنا وخواطرنا فىأخذ لونها ويلبس لبوسها

فالذهول الذى ينتاب الانسان وقت الترح هو بعينه الشعور
الذى ينتابه وقت الفرح إنما الحادث هو الذى يصبغه بلونه ويكيفية
حسب هواه .

قلت له بفرح يصبغه الشك بلون الحزن : من أين لك هذا ؟
فلم يتكلم .

قلت — لا تقتلني بالصمت وتكلم لتطمئنتي
فلزم السكوت وأطرق برأسه مفكرا . . فحملني صمته على التفكير
وقد دار بخليدي ان يده امتدت إلى إحدى الخزائن في ساعة يأس غير
مشروعة ولكن صعب على ان تخيل كيف استطاع الوصول الى (سراى
أهير أو عظيم) إذ لا يمكن ان تكون هذه الجواهر إلا للاميرات
والأميرات

وجسم الشك في خاطري غيابه عنى ليلة الأمس وكان عذره
سفره الى ضاحية قريبة ليعزى صديقا له مات والده ، ولم يدر بخليدي
مطلقا انه يكذب على لأنه عودنى الصدق والصراحة منذ تزوجنا
حتى هذه اللحظة

ولقد أزعجنى صمته الطويل حتى أيقنت ان الخجل عقد لسانه
وان ضميره تنبه لحاسبته فى هذا الوقت لذا ازدت قلقا وخوفا وحزنا
ولم أشعر إلا وانا را كمة تحت اقدامه استحلفه بخالق السماوات
والارض قائلة بصوت تخنقه العبرات : — اصدقنى وقل الحقيقة
ولو كان فيها هلاكك وهلاكى

فنظر إلى وحرك شفتيه ليتكلم ثم صمت كأنه يهاب مصارحتى
فازددت ضجرا وأردفت : (إلهامى) لقد رضينا بالقناعة والحب
دينا إتنى نفسك فهل تخجل من مصارحة نفسك بما أقدمت
عليه يداك ؟

وخير لك أن تضحى بدمى فى سبيل شرفك بدل أن تهتك كرامتك فى سبيلى

فقاطعنى بصوت متهدج ، سناء كفى لقد أثمت من أجلك .
فاشدد هلعى وقلت بلمهجة الغضب والآام : أبا لائى ثم تسعدنى ؟
انك قتلتنى من حيث لا تدرى
فتندت عيناه بالدموع واغتصب بسمه وهو ينظر إلى فى
هدوء وورصاة

فاندفعت إليه ثم طوقته بذراعى وأنا ابكى قائلة : « إلهامى »
قم وأعد هذه الأشياء إلى مكانها — وان صعب عليك — قل من
أين أتيت بها ؟ ودعنى أتصرف ولم أترك له فرصة للكلام بل أسرعت
ووضعت كل ما أحضره فى رداء قديم ثم سألته . . لم يبق أمامى غير
العمل فارشدنى إلى مكانها

فقال فى بشاشة ظننت أنها من تأثير الرضا ورجوعه الى صوابه :
هناك بعيدا

قلت — حدد المكان بالضبط
قال — سيرى الى نهاية الطريق ثم امتطى جملا وخذى الشارع
المؤدى الى الصحراء الممتدة وسيرى حتى نهاية الطريق وقد يطول
بك المسير الى أيام متواليات حتى تهتدى الى منزل الأمير . .

فهزئت رأسى علامة الفهم ثم ارتديت رداء الخروج وهو يماثل
ملابس الأعرابيات الفقيرات واسدلت على وجهى قناعا ثم خبأت

الأشياء تحت إبطى وخرجت بسرعة فى عزم وهو يرمقنى فى صمت
دون أن يتحرك من مكانه ولما بلغت الطريق تبعنى واستوقفنى قائلاً .
لقد نسيت أن أوضح لك مكان الحلى فى القصر وكذلك الملابس
فعودى لأزيدك ايضاحا وكانت ملاحه فى هذه المرة تعبر عن سر
غامض يشيع من عينيه نورا حتى أننى عدت معه وأنا أشد شوقا
لمعرفة الأمر عن ذى قبل . فلما خلا بى فى الكوخ بادرنى ، اتظنين
أنه من الهين إعادة الحلى والملابس إلى الخزان؟

قلت — فى جد : ولم لا ؟

فضحك طويلا فى تهكم دون أن يخفض نظره ثم قال :
لا يمكن مطلقا ، مطلقا . . فقد سرقتهما بمعجزة فارتفعت على
صدره باكية وأنا أقول بدموعى : لا تقل ذلك — أنت تسرق —
محال . . كل لحظة فىك تكذب قولك . . وكل شئ . أصدقه عدا هذا . .
ثم ارتفعت على الأرض منتفضة كأن عقربا لدغتنى وأنا أتمتم . .
مملك لا يسف ولا ينحط . . ثم انتصبت بسرعة وجذبتة فى عنف
وأنا أحدى فى عينيه مردفة : مازال إيمانك يتجسم فى عينيك وأنفاسك
تردد أهازيج قلبك المؤمن إذن — أنت تغيظنى بهذا الافتراء . .
ثم سحبتة وأجلسته وهو صامت مستسلم يحملق فى وعلى ثغره بسمه
صافيه : وبعد أن جلست بجواره قلت : إلهامى . . أى لص استودعك
هذه السرقة ؟

قال -- أو كذلك - بل أقسم أنتى أنا الذى احضرتها فعاودتنى
الثورة وقلت : قلت لك لا يمكن ان أصدق هذا فقل الحقيقة ولا
تحاذر فانى احرص على من استودعك سره كحرصك عليه
قال بلمهجة قوية اكيدة - كل شىء يمكنك الملاعب به غير
اسم الله لا يمكن العبث به ولو سفكت دمي فى سبيل تقديسه
وكننت أومن بذلك ايماننا مطلقا فقلت إذن اقسم بالله أن
تقول الصدق

فأقسم فى ثبات وصراحة دون تلعثم
قلت - إذن اخبرنى عن حقيقة هذه الجناية
قال - أقسم لك اننى أنا التى احضرتها بنفسى ولا شريك معى
فدمعت عينائى وأطربت برأسى إذ لا يمكن ان اكذبه بعد القسم
وكل ملاحظه تعلن صدقه فيما زعم وساد الصمت حتى خيل إلى ان
الحياة تحولت من نورها البهيج الى ظلمة مخيفة ثم احسست ان يدا
قوية تقبض على عنق زوجى لتميته وانا متعلقة به لا قدرة لى على انقاذه
وهنا صرخت فى وجهه . . . إذن يجب ان تسكف عن خطيئتك : .
واشرت يدي الى ما جاء به مردقة : حرام علينا ذلك وليكن حلال
على الفقراء والمساكين وما كدت انطق بذلك حتى دمعت عيناه
فأدركت انها دموع التوبة فغفر قابى قبل لسانى ولم ادعه يتكلم لأننى

شمت فيه الطهر والبراهه رغم اعترافه — اخيرا قلت : — إذن يجب أن
نبعد عنا شبح هذه الجناية فتعال نوزع هذه الثروة على الفقراء
المساكين فأحاط خصرى بذراعيه في حنان وهو يقول : —

قد نضبط فنساق الى السجن

قلت بصوت هادى ينم عن عزيمة راسخة : نتسلل فى الليل
خفية ونضع بحذر فى كل كوخ قطعة من الحلوى ولا بد من توزيع
الثروة بعدل على الجميع ومددت يدي إلى القلادة لأنزع كل حلقة من
الأخرى ليتمكن توزيعها على الفقراء ولما أيقن أنني فاعلة اختطفها من
يدي وهو يقول ، واذا شاع الخبر ماذا يقول الناس ؟

قلت — بعث الله اليهم رزقا حلالا بوسيلة جبريل مثلا
فضحك متمكنا قائلا .. أترى جبريل تقمص روحك وأنا لا أدري
فضحكت انا الأخرى قائلة : يحتمل ..

ثم لزمت الجد وأعقبت ، لابد من تنفيذ قرارى الليلة فأتيت لى
حرية العمل ان صعب عليك تنفيذه أو مشاركتى

فظل ممسكا الحلوى فى يده قائلا : وأنت ألسنت فقيرة ؟؟

قلت — لا والله ما أحسست . بالفقر أبدا ... حبك مغنى

وإيمانك لى

فعاديطوقني بذراعيه في حرارة ويقبلني في حنان قبلات ماتذوقت
حلاوة مثلها من قبل وقال :

ياسناء ، آن لنا أن نودع حياة التقشف والحرمان لنستقبل
حياة الهناء والنعم

ف نظرت اليه في بله إذ لم أفقه ما يقول
فاستطرد : انظري إلى وتأمل جيذا أترين على وجهي طابع الالم
فأسندت وجهي على صدره وأنا انظر اليه بوجداني وحواسي
متمتمة .. أبدا .. أبدا .. إنما انت تزججني بمكتمك

ففرق ملابسي بلا تردد ثم البسني الملابس الجديدة دون مساعدتي
وقد حاولت أن اتخلص منه متمتمة : لا يمكن أن ارتديها حتى
أعرف ماأناها

فضحك طربلا وهو دائب على تزييني وتجميل لي بالحلي ثم قبلني
في كل موضع
وأخيراً قال :

أتعرفين النيبيل المجهول .. هو أنا ولكنني منذ البارحة أمير ..
حيث توفي والدي ونودي بي ثم فارلني جريدة مرّ على ظهورها
يو مان فاذا بها ..

وفاة الأمير عبد العزيز والمناداة بابنه إلهامى أميراً ..

اختفى الأمير منذ عام عندما أمره والده ان يتزوج بابنة
عمه قهراً ..

فليعد الأمير الحاكم الشاب إلى بلاده المحبوبة آمناً مطمئناً .. وإذا
لم يحضر الأمير خلال هذا الشهر اضطر الشعب لتولية ابن عمه
الأمير حسن

وما كدت انتهى من تلاوته حتى قال وهو يعانقنى أنا فخور
بك وتياه ، ولا اكتمك انى تصنعت الفقر لأحتر نفسك فاذا
بك ملاك الرحمة الكبرى ومثال التضحية ورسول الحب مجسماً فى
صورة امرأة واليوم يا أميرتى نودع هذه الحياة المتواضعة آسفين
إذ تمتعنا فيها بصفاء الحياة وروعه الحب .. ولتكن قبلة الحب بعد
اليوم لنا نخرج اليها كل عام مرة لنوزع على فقرائها ذكاة الحب الخالد
بإذن الله .. حيث ترك لى والدى ثروة هائلة

♦ ♦ ♦

أخيراً

في مثل هذا اليوم من العام التالى احتفلت البلاد بعيد جلوس
الأمير « إلهامى » ولقد شاركت الشعب بعواطفى ومالى إذ ظلمت
طوال العام أشرف على حياة الملايس واعداد ما يملا حياة الفقراء
والمعوزين بهجة ورضى . .

وفي هذا اليوم وزعت عليهم يدي كل ما وفقنى الله اليه من
منح وعطايا . حتى أحسست ان بهجة العالمين تملأ صدرى ونور الله
يكن فى قلبى — أى والله ، ما شعرت بالسعادة الروحية كما شعرت
بها فى هذه اللحظة وأنا ألمح دموع الفقراء تنهمر من فرط الفرح .
ولا شك أن سعادة الانسان فى إسعاد غيره . . !

أما الأمير فقد وقف بين جماهير العظماء والوجهاء خطيباً يعلن
فى صراحه وعزم واجب هؤلاء جميعاً نحو بلادهم ويحثهم على التعاون
والتآلف والتآزر ومراعاة مصلحة الفرد إذ بتدعيم المصلحة العامة
تنمى أسباب الأمن والرفاهية ويختتم كلامه بقوله . وأنا لا أعنى نفسى
من معارنتكم وأضع ذاتى وروحى فى مقدمة العاملين الباذلين كل
ما يملكون من مال وقوة فى سبيل إسعاد الوطن العزيز

تظهر قريبا

راعية الغنم

وقصص أخرى

أقاصيص الانسانية بما فيها من مرح
وترح وباطل وحق ورذيلة وفضيلة
جمعتها من دموع الناس وبسماتهم
وصغتها من المآسى والمسرات ومنها
سجلات هذه الحقائق التي جمعت
تلك الأقاصيص

محمد العطر بلي